١٠٠ قصة

قصص روسية



محمد السباعي

قصص روسية

١٠٠ قصة

قصص روسية

الناشر

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

كان أبي

تقديم هذه القصص قد ورطنى فى تجربة جديدة .

فقد كان على أن أقدم أبي .. لقراء هذا الجيل .. فى مجموعة « المائة قصة » التى قام بنقلها من الأدب العالمى إلى قراء العربية منذ ثلاثين عاما وتوليت نشرها وتقديمها إلى القراء فى هذه الأيام . ولست أدرى ما الذى جعلنى أورط نفسى فى هذا التقديم ؟

لم يكن هذا أول كتاب أنشره له بعد وفاته منذ خمسة وعشرين عاما .. فقد سبق أن أعدت نشر كتابيه « الصور » و « السمر » ومجموعة من القصص الروسية .. وتولى تقديمه فيها زملاؤه ومعاصروه من كتابنا الكبار كالمازنى والعقاد . لماذا أحاول أنا أن أحمل عبء التقديم وأنا أدرى بمشقته وتعذره . ؟

لقد قال المازنى – رحمة الله عليه – وهو يقدمه فى كتاب الصور :

« كانت فيه فكاهة حلوة تهون العسير وتذلل الصعب وتجلو صدأ العيش ، وهى التى يسرت له أن يكون الرجل العارف بالحياة الذى لا يعدله أحد فى الظرف وحسن المراضاة وطيب المعاشرة ، فقد كان ضحوكا أبدا إلا أن يكون فى قراءة أو كتابة ،وكان يؤثر من الأصدقاء الظريف القادر على النكتة ، ويفر ممن فيه صلف أو عجرفة ، وما رأيته قط يفرق بين غنى أو فقير أو كبير أو صغير .

وقد مضت على وفاة الصديق الكريم المرحوم السباعى سنوات طويلات المدد ، وخفت صوته القوى ، وارتمى قلمه المقتدر زمانا لم ننسه فيه . ولكن الجيل الجديد لا يكاد يعرفه لأن الأسماع لا تقرع بذكره ، وإن كان ممن يجب أن يكون كل جيل منهم على ذكر ، فما تنجب الدنيا كل يوم مثله .

وإذا كان قد تقدم به زمانه فإن هذا الزمان الذى أخرجه قبل أوانه قد أبطأ عليه بالإنصاف ومطله حقه ، ولكن الزمان يسلب الإنسان كل شىء إلا الفضل وإن مطل وسوّف .

وليس أدب المرحوم السباعى مما يدفن . لأنه إذا اعتبرنا اللغة فهو من أرقى ما فى اللغة العربية وأبلغه ، وإذا اعتبرنا المعانى فهو زاخر بها ، وإذا نظرنا ما ترجم ألفيناه من خير ما فى أدب الغرب ، وهو أول من عنى بأن يترجم عن الإنجليزية طائفة من أسمى ما فى أدبها وليس السبق بفضل فى ذاته ، وإنما الفضل فى حسن الاختيار وحسن الأداء ، حتى لكأن ما ترجم كان قد كتب بالعربية فى الأصل . فهو على رأس المترجمين الحديثين ، وفى ركب المقدمين من أدباء النهضة الجديدة »

قال العقاد وهو يقدمه فى كتاب قصص روسية :

« ليست هذه المقدمة بالتى تتسع للوفاء بحق السباعى فى الأدب العربى الحديث على وجه الإسهاب والتفصيل ، فإنما يتسع لذلك كتاب شامل لعصره ، ولمكانه هو من عصره ، وهو فى أجل مكان .

ولكننا نجتزى هنا بالإجمال الذى يدل قليلة على الكثير ، فنضعه فى مكانه حيث نقول : إنه كان طليعة المدرسة الأدبية الحديثة فى نهضة الأدب لمصرى التى تحددت منذ أوائل القرن العشرين .

وقد تلاقى السباعى وأكبر الأدباء الروسيين فى صحائف حوافل بغرائب الشخوص وطرائف التحليل والتمثيل ، فلو كتبها مؤلفوها بالعربية لما بلغوا بها من الإجادة فوق ما بلغ المترجم القدير ، لأنه نفذ من كلامهم إلى الروح وحفظ له بلاغة التعبير »

أأجسر أنا على تقديمه بهذا القول .. أو بما يشابهه .. دون أن يؤخذ قولى .. على سبيل « كان أبى » .. ودون أن أتهم بالتفاخر به ؟

لماذا لم أوفر على نفسى هذه المشقة فأرجو من الدكتور طه حسين .. وهو الكريم المجامل .. أن يقدمه .. بعد أن قال لى عنه : « لقد كان أبوك أول من أخرجنى عن أزهريتى »

لماذا لم أسأل صديقه القديم سلامه موسى .. أن يقدمه . وهو الذى قال لى فى أول لقاء لنا فى مكتبة الخانجى : (أهذا زمن ؟ .. الذى تروج فيه كتبك أكثر من كتب أبيك) .. فلما سألته مازحا : « ألا يحتمل أن أكون أفضل من أبى ؟ » فنفى بشدة قائلا : « بالطبع لا » فلما سألته : « أقرأت لى ؟ » أجاب بالنفى بنفس الشدة .. ولم أشك فى أنه ما دام قد استطاع المفاضلة بين طرفين دون أن يعرف أحدهما .. فلا بد أنه واثق من الآخر- وهو أبى - لا يدانيه فى قدرته أحد .

ولماذا .. إذا كنت أشفق من أن أجشم هؤلاء مشقة تقديمه .. لم أمنح خاله الوفى الأستاذ عباس حافظ متعة هذا التقديم وهو الذى لم تخل من اسمه مقالة له . ولا خلا من ذكره حديث ..

لماذا .. أترك كل هؤلاء .. وألجأ إلى نفسى أحملها ما لا طاقة لها به ؟

أهو الغرور الذى يدفع فى نفسى الإحساس بأنى قد أصبحت شيئا .. وبأنى أستطيع أن أضع نفسى موضع المقدم .. لمعلمى الأول .. وصاحب الفضل على .. والذى - لو مد الله فى عمره - لكان أسبق إلى تقديمى .. ودفعى عبر الطريق الشائك الشاق .. الذى سرت أكافح فيه وحدى بعد أن فقدت عونه وهدايته ؟ .

أم هى الرغبة فى رد الجميل .. على الدفعة الأولى التى دفعها لى عند طفولتى . والتى كانت لى نعم العون والهداية حتى بعد أن فقدت - بموته - عونه وهدايته ؟

أم هو الشوق .. إلى مناجاة النائى .. المستعصى رجوعه .. والحنين إلى لقاء الغائب .. الميئوس من لقائه ؟

قد يكون هذا .. أو يكون ذاك .. أو يكون شيئا من هذا وذاك ..

وهو إحساس بأن هذه المجموعة الضخمة من القصص التى نقلها أبى من الأدب العالمى .. والتى استوعبتها بين العاشرة والرابعة عشرة .. كانت حصيلتى الكبرى التى رسبت فى أعماقى .. والتى وجهتنى فى كتابتى الأولى .. والتى نضحت على أسلوبى وأفكارى . لقد سقيتها فى أول الأمر .. كواجب لا

بد من أدائه .. كنت أنقل البروفات وأنا فى العاشرة من بيتنا فى جنينة ناميش إلى مطبعة البلاغ فى عابدين .. وكنت أجلس مع جامعى الحروف .. حتى ينتهى تصحيح البروفة الثانية على تصحيحات أبى فى البروفة الأولى .. وكانت التصحيحات مميزة بالخطوط الطويلة الممتدة من السطور إلى الهوامش ، حيث وضعت الكلمات الصحيحة فى دوائر .

ثم أخذت اندفع فى قراءة قصصه .. وأجد فى ذلك متعة عجيبة .. كنت ألتهمها التهاما .. وألتهم معها كل ما يقع فى يدى من قصص .. وأخذ أبى يقرأ لى القصة قبل أن يرسل بها إلى المطبعة .. وأذكر أنه لهفنى أول قلم .. عندما لحنت فى ترديد بيت من يا جارة الوادى .. قائلا « وخاطبت عيناى فى لغة الهوى عيناك » .

ومرت سنوات خمس منذ أن بدأ أبى نشر قصصه المترجمة والمؤلفة فى البلاغ الأسبوعى فى سنة ١٩٢٧ ، بدأها فيما أذكر بقصة « ما تشاء » لشكسبير ، وختمها بقصته الطويلة التى لم تتم وهى الفيلسوف . حتى مات فى أغسطس سنة ١٩٣١ وفى خلال هذه السنوات الخمس كنت أشعر أنى وأبى قد بتنا صديقين .. وكنت ألتهم كتابته فى نهم .. واستمتاع .. وحب .. وكنت أعرف من خلاله الكثير من الكتاب العالميين .. تاريخهم وحياتهم .. ونوادرهم .. ولم يكن يقصد قط تثقيفى .. فقد كان هذا آخر ما يخطر بباله .. بل كان يحدثنى حديث الصديق .. فى خلال جولاته فى شارع السد .. أو فى جلوسه عند صفيه .. الأسطى محمود المزين فى شـارع خيرت .

ومات أبى .. ولست فى معرض الرثاء .. أو الحزن .. ولكنى أقر بأنه خلف فى حياتى فراغا عجيبا .. وكان أكثر ما يفجعنى فى موته اليقين بأنى لن أراه ثانية .. وقد انعكس هذا فى أحلامى .. فظللت أحلم لسنوات بعد وفاته .. بأنه قد عاد مرة أخرى .. وكانت اليقظة تروعنى بحقيقة فقده ..

وظللت أقرأ بعد ذاك .. وأحاول الكتابة .. وكنت أحاول جهدى تقليد أسلوبه .. وكانت جل حصيلتى من اللغة من كتابته .. وكنت أجد مشقة فى

تقليده ، فقد كانت حصيلته من تراث لغوى ضخم من الأدب العربى .. وكانت حصيلتى من خلاصة حصيلته ..

وكان أكثر ما يستهوينى فى أسلوبه .. قدرته على التضمين .. وهو إدخال الآية أو الشعر ضمن كلامه بطريقة مسترسلة تبديها كأنها جزء منه وليست دخيلة عليه .. وقد كان التضمين هو طابع أسلوبه المميز ، ويبدو جليا حتى فى قصصه المترجمة ..

فهو فى قصة « تحفة فنية » لتشيكوف يصف دخول الغلام « ساشا سميرنوف » بأنه القنبلة أو « كجلمود صخر حطه السيل من عل » .

ثم يقول عل لسان « بيوتر » فى قصة زوبعة منزلية : إنك تسلمني لقضاء الله « وقضاء الإله أحوط للناس من الأمهات والآباء » ثم يردد مرة أخرى :

– سأرحل عنكم إلى فضاء الله الواسع الفسيح ..

وفى الأرض منأى للكريم من الأذى

وفيــــها لمن خــــاف القلى متحـــول

وفى قصة « الغرام » لتشيكوف يقول فى حوار بين العاشق وحبيبه « إتيتونا إليكسيفيا » :

– أراك مكتئبا حزينا ، وما كذلك كنت أيام الربيع حين زرتنا .

تقـول ابنة العمرى : مالك بعد ما

أراك حـــديثا نـــاعم البـــال أفرعا

فقلت لها : طول الأسى إذ سألتنى

ولوعة الحـــزن تترك الوجـــه أســـفعا

فلو أن ما ألقى أصـــاب متالعـــا

أو الركن من ســـلمى إذن لتضعضعا

وهكذا لا تكاد تخلو قصة واحدة من التضمين وكنت مأخوذا بقدرته على التضمين وطواعية الشعر له ، فرحت أقلده على ضعف حصيلتى من الشعر واستعصائه على ، وحاولت استعماله فى قصصى الأولى .. ولا أظننى استطعت

التخلص منه حتى فى قصصى الأخيرة . فأذكر أنى فى قصة « إنى راحلة » كتبت على لسان عائدة وقد حل يوم زفافها الممقوت ووقفت قبيل الفجر تستقبل النسيم الرطب وتستذكر أياما خلت : ما أقدر المناظر المعينة والأجواء المخصوصة على تحسين الذكريات .. وإثارة الشجن .

رب صوت عابر أو نسمة رطبة . تعيد إلى نفوسنا حشدا من الأحداث ، رب نقيق ضفدع أو زقزقة عصفور تنكأ فى نفوسنا جرحا اندمل وقرحا شفى

رب ورقاء هتوف فى الضحى ذات شجو صدحت فى فنن
ذكرت إلفا وعهدا سالفا فبكت حزنا فهاجت حزنى
فبكائى ربما أرقها وبكاها ربما أرقنى
ولقد تبكى فما أفهمها ولقد أبكى فما تفهمنى
غير أنى بالجوى أعرفها وهى أيضا بالجوى تعرفنى

وقد عاب على أمين طريقتى فى استعمال الشعر فى هذا العصر .. وقال إنه يقلل من استرسال كتابتى ويضعف من أسلوبى فلم أصدقه حتى سألت زوجتى ذات مرة عن رأيها فى التضمين ، فسألتنى وما هو التضمين ؟ فقرأت لها الفقرة التى نشرتها فى إنى راحلة فأجابت ببساطة إنها قرأت إنى راحلة بضع مرات ولكنها فى كل مرة كانت تقفز أبيات الشعر هذه ، لأنها لا تفهمها ، ولا تريد أن تفهمها .. وعلمت بعد ذلك أن ثلاثة أرباع القراء يقفزون أبيات الشعر التى تعترض الكلام .. فآمنت بنصيحة على أمين ..

وبرغم ذلك لم أستطع التخلص من داء التضمين فاستعملته فى آخر قصة لى وهى « رد قلبى » .

والظاهرة الثانية فى أسلوبه التى حاولت تقليدها فكلفتنى من الجهد مالا أطيق .. هى قدرته الخارقة على السجع .. الناتجة عن طواعية الألفاظ طواعية مبعثها حصيلة المترادفات الضخمة التى يملكها من اللغة ، ولا أظن هناك مثلا لذلك خيرا من وصفه للخريف والشتاء فى قصة ورقة اليانصيب بقوله :

« ثم أن إيفان دمترى شرع بعد ذلك يصور لنفسه الخريف وأنداءه ، ومزنه وأنواءه ، ثم الشتاء وزمهريره وغيمه وصبيره ، ووكف ثلوجه وضريبه ،

وعصف إعصاره وهبوبه ، وكسوف نهاره وفرط شحوبه ، وظلماته وحلكاته ، ومزالقه وزحالقه ، وضيق مذاهبه ، وكثرة معاطبه ، وحرج مسالكه ، وقحم مهالكه ، وانقباض الصدر منه والنفس ، وكدر المزاج وتبلد الحس ، وتقلص البدن وانكماشه ، وظلمة الروح وإيحاشه ، وسآمة المرء فيه وقلة إيناسه ، وسجنه بين جدران بيته واحتباسه .

وإني أعتقد أني قد أنجح في كتابة مثل هذا الوصف ، على أن أقف كتابة القصة لمدة عشرة أيام أتفرغ فيها لجمع المترادفات التي تمكنني من نظم مثل هذا الوصف ، الذي لا أظنه قد استحق من جهده أكثر مما تستحقه بضعة سطور في الحوار العادي من أية قصة .

تلكما هما الظاهرتان اللتان تلفتان نظري في أسلوبه الآن .. والتي أشعر أن قارئ اليوم لم يعد له جلد عليه .. وإن كنت لا أدري من المتسبب في هذا .. أهو الكاتب الذي لا قدرة له عليهما .. أم القارىء الذي لا جلد له على تتبعهما ..

يبقى بعد ذلك مضمون القصص ..

إن الشيء العجيب الذي أحسست به فيها .. ولا سيما في مجموعة القصص الروسية .. هو أن افتعال الهدف الذي ينادي به كتاب الأدب الهادف أو الأدب في سبيل الحياة شيء لا يكاد يحس .. وأن كلها لا تزيد على صورة صادقة من حياة الناس ، بل إن هناك قصة لشيخ الكتاب الروس مكسيم جوركي ، وهي الأمير وابنه ، تتلخص في أن ابن الأمير عاد ظافرا من الحرب ، فسأله الأمير أن يطلب ما يشاء .. فطلب منه جاريته المحبوبة .. فلم يستطع الأمير أن يفرط فيها لفرط حبه لها ولم يستطع أن يخلف وعده ، فحمل الجارية في سفينة وأصر على أن يقذف بها في البحر حتى لا ينالها أحد .. وفعلا رمى بها في البحر ثم رمى نفسه وراءها من فرط حبه لها .

تلك هي الحدوتة التي لو كتبها أحد كتابنا اليوم لاتهم بالسلبية وسلسلة نقائص أخرى من سجل نقاد الأدب الهادف .

والمجموعة لا شك نخبة ممتازة فى جملتها وإن كانت لا تخلو من بعض قصص تافهة . وأى شيء فى هذه الدنيا لا يخلو من التفاهة ؟

وبعد لقد نضحت المجموعة على إنتاجى الأول أسلوبا ومضمونا .. فهى كما قلت كانت زادى الأكبر الذى منحه لى أبى ، فكان لى نعم العون ونعم الهداية .. ترى هل قلت كل ما أريد عن القصص وعن أبى ؟

أم أنها – كما سبق القول – مجرد مناجاة للنائى المستعصى رجوعه .. والغائب الميئوس من لقائه ..

« يوسف السباعى »

الرّواية

للقصصى الروسى أنطون تشيكوف

قالت الخادمة لسيدها «بافيل ويسلى »المؤلف الأشهر وهو على المائدة وقد فرغ من طعام الغداء :

– إن بالباب سيدة تستأذن عليك ، وقد أقامت تنتظرك برهة طويلة .

قال المؤلف الأشهر :

– ما أراها إلا إحدى المتطفلات على الأدب والكتابة . وقد جاءت ببعض سخافاتها تعرضها على لتصدع بها رأسى ، بعدا لها ولأمثالها ، خبريها أنى مشغول .

– ذلك من أصعب الصعب ، لقد ترددت على الدار خمس مرات ، وهى تأبى إلا لقاءك ، وإنها والله لتوشك أن تبكى حسرة ولهفة .

– اذهبى بها إذن إلى المكتب ...

تناول المؤلف « بافيل » رداءه فلبسه بكل تؤدة وأخذ فى يمينه قلما وفى يساره كتابا ومضى إلى المكتب وحاول جهده أن يتظاهر بهيئة المكدود المثقل بأعباء العمل .

وألفى بالمكتب امرأة ضخمة بدينة محمرة الوجه لابسة نظارة ، حسنة الهندام والشارة على رأسها قلنسوة حمراء محلاة بعصفور أحمر ، ولما أبصرت المؤلف ضمت ذراعيها على صدرها وصمدت إليه بعينيها كالضارعة المبتهلة .

وقالت بصوت حاد مذكر يتهدج اضطرابا :

– بديهى أنك لست تذكرنى ، إنى .. إنى تشرفت بلقياك مرة فى بعض الحفلات ... أنا الآنسة موراشكين .

– أ ... أ ... أ .. إحم ... اجلسى .. ماذا عسى أستطيع أن أصنع لك ؟ .

قالت وأخذت مجلسا وقد زادت اضطرابا وربكة :

– قد ترى يا سيدى .. قد ترى ..أنك لا تذكرنى .. أنا الآنسة موراشكين .. قد ترى يا سيدى أنى من أشد الناس إعجابا بعبقريتك ، وما زلت مولعة باجتلاء محاسن يراعتك ، واقتناء نفائس يراعتك ، لا أصانعك ولا أداجيك ، ولا أجاملك ولا أحابيك ، معاذ الإله وحاش بيانك الرائع ، وأدبك البارع ، وإنما أضع التحميد موضعه وأقر التكريم والتمجيد فى نصابه ، وأثنى عليك بما أنت أهله ، هذا وإن لى أنا أيضا يا سيدى مشاركة فى الأدب وقد أخذت بطرف من العرفان ، لا أزعم أنى أحسب فى عداد المؤلفين ، على أنى قد وفقنى الله إلى أن أجود بما عندى وإن كان ضئيلا ، فلقد أبرزت فى أحايين مختلفة ثلاث قصص للصبيان ، لم تقرأها بطبيعة الحال يا سيدى ، وقد ترجمت شيئا كثيرا ، وكان المرحوم أخى ينشر نبذا فى جريدة الحرية ..

قال بافيل :

– لا شك فى ذلك ... ولكن ماذا عساى أن أصنع لك ؟ .

– قد ترى يا سيدى .. (وهنا نكست السيدة جيدها وغضت بصرها وزاد احمرارها) أني أعرف مبلغ نبوغك ودقة نقدك وأصالة رأيك ، وما زلت تواقة إلى استجلاء آرائك ، أو بالأحرى إلى افهـــا نصيحتك ، ولقد ألفت رواية تمثيلية ، وأريد عرضها عليك قبل النشر .

وعمدت السيدة إلى جعبتها و إنها لترتجف كالعصفور بلله القطر أو كأنها :

قطاة عزها شرك فباتت تجاذبه وقد علق الجناح

فاستخرجت، ملفا من الورق ضخما سمينا ...

وكان صاحبنا بافيل » لا يحب أن يقرأ من الأوراق إلا ما سطرت يداه ، فإذا هدد بإرغامه على قراءة مسودات غيره أو الإصغاء إليها أحس كأنه قد نصب أمام فوهة المدفع ، فلما بصر بالمسودة السمينة الضخمة طارت نفسه هلاعا وابتدر قائلا :

– لا بأس ... دعيها .. فسوف أقرؤها ...

قالت السيدة بصوت واهن قد براه الكمد والشجى فكاد يبيد ورفعت يديها مبتهلة :

ـ سيدى بافيل ! أعلم أنك مشغول جدا ، وأن كل لحظة من وقتك نفيسة قيمة ، وأعلم أنك تسبنى الآن وتلعننى فى ضميرك ، ولكن تعطف على وحنانيك ! ودعنى أقرأ عليك روايتى .

قال « بافيل » متلجلجا :

ـ لقد كان بودى أن أجيبك إلى هذا يا سيدتى لولا كثرة أشغالى ، وضيق مجالى ، فاسمحى لى بالقيام توا ولك الشكر .

قالت السيدة بصوت كأنين الثكلى ورنة النائحة :

ـ سيدى بافيل !

وخنقتها العبرة فأجهشت بالبكاء وفاض دمعها مدرارا ...

ـ لا أنكر أنى أسألك تضحية عظيمة وأنى قد بالغت فى الفضول والتطفل ، فلئن كان ذنبى عظيما فإن رحمتك وحنانك أعظم ، ولا أجحدك أنى راحلة من غدى إلى بلدة قزان ولابد لى من أخذ رأيك اليوم ، فتكرم على بنصف ساعة فقط ، إنى أبتهل إليك ضارعة خاشعة !

لقد كان « بافيل » على صلابة ظاهره أرق الناس قلبا وأرحمهم فؤادا ،فلما شاهد من لوعة المرأة وغليل حرقتها ما شاهد خارت قواه وفلت عزيمته وقال :

ـ لا بأس يا سيدتى ، سأصغى إليك .. سأهبك من وقتى نصف ساعة .

فأرسلت السيدة صيحة فرح شديدة ونزعت قلنسوتها ، واطمأنت فى مقعد وشرعت تقرأ بادئة بالمنظر الأول من الفصل الأول ، وخلاصته أن خادما وخادمة ينظفان غرفة فاخرة الأثاث والرياش ويفيضان أثناء ذلك بالحديث عن سيدتهما الصغيرة « حنة » التى كانت تنشىء مدرسة ومستوصفا فى القرية، ثم ينصرف الخادم وتشرع الخادمة فى محاضرة مسهبة عن فائدة التعليم وأن العلم نور والجهل ظلمة ، ثم إن المؤلفة السيدة موراشكين ترجع الخادم إلى الغرفة وتطلق لسانه بمحاضرة مستفيضة عن سيده الجنرال واستهجانه لآراء ابنته وعزمه على تزويجها لرجل غنى جاهل وزعمه أن الجهل نور والعلم ظلمة . وأن صلاح الناس فى الجهل المطبق وفسادهم فى العلم والعرفان .

ثم يغادر الخادمان المسرح وتظهر السيدة الصغيرة نفسها ، فتخبر المتفرجين

أنها قضت الليلة السالفة سهادا لم تذق حلاوة النوم من ذكرى حبيبها فالنتين الذى يشتغل عريفا عند أبيه (أبوه فقى كتاب) ، والذى على شدة فقره وفاقته قد ضرب فى العلوم بأرجح سهم وأوفر نصيب ، وفاز فى الفنون بالقدح المعلى ، ولكنه مع ذلك لا يؤمن بوجود الصداقة ولا الحب على ظهر هذا العالم الأرضى ، ويعتقد أن الحياة خلو من الخير مفعمة بالشر ، ومن أجل ذلك أصبح يمقت الحياة ويشتهى الموت ، ولذلك قد عزمت السيدة على إنقاذه .

أصغى المسكين « بافيل » إلى كل هذا وجعل يتلهف على رقدة فى سريره ، أو خلوة فى مضجعه ، وجعل يتفرس فى وجه المرأة والغيظ يأكل قلبه والحقد فى أحشائه يحتدم ويتضرم .

وكان صوتها الحاد يضرب على صماخ أذنه كضربات السندان (اللهم اكفنا السوء) وهو لا يعى شيئا ولا يفهم شيئا !

وجعل يقول فى نفسه :

لك الحمد أما ما نحب فلا نرى ونبصر ما لا نشتهى فلك الحمد

لقد أرسلك الشيطان إلى فى ساعة نحس كأنى بحاجة إليك ، أنت ألفت الرواية ، وأنا ما ذنبى وماذا جنيت ؟ رحماك اللهم ! أوقد حكمت على أن أسمع كل ما فى هذا الملف من سخافة ، لله ما أسمن هذا الملف وما أضخمه ! .. ويا ويلى ويا حسرتى !

نظر « بافيل » إلى الحائط حيث صورة زوجته معلقة وتذكر أن زوجته كانت سألته أن يشترى لها خمسة أمتار من الحرير ورطل جبن فلمنكى وعلبة « بودرة » للأسنان وقال فى نفسه :

– عسى أن لا أكون فقدت عينة الحرير ، أين وضعتها ؟ أظنها فى جيب الرداء الأزرق ، قبحا لهذا الذباب الملعون ! لقد وسخ الصورة . لأسألن الخادمة « أولغا » أن تنظف زجاجها .. يا ويلتى ! إن المرأة دائبة فى القراءة دءوب الرحى أو دءوب الأيام فى عمر الإنسان ، لقد بلغت المنظر الثانى عشر ، فلعلنا قد قاربنا ختام الفصل الأول ، قبحها الله ما أضخم بدنها ! أتحسب الحمقاء أن الذكاء مما يتفق مع هذا السمن المفرط وأن العبقرية تستطيع أن تحل فى هذا الجبل من اللحم

وفى مثل حرارة ذلك الشحم المتراكم ؟ وأولى لها من تأليف الروايات والله أن تشرب الخل البارد وتنام فى بدرون ! »

وقالت السيدة بغتة :

– ألا ترى أن هذا المونولوج أطول مما ينبغى ؟ ..

لم يسمع « بافيل » المونولوج ولكنه قال :

– لا .. لا .. إنه بديع جدا ..

فتهلل وجه السيدة سرورا واستمرت تتلو ما يأتى :

حنة : لقد أضناك وأكل جسدك كثرة التفكير ، إنك تعيش فى الدماغ لا فى القلب ، إنك جعلت كل عقيدتك وإيمانك فى الذهن ، وكفرت بالعواطف وجحدت الإحساس والشعور .

فالنتين : ماذا تعنين بالقلب ، هذا اصطلاح من اصطلاحات علم التشريح ولست أجيزه اسما للتعبير عما نسميه الإحساسات والعواطف .

حنة : (مضطربة حائرة) والحب ، ماذا تقول فى الحب ؟ حقا إنه ليس مجرد نتيجة من نتائج تسلسل الخواطر . خبرنى صراحة هل أحببت قط فى حياتك الماضية ؟

فالنتين : لا تدعينى أنكأ القروح القديمة ولما تندمل .. (فترة سكوت) أظن أنك شقية تعسة .

فى خلال المنظر الثامن عشر تثاءب « بافيل » وصرت أسنانه صريرا حادا وآلمه صدور هذا الصوت المنكر ، فتظاهر بمزيد الالتفات إلى السيدة مداراة لتلك الهفوة .

وقال فى نفسه :

– المنظر التاسع عشر ، ليت شعرى متى ينتهى هذا الفصل الذى إخاله أطول من ليل الصب ويوم الحشر ، اللهم لا أسألك رد القضاء ولكنى أسألك اللطف فيه ، أما والله لو دام هذا الفصل أكثر من عشر دقائق لاستغثت بالبوليس !

ولكن الله تداركه بلطف منه وعناية إذ قالت السيدة فى تلك اللحظة :

« يرخى الستار » ..

وتنهد بافيل من أعماق قلبه وتحرك للقيام ولكن السيدة قلبت الصحيفة بأسرع من لمح البرق واستمرت فى تلاوتها :

الفصل الثانى

المنظر الأول

(شارع بقرية ، على اليمين مدرسة ، وعلى اليسار مستوصف ، جماعة من القرويين ، رجال ونساء ، جالسون على باب المستوصف) ..

فاعترض (بافيل) قائلا :

– معذرة سيدتى ، على كم فصل تشتمل الرواية ؟ ..

قالت السيدة :

– على خمسة .

وكأنما خشيت أن يفر سامعها من بين يديها فأسرعت بالتلاوة :

فالنتين تشرف من نافذة المدرسة ، فى أقصى المنظر يرى رهط من القرويين يحملون أمتعتهم إلى النزل .

استسلم « بافيل » لقضاء الله الذى لا مرد له وأنزل نفسه منزلة المحكوم عليه بالإعدام حكما لا مناص منه ولا مخلص ، واجتهد أن يطرد النعاس عن مقلتيه ، وخيل إليه أن نهاية هذا البلاء المحتم أبعد إليه من رحمة الله على عدوه أبليس فقطع من ناحيتها كل رجاء ..

دو .. دو .. دو ..

دق ناقوس صوتها على صماخ أذنه « دو – دو– دو – وش – وش – وش » ..

وقال المسكين فى نفسه :

– لقد نسيت أن أشرب زجاجتى المعتادة من الصودا .. ماذا أصنع الآن ولم

أشرب الصودا ؟ سيصيبنى المغص ووجع البطن بلا شك .. أرى عصفورا على قاعدة النافذة .

وأطبق النعاس أجفانه فحاول فتحها بكل مشقة ، ثم تثاءب دون أن يفتح فمه وحملق فى وجه المرأة وخيل إليه أن صورتها قد انطمست معالمها ، وأن شخصها جعل يترجح ويتموج فى عينيه وأن شكلها قد استحال إلى هيئة مثلث وأن رأسها قد لمس سقف الغرفة .

فالنتين : كلا دعينى أرحل ..

حنة : (حيرى مولهة) لماذا ؟

فالنتين : (على انفراد) لقد اصفر لونها (إليها) لا ترغمينى على الإيضاح ، فالموت أحب إلى من أن أبوح لك بالسبب ..

حنة : (بعد فترة) كلا لن ترحل ..

ثم خيل إليه شبح السيدة ينمو ويمتد فى كل ناحية حتى ملأ فراغ الغرفة ، وصار كله خليطا مشوشا لا يبين منه سوى فمها المتحرك ، ثم استحالت بغتة إلى شكل زجاجة ثم جعلت تترنح يمنة ويسرة ثم تقهقرت هى والمائدة إلى أقصى الغرفة .

فالنتين : (مطوقا حنة بذراعيه) لقد نفخت فى روحا جديدة ، لقد بعثتنى إلى الحياة من المقابر ، لقد أنعشتنى كما ينعش الغيث موات الأرض ، ولكن لات حين مناص ! لقد سبق السيف العذل ! إن دائى عضال يعجز الأساة ويعيى الأطباء وما أن له من دواء !

انتفض « بافيل » فى مجلسه بغتة ونظر إلى السيدة بعينين مغيمتين مقروحتين موجعتين ، وشخص بصره كالذى لا يعى ولا يعقل ..

المنظر السابع عشر

البارون ومفتش البوليس وأعوانه .

فالنتين : خذونى !

حنة : إنى جاريته وملك يده ! خذونى معه ! إنى أحبه ! إنه لأحب إلى من روحى !

البارون : اذكرى يا حنة أنك تهدمين مجد أبيك !

وهنا نهض بافيل هائجا كالليث واختطف إحدى ثقالات الورق من فوق المائدة وصبها على أم رأس المرأة وصاح بصوت جهنمى مستنكر :

– خذونى بدلا من حبيبها فالنتين ، فإنى أولى بالقصاص منه ، إذ قتلت المرأة ..

ولكن المحكمة برأت ساحته ..

زيت البرافين

للقصصي الروسي أنطون تشيكوف

كان بيوتر بتروفتش أرملا منفردا ، ولكي يؤنس من وحشته ويخفف من عناء وحدته أسكن معه أخت زوجته البكر العانس (كان كل منهما يعيش على نفقته) ولبثا على هذه الحال ردحا من الزمان .

وفي ذات ليلة دعى صاحبنا بيوتر إلى حفلة نفاس (سبوع) وكان رجلا تقيا صالحا ورعا لا يذوق الخمر ، ولكنه مجاراة للإخوان في تلك الليلة وسرورا بسلامة النفساء وصحة المولود شرب كأسين من الراح ، ولاحبذا الراح إنها تغرى الشارب بالاستزادة — كماء البحر لا ينقع غليلا كلما ازددت عطشا .

لذلك لما انكفأ إلى بيته جوف الليل أحس ظمأ شديدا في أحشائه ويبسا في حلقه ، وحذرا من إيقاظ أليفته وعشيرته أو إزعاجها خلع نعليه لما ولج باب المنزل وصعد السلم حافيا على مشطي قدميه كاللص حتى بلغ فراشه ، ثم أراد النوم فأباه عليه ظمؤه وغلته .

فقال في نفسه :

— إن داشنكا (أخت زوجته) على ما أظن تخبيء في الركن الأيمن من خزانتها زجاجة من الفودكا ، فلو عمدت إلى هذه الزجاجة فأخذت منها قدحا لم تفطن إلى ذلك ولم تشعر .

وبعد قليل من التردد تغلب على مخاوفه وعمد إلى الخزانة ففتحها بمنتهى الحذر ، وتلمس الزجاجة في الركن الأيمن فأفرغ منها قدحا ثم أعادها إلى مكانها (وصلّب على صدره) والتهم القدح ، وعلى إثر ذلك ثار في جوفه شيء كالمعجزة فأحس أن قوة خفية قذفت به من جانب الخزانة — كأنه بمبة — فصدمت به جدار الغرفة ، واستطارت أمام عينيه لمحات برق خاطفة وانقطعت أنفاسه ، وخيل

إليه كأنما قد ألقى به فى مستنقع مفعم من علق ، وأنه بدلا من الفودكا قد شرب « ديناميتا » ينسف جسده والدار والحى برمته ، وكأن رأسه وذراعيه ورجليه كلها يمزق ويطير فى الهواء إلى جهنم !

ولبث طريحا على أرض الغرفة ثلاث دقائق لا حراك به ولا حس ولا نفس ، ثم نهض وساءل نفسه :

– أين أنا ؟

وكان أول ما أحس به لما عاد إلى صوابه رائحة شديدة من زيت الوقود المسمى « البارافين »

فقال فى نفسه وملكه الرعب والجزع :

– يا لله ويا لقديسه وأوليائه ! لقد شربت من البارافين بدل الفودكا .

ولما تبين له أنه قد سم نفسه عرته قشعريرة ما لبثت أن استحالت إلى حمى ، واستدل على أن ما شربه سم بأشياء أخرى خلاف رائحة البارافين المستفيضة فى أرجاء الغرفة ، كاللهيب الذى كان يلذع لسانه وشفتيه ، والبارقات المستطيرة أمامه والدقات الرنانة فى رأسه والمغص المتسلط على أمعائه .

وكذلك لما أحس قرب يومه ودنو أجله ، وانقطعت من الدنيا آماله وتمثل له شبح الموت لا ريب فيه ولا مناص منه – أراد أن يودع أقرب الناس إليه وأعزهم عليه – فعمد إلى مضجع العذراء داشنكا .

ودخل عليها الغرفة وهى فى أعماق نومها ، ورفع عقيرته بالأنين ينوح بصوت متوجع تتخلله الدموع :

« داشنكا ! داشنكا ! عزيزتى داشنكا ! »

فتقلب فى الظلام شبح وتمتم بكلمات غير مبينة ثم تنهد .

– داشنكا ! داشنكا ! أختى داشنكا !

فارتفع صوت امرأة تقول بسرعة :

– إيه ! ماذا ؟ وماذا يا بيوتور بتروفتش ؟ ما أسرع ما رجعت ! وماذا سمى المولود ؟ ومن عرابه ؟ وهل كان بالحفلة موسيقى ؟

— كان عرابة أندريفينا ، وعرابته ناتاليا ، ولكنى أموت يا داشنكا ! إنى أعانى سكرة الموت يا داشنكا ! — وقد أكلنا هنالك فطيرا ومكرونة — آه ياداشنكا إنى فى حالة النزع ! وقد سموا المولود أوليمبيادة ، إنى ... إنى شربت بارافينا يا داشنكا !

— ما أظن أنهم يقدمون البارافين هنالك للضيوف كبعض المرطبات يابيوتور !

— كلا يا داشنكا ، وإنما الواقع هو أنى — ولا أكذبك يا داشنكا — أردت أن أحسو قدحا مما فى خزانتك من الفودكا دون استئذانك ، فانتقم لك الله منى فصب على سوط عذابه فألقى فى يدى زجاجة البارافين بدلا من الفودكا وقد شربت منها ... فماذا أصنع ؟

فلما سمعت داشنكا أن خزانتها قد فتحت بدون إذنها ازدادت تنبها واستيقاظا .. ونفضت عن أعطافها غبار الكسل وثارت من مرقدها فأشعلت شمعة ، وأقبلت تهرول فى قميص النوم شنيعة المنظر قبيحة الشكل عجفاء رسحاء كلها جلد وعظام حتى بلغت الخزانة .

ثم صاحت بقسوة وغلظة وهى تفتش الخزانة :

— من أذنك أن تفتحها ؟ من أباحك أن تعبث بمكنوناتها وتعيث فيها فسادا ؟ وهب أن بها زجاجة من الفودكا فهل تحسب أنها قد وضعت ثمت من أجلك ؟ ما أشد قحتك وسماجتك وما أبردك !

قال بيوتر وانتكف العرق البارد عن جبينه :

— مهلا يا داشنكا . تالله ما شربت فودكا ولكن بارافينا .

— ومالك والبارافين ؟ أى شىء يدعوك إلى مساس البارافين ؟ وهل كان البارافين قد وضع فى الخزانة لأجلك وتحت تصرفك ؟ أم تحسب أن البارافين لايشترى بالمال وأنه يسقط من السماء كالمطر أو ينبجس فى أفنية الدور كالينابيع ؟ أتدرى كم ثمن البارافين اليوم ؟ وإلى أى حد ارتفعت أسعاره ؟

فولول بيوتر وناح قائلا :

— عزيزتى داشنكا ! إنها لمسألة حياة وموت ، تذكرين الأثمان والأسعار! ، انظرى إلى بعين الرفق وهبينى من لدنك رحمة !

فصاحت داشنكا بصوت مزعج وأغلقت باب الخزانة بصدمة عنيفة :

لقد شرب الخمر حتى شربت الخمر عقله ثم جاء كالمجنون يعيث فى الدار ويفسد ، ويدس أنفه فى خزانة غيره ، ياله من وغد خسيس وجان مجرم ومعتد أثيم ، ويا ويح نفسى من أولئك الأشرار والفجار ، لا أزال فريسة سطواتهم ، وضحية غدراتهم ، وهدف سهامهم فى روحاتهم وغدواتهم ، لا أخلو من شرهم ساعة واحدة لا ليلا ولا نهارا ، نغص الله عليهم عيشهم فى الحياة الدنيا ، وأصلاهم فى الآخرة نار جهنم ! لأغادرن هذه الدار غدا ، إنى فتاة عذراء ولست أسمح لك أن تقف أمامى وأنت عار من أكثر ملابسك ، وكيف تجترىء على أن تنظر إلى وليس على بدنى سوى قميص النوم ؟

ولجت فى غلوائها تسب وتلعن ، ولما كان بيوتر يعلم أنه متى ثار شغبها وهاج غضبها فليس يسكن منه الدعوات ولا الرقى ولا الابتهالات ، كلا ولا إطلاق مدفع فى الهواء ، طوح بيده يأسا وارتدى ملابسه وأزمع الذهاب إلى بعض الأطباء ، ولكنك لن تجد الطبيب إلا منذ استغنائك عنه . فبعد أن اجتاز بيوتر سبعة شوارع وطرق أبواب خمسة أطباء بلا جدوى ، أسرع إلى صيدلية وقد حسب أنه ربما أصاب المنفعة عند الصيدلى . وبعد برهة خرج إليه رجل قصير دميم مجعد الشعر أسمر البشرة فى جلباب النوم قد رنق فى عينه النعاس وعلى وجهه من أمارات البأس والوقار والهيبة والعقل والحكمة ما يملأ القلب روعة ورعبا .

وسأل بصوت ولهجة مما ليس يعهد إلا فى متفلسفى الصيدليين وأجلائهم من طائفة إسرائيل :

– « ماذا تريد ؟ »

فقال بيوتر بصوت مبهور النفس لا يكاد ينبعث من حلقومه :

– ناشدتك الله ... سألتك بالله .. أغثنى .. أعطنى شيئا .. لقد شربت خطأ من زيت البارافين ... إنى أموت !

– لا تهج أعصابك ! وأجب أسئلتى ، فإن ثورانك يمنعنى من فهم كلامك ، تقول إنك شربت بارافينا ؟ نعم ؟

فمشى الصيدلى إلى مكتبه بكل جمود وبرود وفتح كتابا وشرع يقرأ فيه باب المادة الطبية وبعد قراءة صفحتين هز إحدى كتفيه ثم الأخرى وكشر عن أنيابه وأطرق دقيقة ثم دخل الغرفة الملاصقة ، ودقت الساعة أربعا ، ولما أشار عقربها إلى عشر دقائق بعد الأربع برز الصيدلى و فى يده كتاب آخر وانغمس ثانيا بين طياته ، وقال بلهجة المتحير :

– إن كونك مريضا لدليل على أنه قد كان من الواجب عليك أن تعمد إلى طبيب لا إلى صيدلى .

– ولكنى قد عمدت إلى الأطباء فلم أستطع إيقاظهم .

– وكذلك لا تعدنا – نحن معشر الصيدليين – ضمن الآدميين ، ولا تحسب أن لنا شعورا وإحساسا ، فأنت تقلق راحتنا وتنفر منا ، فى حين أن كلاب البلد وسنانيرها تنال قسطها من النوم والراحة ... أنت لا تفهم شيئا ولا تحاول أن تفهم ، وفى نظرك أننا لسنا من دم ولحم و لكنا من الصخر الأصم وأعصابنا من الفولاذ .

أنصت بيوتر إلى محاضرة الصيدلى ثم تنفس الصعداء وانطلق إلى منزله . وناجى نفسه قائلا :

– وكذلك قد كتب على أن أموت ، إنا لله وإنا إليه راجعون !

وكان فى حلقه لهيب وعلى لسانه مذاق البارافين وفى أحشائه نخسات ووخزات ، وفى أذنيه دوى : بوم ... بوم ... بوم ... وفى كل لحظة كان يخيل إليه أنه جاء أجله وحان حتفه .

أسرع إلى البيت وتناول قلما وقرطاسا فكتب « لا يسأل أحد عن مصرعى ولا يؤخذ بمقتلى إنسان ، أنا الذى جنيت هذا على نفسى » ثم أدى فريضة الصلاة وأصعد إلى عرش الله دعوات الاستغفار ، ورقد وتغطى باللحاف ولبث يقظان حتى الصباح ينتظر ملك الموت ، وجعل أثناء ذلك يتخيل قبره فى بقعة خضراء يرف من حوله النور وتغرد فوقه العصافير .

وفى الصباح كان جالسا على فراشه سليما معافى فى عقله وبدنه آمنا مطمئنا أصح ما يكون وأسر وأشد ابتهاجا .

وقال لصاحبته داشنكا وهو يبتسم :

– إن الرجل التقى الصالح الذى يؤمن بالله واليوم الآخر ليس تؤثر فيه السموم إن هو تجرعها خطأ يا أختى العزيزة ، انظرى إلىّ مثلا ، لقد أشرفت على الهلاك وقمت على حافة القبر ، وعانيت سكرة الموت وألم النزع ، وبعد كل هذا تريننى أمامك صحيحا مسلما ، عدا لسعة فى فمى وحرقة فى حلقى ، ولكنى بخير والحمد لله .. ولماذا ؟ بفضل صلاحى واستقامتى .

قالت داشنكا وتنهدت وأخذت تفكر فى غلاء الأسعار ونفقات العيش : – « كلا يا بيوتر ! إن عدم تأثير البارافين فى أحشائك لا يرجع إلى صلاحك واستقامتك ولكن إلى كونه من صنف ردىء مغشوش ، ولم أستطع – يعلم الله – لضيق ذات يدى أن أشترى الصنف الأجود الأنقى ، ولو اشتريت من ذاك لقطع أمعاءك وأوردك حتفك ، وعلى فقرى وفاقتى ومكابدتى الأمرين فى سبيل إحرازى حاجياتى الضرورية أراك لا تتنزه ولا تتورع أن تسرق أشيائى ، فياويلتى منك ومن سطواتك ! هلا تركتنى وشأنى ؟ هلا كففت عنى من حدة بأسك وشرة بطشك ؟ هلا عففت عن زهيد أمتعتى ؟ ما أشقانى وما أبأسنى وما أتعس حالى ! يالله من أولئك الجبابرة الطغاة والشياطين المردة ! .. جزاكم فى الدنيا شرا وفى الآخرة نقمة وعذابا ! .. يا عصبة السوء واللؤم ! .. »

واستمرت على هذا المنهج ...

موقف حرج

للقصصي الروسي أنطون تشيكوف

قال « زركوف » من داخل المركبة يخاطب الحوذى وهو يسوق الجوادين :

– بئس الرجل أنت أيها الحوذى ، لا قلب ولا عاطفة ، إنى أعجب لك ولأمثالك كيف تستطيع أن تقطع مرحلة العمر دون أن تستمتع بلذات الغرام ومناعمه ! إن لك لقلبا ملطخا بالقطران ما تذوق قط حلاوة الحب ولا تفتح لوفود متعاته ومباهجه ، ولذلك لا تستطيع أن تفهم ما أحسه أنا الآن من مطارب الوجد والصبابة . فاعلم أن هذا المطر الثجاج لن يطفىء نيران أحشائى إلا إذا استطاع رجال المطافى أن يطفئوا سراج الشمس فى كبد السماء ، هذه إحدى استعاراتى البديعة ، ولكنك لا تفهمها . وأين منك الاستعارة والكناية والبديع وأنت عامى سوقى ، وما أنت بشاعر ، أم تراك شاعرا ؟

– كلا يا سيدى ، لست بشاعر .

– دعنا من هذا واسمع ...

وشرع زركوف يفتش فى جيبه عن كيسه ليدفع للحوذى أجرته .

– لقد اتفقنا على أن أعطيك روبيلا ، فهذا هو الروبيل ، مضافا إليه خمسة كوبيكات لحسن أدبك وإصغائك إلى هذرى وفضولى ، وداعا ، ولا تنسنى ، وتفضل بحمل هذه السلة وضعها على عتبة هذا المنزل برفق وحذر ! إن فيها لحلة فاخرة من حلل المراقص هدية للغانية التى هى أحب إلى من روحى !

فنزل الحوذى عن مقعده متبرما ساخطا وتنهد متضجرا ، وحمل السلة ومشى متخبطا لا تكاد تستقر قدماه على الأرض الزلقة يخوض بركا وأوحالا ، وغمارا وأوشالا ، حتى بلغ عتبة المنزل فألقى عليها السلة .

وعاد إلى مقعده متخبطا متعثرا وهو يتمتم قائلا :

– ما أقسى هذا الجو ، لهفى على رشفة من السلاف ، ورقدة تحت اللحاف ، ووقانا الله نفحات هذا القر الرجاف .

ثم استحث جواديه ومضى ...

وقال زركوف وجعل يتحسس بيديه يلتمس جرس الباب :

– أظننى قد استوفيت مطالب صاحبتى « ناديا » . لقد سألتنى أن أذهب إلى خياطتها فآتيها بحلتها الجديدة ، وها هى ، وقد طلبت صندوقا من الحلوى وآخر من الجبنة وها هما ، وباقة من الزهر وها هى ، هذه سدة باب الحبيبة فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس ، وحيها مترنما : « وعمى مساء دار نادى واسلمى » ولكن أين الجرس ؟ .

لا يعجبن القارىء من ترنم زركوف بالأشعار ، فلقد كان فى نشوة يهز أعطافه الطرب ، وكان قادما على حسناء رائعة ، ونار ساطعة ، وزجاجة لامعة ، ومائدة جامعة ، وأى سرور عمرك الله بعد هذا ؟ وربما سرك ولذ لك أن ينفحك القر ، ويأخذك الوابل الثر ، إذا وثقت أن وراءه عاجل الخير والبر .

وأخيرا عثر زركوف بالجرس وجذب زره جذبتين ، وما لبث أن سمع وقع أقدام من دونه ، وهمس صوت نسائى يقول :

– أذاك أنت يا ديمترى ؟

– أجل هو أنا ذا أيتها الفاتنة الحسناء دانياشا (دانياشا هذه هى الخادمة) . أسرعى بفتح الباب فقد أغرقنى المطر إغراقا .

فهمست الخادمة بصوت مضطرب :

– ويلى ثم ويلى ، غض من صوتك ولا تضرب بنعلك الأرض ، لقد قدم سيدى الليلة من باريز .

فلما سمع لفظة « سيدى » تقهقر خطوتين وتولاه من الرعب ما يتولى أشجع الشجعان حين يفاجأ باحتمال مواجهة الزوج ..

وقال فى نفسه وهو ينصت إلى خفة حركات الخادمة أثناء إغلاقها الباب وتسللها فى دهليز البيت !

– أية ورطة هذه ! وما معنى هذا كله ؟ أعود أدراجى وأقنع من الغنيمة بالإياب ؟ حنانيك ربى ! ذلك ما لم أكن أتوقع !

وما لبث أن أحس بنوع من السرور والفكاهة وذلك أن رحلته من المدينة إلى دار الحبيبة تحت سرادق الظلماء ، وشآبيب الأنواء بدت فى عينه وكأنها مغامرة روائية ممتعة . وقد زادها الآن عجبا وإمتاعا وما قام فى سبيلها من تلك العقبات واعترضها من هاتيك المباغتات ، وحفها من هذه الأخطار والمخاوف حتى لقد أصبحت وكأنها رواية نصفها مهزلة ونصفها مأساة ، وكأنه بطل حومتها ، وفارس حلبتها .

وقال لنفسه بصوت مسموع :

– قصة عجيبة وأيم الله ! ما أصنع الآن ؟ أأنثنى عائدا إلى المدينة ؟

همى المطر ثرا غزيرا وأعولت الريح خلال الدوح ، على أن الأمطار والدوح كانت محجوبة عن البصر بأصفق حجاب من الظلام ، وتدفقت السيول فى أخاديد الأرض ومساربها لها خرير وجرجرة كأنها تهزأ به وتسخر ، ولم يكن لعتبة الدار التى كان واقفا عليها مظلة تعصمه من صوب العارض الهتان فغمر الماء جلده من دون أبراده .

– ترى أكان عمدا مجىء الزوج فى هذه الساعة نكاية بى ونكالا ؟ أخذ الله جميع الأزواج وطهر منهم أديم الأرض !

كان بدء قصة غرامه مع « ناديا » منذ شهر ، ولم يك أبصر زوجها قط وكل ما كان يعرف عنه أنه رجل فرنسى يدعى (بواسو) وأنه كان سمسارا .

تراجع زركوف عن عتبة الدار مسافة قصيرة يخوض الأوحال ويتعثر على مزالقها ثم وقف ونادى « مركبة ، مركبة ! يا حوذى ! يا حوذى » وما من سميع ولا مجيب ، فعاد إلى عتبة الدار ساخطا ضجرا يتلمس طريقه فى الظلام كالأعمى .

– تبا لى ! لقد صرفت الحوذى بمركبته فمن لى بمركبة فى هذا المكان القفر البلقع فى مثل هذه الساعة ، وقلما توجد فيه المركبات فى رائعة النهار ورونق الضحى ! أية ورطة هذه ، وأى مضيق ومرتطم ! أظن أنه لا مناص من البقاء ههنا حتى الصباح ، ليلة شؤم وساعة نحس ، عسى أن يكون عند الله منها

المخرج . ماذا أصنع بتلك السلة وقد أوشك المطر أن يذيبها ، واحسرتى على الحلة القشيبة ، وعلى الحلاوة والجبنة !

وفيما هو ينظر كيف ينجو بنفسه وبالسلة من سواكب الحيا ، إذ تذكر أنه على كثب منه فى أحد أطراف هذا المصيف ساحة مرقص فيها مظلة لجوقة الموسيقى .

وساءل نفسه :

ـ أأبذل مجهودى فألجأ إلى تلك المظلة ؟ وهل فى استطاعتى أن أحمل السلة إلى هنالك ؟ وإنها لسلة ضخمة ينوء بحملها الجمل البازل والفيل العظيم !! كل خوفى على الحلة البديعة ، وأما الجبنة والحلاوة ففى ذمة الشيطان وعليهما العفاء !

وتناول السلة ولكنه تذكر أنه قبل بلوغه المكان المقصود يكون قد أصابها من واكف المزن ما يعطبها ..

وقال ضاحكا :

– يا لها من كارثة ! ألا ناصر ومعين ! لقد تضافرت على صنوف المحن ، وتناهبتنى أنواع المصائب .. ديمة واكفة ، وقرة راجفة ، ونشوة عاصفة ، ولا بارقة أمل ولا خاطفة ، ليس أمامى سوى أن أقرع الباب ثانية فأعطى السلة للخادمة دانياشا ثم أذهب إلى مظلة الجوقة الموسيقية فاستدرى بها إلى الصباح .

عمد زركوف إلى باب البيت فدق الجرس برفق ، وبعد دقيقة سمع مواقع خطوات بالدهليز وانبعث ضوء من ثقب الباب .

وصاح صوت مذكر أجش فيه لكنه أجنبية :

– من الطارق ؟

قال زركوف فى نفسه :

– الزوج وأيم الله ! لأخترعن رواية ..

ثم إنه صاح بأرفع صوته : « هل هذه دار (زلوخين) » ؟

– عليك وعلى من أرسلك لعنة الله ، اذهب لا يبعد الله غيرك ، ليس لدينا هنا سلوشكين ، فى سبيل الشيطان أنت وسلوشكينك .

فارتبك زركوف وألجم فوه فلم يزد على أن تنحنح ثم ارتد خائبا ، وزلقت قدماه فى بركة فامتلأ نعلاه ماء ، فاستشاط غضبا ولكنه مالبث أن ضحك ، وجعلت مخاطرته هذه تزداد على كر الدقائق لذة وإمتاعا وعجبا ، وكان يهتز طربا كلما جعل يذكر ما سوف يكون غدا من إتحافه إخوانه وخلانه بحديث هذه الرحلة الممتعة وحكايته صوت الزوج ولهجته الأجنبية ولكنته الفرنسية ، وصوت حذائه حين امتلأ بالماء ، وجعل يشهق ويزفر وهو لاصق بالثرى ، وما سيكون إزاء ذلك من ضحك سامعيه وسرورهم .

وقال فى نفسه :

– إنما يحزننى شىء واحد ، وهو خوفى على الحلة من التلف ، ولولا ذلك لكنت الآن أغط فى نومى تحت مظلة الموسيقى .

وجلس على السلة ليصونها ، ولكن رداءه ووشاحه وقلنسوته كانت أغزر قطرا وأشد على السلة خطرا من صوب الغمام .

– العياذ بالله !

وهنا بدأ زركوف يشعر بلذغات البرد ووخزاته ، فشرع ينظر إلى نفسه ويفكر فى أمر صحته وسلامته .

– إنى فى موقف لا يكاد يسلم عليه من عادية البرد إنسان ، وما كان من حق نفسى على أن أعرضها للتلف وألقى بها إلى التهلكة ، وماذا على لو أدق جرس الدار كرة أخرى ؟ ومالى خلاف ذلك من حيلة ، ولو طلع على الزوج ثانيا للفقت له قصة وأعطيته الحلة ، فإنه لا طاقة لى بالوقوف ههنا حتى الصباح ، ومهما يكن من الأمر لأدقن الجرس !

ودق الجرس بشدة ومرة فترت سكوت ثم عاود الدق ..

فصاح الصوت الغضوب بلكنة شديدة أجنبية :

– من الطارق ؟

– هل مدام بواسو تسكن هنا ؟

– ويحك ! وماذا تبغى لديها لا أبا لك ؟

– إن خياطتها المدام (كاتيش) قد أرسلتني إليها بحلتها الجديدة ، واعذرنا يا سيدى على الإبطاء فحالة الجو غير خافية ، ولقد ألحت مدام بواسو أن تصلها الحلة قبل الصباح ، وقد والله خرجت بها قبل غروب الشمس وما عاقنى إلا المطر ، ووعثاء السفر .

فتح الباب ووقف زركوف وجها لوجه إزاء المسيو بواسو ، رجل فى الأربعين ، عادى الشكل والصورة لا روعة له ولا جلال ، ولا أثر من ميزة أو حلية ، له سحنة كسحنة العسكرى وشارب كشاربه ، ولم يكن عليه إلا قميص .

واستمر زركوف فى اعتذاراته ، قال :

– يسوءنى جدا أنى أقلقت راحتكم ، ولكن مدام بواسو شددت فى أن تصل إليها الحلة قبل الصباح ، هذا وإنى أخو مدام كاتيش ، وحالة الجو شنعاء ، إحم ، إحم ، و .. و ..

قال بواسو متبرما عابسا ، وتناول السلة من زركوف :

– بلغ أختك تحيتى وثنائى ، زوجى لبثت فى انتظار هذه الحلة الجديدة حتى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، وقد أخبرتنى أنه سيجيء بها رجل من قبل الخياطة ...

– وتفضل أيضا بأن تقدم للمدام بواسو هذه الجبنة والحلاوة وباقة الأزهار التى كانت قد تركتها لدى أختى مدام كاتيش .

فتناول بواسو الجبنة والحلاوة والأزهار وجعل يشم هذه ثم هاتيك ثم تلك ، ووقف ينتظر ومرت فترة سكوت طفق زركوف أثناءها يفكر فى نكتة يجعلها ختاما لهذه الرواية الهزلية ، ولم يفتح الله عليه بشيء . ولبث الفرنسى ينظر إليه ويسائل نفسه ليت شعرى متى يحرك هذا الرجل قدميه للانصراف ؟

وأخيرا همس زركوف كالمتوجع المتشكى :

– أواه من هذا البرد الفظيع ! وحل للركب ، ومطر كأفواه القرب ، وظلام يسد كل مسلك ومذهب ، وقد مضى الحوذى ومالى فى هذه الدجنة من مصطرف ولا مضطرب . فهلا تركتنى آوى إلى الدهليز يا سيدى ريثما تقلع السماء ؟

– لا بأس يا سيدى اخلع نعليك ، واتبعنى ، لا بأس لا بأس !

وأغلق الفرنسى الباب وسار به إلى غرفة الجلوس الصغيرة المألوفة ، فرآها زركوف كآخر عهده بها لم يزد عليها سوى زجاجة نبيذ فوق المائدة وصف من الكراسى فى وسط الغرفة مفروش عليه حشية مستطيلة فى منتهى الضيق .

قال بواسو ، ووضع المصباح على المائدة :

– ما أشد البرد ههنا ، لقد وصلت من باريز بالأمس ، فكل بلدة جزت بها ألفيتها دفيئة طيبة الهواء صافية السماء إلا روسياكم هذه ، كلها عواصف وأنواء وأوحال . وذلك البعوض أباده الله ، إن له للذغة كلدغة العقرب أو هى أمض وأنكى !

وأترع بواسو قدحا من النبيذ واحتساه ..

ثم جلس على الحشية وقال :

– لم أنم ليلتى ، وكيف أنام وأنا بين مزعجين : البعوض وحمار ما برح يدق الجرس ويسأل عن مجهول اسمه سلوشكين .

ثم سكت ونكس هامته وكأنما كان ينتظر انقطاع المطر ، ورأى زركوف أنه قد يكون من محاسن الأدب أن يؤنس الرجل بشىء من الحديث فقال له :

– إنك شهدت باريز في ظرف من أخطر ظروفها ، لقد كان « بولانجيه » يدير دفة السياسة ويصرف أعنة القدر أيام كنت هنالك .

لم يحر الرجل الفرنسى جوابا ولم تبد على وجهه شواهد الإصغاء والفهم .

واستمر زركوف فى حديثه فتكلم عن « جريفيه » و « ديروليد » و « زولا » ولكنه ما لبث أن تأكد أن صاحبه لم يكن قط قد سمع بهذه الأسماء من قبل ، والواقع أنه لم يكن يعرف فى باريز سوى بضعة محال تجارية وعمته المدام « بليسيه » وكل ما خلا ذلك كان لديه مجهولا ، وانتهت تلك المحادثة السياسية الأدبية بمضايقة المسيو بواسو وإحراج صدره حتى لجأ إلى زجاجة النبيذ فاحتسى منها قدحا آخر واستلقى على الحشية الضيقة .

قال زركوف فى نفسه ، وتأمل ضيق فراش الرجل وضنك متقلبه :

– إنه لأضيق مجالا وأخطر مزلة من الصراط ، والراقد عليه كالراقد على كف عفريت .

وأغمض الفرنسى أجفانه ولبث ساكن الحركة زهاء ربع ساعة ، ثم ثار إلى قدميه فجأة وحدق فى وجه ضيفه بعينين ساهيتين ، وتبين على وجهه القلق وضيق الصدر ثم تناول قدحا ثالثا .

وهمهم قائلا ، وحك ذراعا بذراع وساقا بساق :

– أهلك الله هذا البعوض ، ما أخبثه وما ألأمه !

ثم ذهب إلى الغرفة المجاورة ...

وسمعه زركوف ينبه إنسانا نائما ويقول :

– لقد طرقنا رجل أصهب يحمل إلينا حلة جديدة .

ثم عاد سريعا وأعاد الكرة على زجاجة النبيذ ... وقال وهو يتثاءب :

– إن زوجتى لقادمة ، ليس يخفى على غرضك ، أنت تريد نقودا ...

قال زوكوف فى نفسه :

– أولى لهذه الحادثة أن تنتهى عند هذا الحد ، فما أراها تزداد على الاستمرار إلا شرا وخطرا ، هذا وقدوم « ناديا » الآن مما يثير عجبى ودهشتى ، وعلى أية حال فالواجب أن أتجاهلها تماما .

وسمع حفيف أذيال وانفرج الباب قليلا وأبصر زركوف رأسا مجعدا معروفا لديه مألوفا فى نظره ، بوجنتين وهاجتين وعينين وسنيين .

وقالت ناديا :

– من القادم من لدن مدام كاتيش ؟

ولكنها لم تكد تبصره حتى صاحت صيحة خفيفة وضحكت ودخلت عليهما وقالت :

– أذاك أنت ؟ ولم كل هذا الهرج والمرج ، وما معنى هذه الرواية الهزلية ؟ ومالك قد وسخت ثيابك ولوثتها كأنك بعض صبيان المدارس ؟

فاحمر وجه زركوف من شدة الخجل والارتباك ولم يكن ينتظر مثل هذه

المفاجأة من حبيبته ناديا ولا سيما أمام زوجها ، ولبث مضطربا لا يدرى ماذا يقول ولا أيان ينظر .

وقالت ناديا :

– الآن فهمت معنى حيرتك واضطرابك ، لقد أوجست خيفة من المسيو بواسو ، إذ لم يسبق بينكما تعارف .. هذا زوجي جاك بواسو ، وهذا هو ستيفان اندريفتش ، لقد بلغنى أنك أحضرت حلتى الجديدة ، أشكرك من أعماق قلبى يا صاحبى القديم ، تعال ، إن النعاس يغالبنى .. وأنت يا جاك اذهب إلى فراشك أيضا فما أراك إلا متعبا مكدودا بعد رحلتك الشاسعة ..

نظر جاك إلى زركوف متعجبا مندهشا ، ثم هز كتفيه ، وعمد إلى زجاجة النبيذ عابسا مكفهرا ... وهز زركوف كتفيه أيضا ومشى وراء ناديا !

* * *

ولما غادر الدار نظر إلى جانب الأفق المربد ، وإلى الطريق الوحلة القذرة ، وقال :

– قذر فى قذر ! عجبت للرجل المهذب المثقف لا يزال به الشيطان حتى يؤديه إلى أحرج المواقف .

ثم أخذ يفكر فيما هو طيب وفيما هو خبيث ، وفيما هو صالح وفيما هو طالح ... ولما كان من دأب كل امرىء أوقعته الأقدار فى مكروه أن يتذكر معهود لذاته ومحمود مقاماته فيحن شوقا إليها ويذوب حسرة عليها ، فكذلك قد جعل زركوف يتذكر غرفة مطالعته ومكتبته وتحريراته التى تركها مقتضبة مبتورة ويتمنى لو يتاح له عفريت ينقله إلى غرفته المألوفة كالذى نقل إلى سليمان عرش بلقيس قبل أن يرتد إليه طرفه !!

زميلان فى الشتاء

للقصصى الروسى أنطون تشيكوف

فى مساء يوم من أيام يوليو كان جماعة من المصيفين النازلين بمنتزهات « هلكوفو » ومعظمهم أرباب أسرات محملون صررا وسلالات وصناديق يتوافدون أفواجا من المحطة إلى المصطاف ، وكلهم باد عليه دلائل التعب والكد والعناء والجوع ، كأن شمس النهار لا تقر بنورها الوضاح أبصارهم وكأن زهر البساتين لا يثلج ببهجة غضارته صدورهم .

وكان يسير بين الجماعة « بافيل زيكين » الباشكاتب بإحدى المحاكم .. رجل كهل طوال مقوس الظهر فى ثياب رخيصة من الكتان يتفصخ جبينه عرقا ، عليه سيما الهم والكآبة .

ونظر إليه رجل فى مثل حاله وهيئته ، عليه سراويل صفراء وقال له :

– أتأتى ههنا إلى مصيفك كل يوم من المدينة ؟

قال زيكين :

– كلا ، ليس كل يوم ، إن زوجتى وابنى مقيمان ههنا ، وأنى أجيئهما مرتين فى الأسبوع أو ثلاثا ، ولا أستطيع أكثر من ذلك لضيق أوقاتى ، ولما فى كثرة المجىء من ثقل النفقة »

فقال صاحب السراويل الصفراء متنهدا :

– أجل ، إنما الصعوبة كلها فى ثقل النفقة ، النفقة يا سيدى هى كل البلاء ! ، مركبة من مقر عملك فى المدينة إلى المحطة ، ثم تذكرة السفر ، وثمنها اثنان وأربعون « كوبيك » وجريدة ومجلة تتسلى بها أثناء الرحلة .. ولا مناص من احتساء قدح من الفودكا ، مصروفات تافهة يستصغرها الإنسان ولكنها تصل فى النهاية إلى مبلغ جسيم تصفر من هوله الوجوه ، وتقشعر الأبدان ، وعبء فادح

على أعناق الموظفين أمثالنا الذين هم فى أشد الحاجة إلى كل دانق وسحتوت من مرتباتهم الضئيلة كما لا يخفى عليك يا سيدى ، وما أنكد عيش الموظف ! .. إذا أنفق درهما فى غير وجهه بات شر ليلة يتململ على الجمر ... نعم يا سيدى لم أتشرف بمعرفة اسمك ... أتقاضى مرتبا سنويا ، ألفى روبيل ، إنى باشمهندس ، ومع ذلك أتعاطى التبغ من أردأ الأصناف لضيق ذات يدى ، ولا أستطيع توفير روبيل واحد أشترى به ماء معدنيا وصفه لى الطبيب دواء من الحصوة .

قال زيكي :

ـ أجل يا سيدى إنها لعيشة تعسة وحياة منغصة وهؤلاء النساء بؤسا لهن ، لا شفقة ولا رقة ولا أدب ولا حياء ولا شعور ، يكلفن الرجل بكل شيء كأنما هو على كل شيء قدير ، أو كأنما بيده مفاتيح كنوز الأرض ، ولم يكفهن كثرة مطالبهن التى لا نهاية لها ، حتى يرغمن الرجل المسكين على الذهاب بهن إلى المصايف ، لا كن ولا كانت المصايف ! .. يرحمنا الله أهذه عيشة ؟ .. كلا إنما هى أشغال شاقة ! .. إنما هى نيران الجحيم ! .. لا راحة ولا طمأنينة ولا قرار !

يعيش أحدنا مشردا حيران كأنه روح ضالة لا معاذ ولا موئل ، فأما فى المدينة فلا أثاث فى المنزل ولا فراش ولا خدم (وقد نقلت هذه كلها إلى المصطاف) لا تجد فى الصباح ما تفطر عليه ولا الخبز والخل ، وتخرج دون أن تشرب الشاى، وبلا استحمام ، وتجيء هنا إلى المصيف فلا يعنى بك إنسان وقد خرجوا جميعا للنزهة واللهو والسرور ، ثم لن تجد أمامك إلا الغبار والحر والتراب .. تفو .. أمتزوج أنت يا سيدى ؟

قال صاحب السراويل الصفراء ، وتنهد من أعماق قلبه :

ـ نعم يا سيدى .. ثلاثة أولاد ...

ـ إنها لعيشة نكداء .. ومن العجب العجاب ، أنا لا نزال على قيد الحياة.

وهنا افترق الرجلان ، كل إلى منزله ..

ولما دخل زنكين الدار وجدها قاعا صفصفا ، وألفى بها كمثل سكينة الموت ، ولم يسمع سوى طنين البعوض ، حتى إذا ولج غرفة الجلوس ألفى بها ولده « بيتا » صبيا فى السادسة من عمره ، وكان جالسا إلى المائدة يتنفس بصوت عال

يمط شفته السفلى كعادة الأطفال ، مشتغلا باقتطاع صورة « ولد اسباتى » من إحدى ورقات اللعب .

وقال الصبى لأبيه دون أن يتحرك أو يلتفت :

– أذاك أنت يا أبت ؟ .. كيف أنت ؟ ..

– كيف أنت يا بنى .. ؟ أين أمك .. ؟

– أمى ؟ لقد ذهبت « مع أولغا » لتؤدى تجربة (بروفة) تمثيل رواية .. إنهما ستمثلان بعد غد فى حفلة أنس بمنزل إحدى السيدات . وسأذهب معهما ، هكذا قالتا .. أتذهب أنت أيضا معنا ؟

– ومتى ترجع أمك ؟

– لقد قالت إنها ترجع مساء ..

– وأين الخادمة ناتاليا ؟

– أخذتها أمى لتساعدها على ارتداء ثياب التمثيل ، أما كولينا » فقد ذهبت إلى الغابة لتجيئنا بشىء من الأعشاب ، خبرنى يا أبى لماذا تحمر بطون البعوض عقب لذعها الإنسان ؟

– لا أدرى .. لأنها تمتص دماءنا .. وهكذا ليس بالمنزل أحد ؟

– لا أحد ، أنا ههنا وحدى ..

جلس زيكين على مقعد وشخص ببصره نحو النافذة ..

ثم قال بعد برهة :

– ترى من الذى سيجهز لنا طعامنا ؟

– لا طعام ههنا ، إنهم لم يطبخوا اليوم شيئا البتة ، لقد قالت أمى إنك لن تحضر اليوم ولذلك لم تشتر شيئا ، هذا وإنها مدعوة هى و « أولغا » لتناول الطعام فى دار السيدة التى ذهبت إليها .

– جزاها الله عنى أكرم الجزاء ! .. وأنت ماذا تأكل ؟

– لقد شربت شيئا من اللبن ، خبرنى يا أبى لماذا يمتص البعوض دماءنا ؟

وأحس زيكين أن سبعا ضاريا ينشب مخالبه فى كبده ، واشتد عليه الكرب

حتى كاد قلبه ينفطر ، وأراد أن يثب من مكانه فيختطف شيئا من متاع البيت ثم يضرب به الأرض فيحطمه ثم يصرخ بأعلى صوته ويسب ويلعن ولكنه تذكر ما أوصاه الطبيب من تحاشى التهيج والاضطراب ، فكظم غيظه وبدأ يصفر ببعض الألحان الشائعة ، ثم ذهب إلى غرفته واستلقى على إحدى أرائكها .. وولج فى أودية أفكاره .

مضى على ذلك ثلاث ساعات كاد الجوع أثناءها يمزق أحشاءه . وأخيرا سمع وقع أقدام وهرجا ومرجا وصوت غلامه « بيتا » يصيح « أماه » !

فنهض من مرقده وأطل من فرجة الباب فإذا زوجته « تيبانوفنا » تتوقد نشاطا وتتوهج شبابا وصحة عافية كأنها الوردة الناضرة تستصحب امرأة نحيفة شقراء ورجلين مجهولين أحدهما شاب نحيل بشعر مجعد والثانى قصير حليق الوجه كالممثل .

– ناتاليا أجهزى الشاى ، لقد بلغنى أن زيكين قد أتى ، زيكين أين أنت ؟ .. عم مساء يا زيكين !

وهرعت إليه مسرعة :

– وكذلك قد جئت يا زيكين ، إنى فى غاية السرور والفرح ... لقد قدم معى اثنان من هواة فن التمثيل ... هلم سأقدم بعضكم إلى بعض ... هذا الطويل « كرومسلوف » إنه يجيد الغناء ، والثانى القصير اسمه « سمركالوف » وهو يجيد التمثيل ، إنى فى غاية التعب مكدودة منهوكة القوى .. لقد أجرينا بروفة الرواية . وقد نجحت نجاحا باهرا ، نحن نمثل رواية « العاشق الفقير » ورواية « أنا فى انتظاره » ورواية « الأسد والشمس » وسيكون التمثيل بعد غد .

فقال زيكين :

– ولماذا أحضرت معك هذين الرجلين ؟ ..

– لقد اضطررت إلى ذلك اضطرارا لأن البروفة لم تتم ، ولا بد من استئناف العمل عقب الشاى ، نعم لا بد من تمثيل أدوارنا ومن إجراء بعض التمرينات الغنائية ... لا بد أن أغنى ألحانا معينة مع « كرومسلوف » ولكنى قد نسيت شيئا مهما جدا .. حبيبى زيكين ! .. ابعث الخادمة ناتاليا تشترى لنا سردينا وبيضا

وزيتونا وجبنة رومى ومربة برتقال وفودكا وأشياء أخرى ، فربما أقام الضيفان إلى ميعاد العشاء ... آه ! .. ما أشد ما أعانى من التعب والكد والإعياء ! .

– ليس معى فلوس ..

– لا تقل ذلك يا حبيبى ! .. أتريد أن تفضحنا أمام الرجلين ؟ .. أتريد أن تدمى وجنتى خجلا ؟ .. وتغلبت المرأة على الرجل فأجاب طلبها ، وسرعان ما عادت ناتاليا بالسردين والبيض والفودكا .. الخ ..

وبعد أن تناول زيكين شبعه وريه من الزاد انكفأ إلى مضجعه واستلقى على فراشه .

أما زوجته وصاحبتها وضيفاها فلبثوا مدة طويلة فى معالجة التمثيل والغناء .

وشرد النوم عن مقلة زيكين صوت كرومسلوف المنطلق من خيشومه بأقبح خنة ، وصرخات « سمركالوف » العبقرية الجنونية . ثم أعقب ذلك محادثة طويلة تتخللها ضحكات « أولغا » المزعجة ، وكان « سمركالوف » يتكلم عن الفن بحماسة « جوت » وفلسفة « أرسطاليس » .

وبعد ذلك سمع رنين الصحون وصليل الصحاف إعدادا لطعام العشاء ، وسمع « زيكين » من خلال نعاسه أصوات الجماعة يحضون « سمركالوف » على إلقاء مونولوج « المرأة التى أجرمت » وسمع سمركالوف بعد طول تمنع وإباء يشرع فى إلقاء المونولوج ، فانبرى يفح كالأفعى ويهدر كالفحل الهائج ويزأر كالأسد الغضوب ويضرب على صدره ويبكى وينتحب ، ثم يضحك ضحكة المجنون .. حتى انتفض « زيكين » فى فراشه وارتعدت فرائصه وانكمش تحت اللحاف وخبأ رأسه فى ثنايا المخدة .

وبعد ساعة من ذلك سمع صوت زوجته تخاطب الضيفين قائلة :

– أين تذهبان الآن ؟ .. المسافة إلى المدينة بعيدة جدا والظلام حالك ... لماذا لا تبيتان عندنا ؟ .. أما كرومسلوف » فينام ههنا فى غرفة الجلوس على الكنبة ، وأنت يا سمركالوف » تنام فى فراش ولدنا بيتا » .. و« بيتا » ينام فى مكتب زوجى ... لا تذهبا ، إنى ألح عليكما أن تبقيا !

ولما دقت الساعة الثالثة وقد خيم السكون على أرجاء المنزل انفتح باب غرفة

زيكين ودخلت عليه زوجته فهمست قائلة :

– زيكين ... أنت نائم ؟

– لا ... لم أنم ... ولم هذا السؤال ؟ وماذا تريدين منى ؟

– اذهب إلى غرفة المكتب يا حبيبى إن أولغا ستنام ههنا فى فراشك . اذهب يا حبيبى لقد أردتها على النوم فى المكتب ولكنها أبت ، وقالت إنها تخاف أن تنام وحدها ، فهى ستنام معى ههنا ، انهض ، قم بسرعة ! .. لا تخجلنى مع صاحبتى يا حبيبى !

فنهض زيكين وألقى ثوبه على كتفيه وأخذ مخدته تحت إبطه وتسلل متعبا منهوك القوى حتى وصل إلى غرفة المكتب ، وجعل يتحسس طريقه إلى الكنبة ، ثم أشعل كبريتا فأبصر ابنه بيتا راقدا ليس بنائم ينظر إليه بعينين مفتوحتين وقال :

– خبرنى يا أبت ، ما بال البعوض لا ينام بالليل ؟

– لأن ... لأن ... لأنى أنا وأنت لا نحب ولا نشتهى ولا لزوم لنا ولا حاجة إلينا ، وقد ضاق عنا المنزل حتى لا مرقد لنا فيه ، فقد لفظنا لفظا .

وبعد هنيهة لبس زيكين ثيابه وخرج إلى العراء ، ليستنشق نفسا من الهواء ، وبينما هو يفكر فى همومه وأشجانه ، ارتفع له من منعطف الطريق شبح رجل فقال فى نفسه :

– ما أراه إلا الخفير يدور دورته .

ولكنه لما دنا من الشبح وتأمله عرف فيه زميله صاحب السراويل الصفراء فقال له :

– ما بالك لم تنم ، وما الذى أسهرك حتى الآن ؟

فقال أصفر السراويل وتنهد :

– لم أستطع النوم ، إنى أستمتع بجمال الطبيعة ... لقد طرقنا الليلة ضيوف كرام ، حماتى وبناتها الأربع وبنات أختها الثلاث ، لقد جئن فى قطار الليل ، فتيات فى أقصى منتهى الحسن والملاحة ، ما شئت من وسامة وجمال ، ورقة ودلال ، لقد ملأنى منظرهن فرحة وسرورا ، ولكن أواه من هذه الرطوبة ، إنها

اتحز فى عظامى حزا ، وأنت أيضا خرجت تستمتع بجمال الطبيعة مثلى ؟

فدمدم زيكين قائلا :

– أجل يا سيدى ، ولكن خبرنى ، هل تعرف خانا أو فندقا أو وكالة بالقرب من ههنا ؟

فرفع أصفر السراويل طرفه إلى السماء وأمعن فى التفكير والذكرى .

تحفة فنية

للقصصي الروسي أنطون تشيكوف

دخل الغلام « ساشا سمرنوف » وحيد أمه ذات يوم على الطبيب « كوشلكوف » فى غرفته يتأبط شيئا ملفوفا فى منديل .

فرحب به الطبيب قائلا :

– أذاك أنت يا عزيزى ؟ .. كيف حالك وكيف صحتك ؟ .. ما عندك لى من الأنباء السارة ؟

فوضع الغلام يده على صدره وقال بصوت مضطرب :

– أمى تقرئك السلام ، وتهديك عاطر تحياتها وتثنى عليك أجزل الثناء .. إنى وحيد أمى ، ولقد أنقذتنى لها من قبضة المنية وقد أنشبت فى مقاتلى أظفارها ، ولسنا والله ندرى كيف نجازيك وبأى شىء نكافئك .

قال الطبيب وقد سره مقال الغلام :

– دعك من هذا ، فتالله ما أتيت بمعجزة وما صنعت إلا الواجب وما كان يصنعه أى طبيب سواى فى مركزى .

قال الغلام :

– إنى وحيد أمى ... وإنا معشر فقراء لا نستطيع أن نوفيك حقك من الجزاء ومن ثم ترانا فى غاية الخجل ، ولكن أمى وأنا ... وحيد أمى ... نرجوك أشد الرجاء أن تتقبل منا كآية على مزيد شكرنا وجزيل حمدنا .. هذا الشىء الذى أتأبطه ... وهو تحفة من أنفس تحف الفن وملحة من أعجب ملح الصناعة ... شمعدان من البرونز ... آية من آيات البراعة والإبداع !

قال الطبيب وقطب حاجبيه : « ولم كل هذه المشقة والمؤونة ؟ ولماذا تتجشمون مثل هذا العناء من أجلى ؟ » .

قال الغلام :

– كلا يا سيدى لا ترفض هديتنا ، فإن فى رفضك أشد البلاء على وعلى والدتى ، ستجرح شعورنا برفضك .

ثم شرع فى فك اللفافة وقال :

– تحفة أثرية من البرونز ... لقد خلفها لنا والدى المرحوم وقد حفظناها إلى اليوم تذكارا ثمينا ، وقد كان من دأب أبى رحمه الله وبلل ثراه أن يشترى نفائس الأثرياء ثم يبيعها لأهل الفن وهواته ... ولا نزال أنا ووالدتى – نزاول هذه التجارة .

وأبرز الغلام « ساشا » الهدية ووضعها برزانة وتؤدة على المائدة .

وكانت شمعدانا من البرونز متقن الصنعة عجيب الشكل ذا قاعدة عريضة يرتكز عليها دميتان مؤنثتان عاريتان ، تحملان الشمعدان على أكتافهما ، وقد وقفتا وقفة يخجل القلم أن يصورها .

أطال الطبيب النظر إلى تلك التحفة ، ثم حك قفاه وتنحنح حائرا مضطربا ، وقال :

– لا أنكر أنها ملحة بديعة ، ولكن .. ماذا أقول ، وكيف أعبر عما فى نفسى ؟ .. إنها .. إحم .. إنها ليست مما ينبغى أن يحفظ فى منازل أرباب الأسر والبنين .. إنها خارجة عن حد اللياقة منافية للحشمة والوقار ..

قال الغلام :

– ماذا تعنى بقولك هذا ؟

قال الطبيب :

– إن إبليس نفسه لوشاء يوما أن يبدع فتنة يضل بها عباد الله ما استطاع أن يصنع شرا من هذا ! ... ولو بقيت هذه الدمية لدى لدنست بها أرجاء الدار ولوثت أركانه .. خذها واكفنى شرها .

قال الغلام وقد ساءه مقال الطبيب :

– إنك لتنظر إلى الفن نظرة منكرة أيها الطبيب وما هكذا يتأمل عشاق الفن

نفائسه وملحه ، أعد عليها نظرة وتأمل ما قد أودعت من أسرار الجمال والروعة ! .. فتالله ما تأملها فنان ولا عاشق فن إلا ملأت عينه حسنا وفؤاده هيبة وجلالا وشغلته عن مهام أعماله وأنسته أهله وخلانه وأذهلته عن كل شيء في هذا العالم الأرضي الحقير السافل ، وأذكرته جنات الخلد وما بها من لذات ومباهج ! .. تأملها أيها الطبيب ، أى روعة وجلال ، وبهجة وجمال ، إنها لتوشك أن تدب فيها الحياة فتجيش وتتكلم .

قال الطبيب :

– إنى أفهم كل ذلك جيدا يا بنى العزيز ، ولكنك قد تعرف أنى رب أسرة وأن أولادى لا يزالون يترددون على هذه الغرفة .

قال الغلام :

– بديهى أنك إن نظرت إليها نظرة الجمهور السخيفة كنت خليقا أن تصفها بهذه الصفات السخيفة ، ولكنى أيها المهذب أربأ بك عن منزلة الجمهور من الغباوة والسخافة واسألك باسم الفن والجمال أن تترفع عن طبقة العامة والغوغاء. وأذكرك ما ينتاب والدتى من حرقة الكمد والجوى إن أنت رفضت هديتها ، ولا يعزبنّ عن بالك أيها الطبيب أنى وحيد أمى وأنك منقذ حياتى .. ولذلك ترانا نقدم إليك أنفس ما لدينا .. وكل ما يسوءنى أيها الطبيب أن هذه التحفة قد كان لها نظيرة عندنا ولكنا بعناها منذ حين ، وكنت أود أن أهدى إليك الزوج جميعا .

– أشكرك يا عزيزى ... بلغ أمك أزكى تحياتى ، ولكن – اذكر – يرعاك الله – أن أولادى بنين وبنات لا يزالون يترددون على هذه الحجرة ، وأن السيدات من جميع الطبقات يأتين ههنا ... ولكن ماذا أصنع ؟ اتركها مكانها على المائدة ! فلا فائدة فى مناقشتك وقد أعجزنى إقناعك .

قال الغلام:

– أتريد إقناعى بالباطل ؟ ضع الشمعدان ههنا بجانب المرآة فإنه أليق موضع به، شد ما والله يحزننى أنى لم آتك بالشمعدان الآخر مع هذا ، شكرا لك يا

سيدى ووداعا .

ولما انصرف الغلام « ساشا » أقبل الطبيب على الشمعدان يتأمله ثم حك قفاه وقال فى نفسه:

ـ لا شك إنه لشيء بديع قيم، ومن الحماقة أن أرميه ولكنى لاأرى سبيلا إلى إبقائه ههنا... واحيرتى!... هذه معضلة أية معضلة ، فلمن أقدمه هدية؟

وبعد طول تفكير وتدبير تذكر صديقه الحميم المحامى يوهوف ، وكان للمحامى المذكور أفضال جزيلة عليه وأياد بيضاء.

فقال الطبيب:

– ما أصوب هذا الرأى ، إن صديقى المحامى ما زال يرفض ما أعرض عليه من الأجر جزاء خدماته العديدة ، فلأقدمن إليه هذه التحفة النفيسة هدية منى فأكون قد وفيته من الجزاء بعض حقه ، هذا وإنه أعزب ومن المتساهلين فى أمر الوقار والحشمة ، فسوف يسر بهذه الهدية .

وعلى ذلك لبس رداءه وقبعته وحمل الشمعدان ومضى لساعته إلى صديقه المحامى « يوهوف » .

ولما قابله بداره قال له :

– كيف حالك يا صديقى لقد جئتك زائرا ... وشاكرا حسن صنيعك وجميل آلائك ... وأراك لا تقبل منى أجرا من النقد ... فلا أقل من أن تتقبل منى هذه الهدية ... انظر إليها ، إنها لآية من آيات الفن ، خليقة والله أن تزدان بها قصور القياصرة !

فلما أبصر « الشمعدان » كاد يطير فرحا وقال متهللا ضاحكا .

– ما أبرعها ملحة ! لله باريها ومنشئها ! كيف تخيل ذلك الشكل المطرب المرقص ! وتلك الوقفة المحركة المثيرة ! ما أعجب وما أغرب ! وما أحسن وما أفتن ! أنى لك هذا الذخر النفيس والكنز الثمين ؟

وبعدما صب عليه هذا السيل الجارف من كلمات الإعجاب والطرب ، صوب نظرة وجلة نحو باب الحريم وقال لصاحبه الطبيب :

– وبعد كل ذلك لا أرى بدا يا صديقى من أن تحمل معك هديتك ... فلا أستطيع والله قبولها ...

فصاح الطبيب مندهشا :

– ولماذا يا صديقى ؟

قال المحامى :

– تسألنى لماذا ؟ ... لأن والدتى كثيرا ما تجىء ههنا ، وكذلك لا تنس أرباب القضايا ، بل إنى لأخجل أن يراها خدامى .

قال الطبيب :

– دعك من هذه السخافة ، أترفض مثل هذه الملحة وإنها لمن أبدع ما صور المصورون ؟ .. أنت والله أكيس من ذلك .

قال المحامى :

– أما لو استطاع الإنسان أن يغطيها بالجبس أو يسترها بورق التين !

لم يطل الطبيب المناقشة ولكنه خلف الشمعدان عند صاحبه المحامى وانطلق فرحا مسرورا لتخلصه من تلك الهدية المربكة ، ولما انصرف الطبيب قال المحامى فى نفسه :

– إنها لتحفة بديعة بلا أدنى شك ، ومن البلية أن يرميها الإنسان .. كما أن الاحتفاظ بها بلية أعظم ! فليس أصوب من إهدائها إلى أحد الإخوان ... ولسوف أذهب بها الليلة إلى « ساشكين » الممثل الكوميدى فإنه مولع بمثل هذه الأشياء .

وفى المساء حمل المحامى الشمعدان إلى دار التمثيل ودخل به على الممثل الكوميدى « ساشكين » فى غرفته فقدمه إليه ، وجعل جميع الممثلين والممثلات وكثير غيرهم يترددون على غرفة الممثل طول الليل يتفرجون على الشمعدان ويعجبون به ويعجبون منه ، ويملأون فراغ المكان بصيحات الطرب والضحك ، وكلما اقتربت من باب الغرفة إحدى الممثلات ، فاستأذنت فى الدخول صاح بها الممثل من الداخل : « كلا ! كلا ! .. لا تدخلى فإنى عريان » معرضا بالدميتين العاريتين .

ولما انتهى الكوميدى من تمثيل الرواية نظر إلى الشمعدان وهز كتفه ويديه وقال :

– ماذا أصنع بهذه اللعبة الفظيعة ؟ .. إنى أسكن بين أناس أشراف محترمين ولا تزال الكرائم والعقائل من ربات الحجال يزرننى ، وإن من الفضيحة أن أعرض على أبصارهن مثل هذا المنظر المخجل ... وأما لو كانت صورة فوتوغرافية تنشر وتطوى وتبرز وتحجب حسب مشيئة الإنسان !!

فقال له المزين الذى كان يساعده إذ ذاك على نضو ملابس المسرح فى غرفته الخاصة :

– أولى لك أن تبيعها ، إنى أعرف قريبا من ههنا امرأة مسنة تتجر فى أمثال هذه التحف والأثريات ... فاذهب متى شئت وسل عن مدام « سميرنوف » .. فما من أحد بذلك الحى إلا يعرفها ..

وقد عمل الممثل بنصيحة مزينه ...

بعد يومين من ذلك كان الطبيب جالسا فى مكتبه كعادته ، يده على جبينه يفكر تفكيرا عميقا فى أحماض المعدة ، وإنه لكذلك إذ انفتح الباب فجأة واندفع منه الغلام « ساشا » كالقنبلة أو «كجلمود صخر حطه السيل من عل » تتلألأ على صفحة محياه ابتسامة مشرقة ويفيض السرور من جميع جوارحه .

وصاح بصوت مبهور :

– أيضا الطبيب ، إنك لن تستطيع أن تدرك مبلغ سرورنا وفرحتنا ! فمن حسن حظك أنا عثرنا على فردة الشمعدان أخت التى عندك ، وهكذا قد أصبح الزوج فى حوزتك ، إن أمى لفى أقصى غاية من الغبطة والسعادة .. إنى وحيد أمى أيها الطبيب ولقد نجيتنى لها من الموت ...

قال هذا ووضع الشمعدان أمام الطبيب على المائدة .

ففتح الطبيب فمه يحاول أن يقول شيئا ، ولكنه لم يقل شيئا ، لقد ارتج عليه فعجز عن النطق البتة !

ورقة اليانصيب

للقصصي الروسي أنطون تشيكوف

كان « إيفان ديمترى » رجلا من الطبقة الوسطى يبلغ إيراده السنوى ألف روبيل يعيش منها عيشة هنيئة مطمئنة ، وقد جلس ذات عشية خالى القلب ناعم البال إلى عشائه ، ولما فرغ منه أقبل يقرأ الجريدة .

وقالت له امرأته وهى تنظف المائدة من فتات الطعام :

– لقد نسيت أن أقرأ الجريدة اليوم ، فألق بها نظرة علك تجد كشف أوراق اليانصيب المسحوبة .

قال « إيفان ديمترى » :

– نعم ها هو الكشف ، ولكن خبرينى ، ألم ينته سحب ورقتك قبل اليوم ؟

ـ كلا ! إنها لم تسحب بعد .

ـ ما رقمها ؟

– مجموعة ٩٤٩٩ – رقم ٢٦

– طيب ! سأنتظر ... ٩٤٩٩ – رقم ٢٦

كان « إيفان ديمترى » ضعيف الأمل والثقة والعقيدة فى أوراق اليانصيب ولم يكن قط ليجيب سؤال زوجته فينظر فى كشوف تلك الأوراق ، لولا أنه كان إذ ذاك فى فراغ من العمل لا يدرى ماذا يصنع وكيف يقتل الوقت ، ويدفع عن نفسه سآمة الكسل وملاله ولولا أن الجريدة كانت منشورة الصفحات أمامه ، فأمرّ أصبعه على أنهار أرقام اليانصيب الرابحة ، وإذا قد صافح بصره فجأة رقم المجموعة آنف الذكر ، وهو ٩٤٩٩ ، واضحا جليا كأنما يسخر من شكله ويهزأ من سوء ظنه وارتيابه ، (هذا رقم المجموعة) ، لم يتمهل الرجل لفرط دهشة السرور حتى ينظر أيضا رقم الورقة ذاتها فقد أذهله الفرح وطارت صدمة النبأ

العظيم بعقله ، فصاح « يا للعجب العجاب ! ٩٩٤٩ ! وفى حلم أنا أم يقظة ؟ »
لم يكد الرجل يصدق عينيه ، فأسقط الجريدة على ركبتيه ، ولم يتمم مهمته بالبحث عن رقم الورقة ذاتها ، وقد أحس إذ ذاك أن شؤبوبا (دشا) من الماء البارد قد صب عليه صبا ، وشملته قشعريرة لها فى عروقه دبيب مروع مروح أليم مستلذ .

فقال بصوت أجوف مبحوح :

– ماشا ! .. حبيبتى ! .. هاك رقم ٩٤٩٩ ! ..

فتأملت المرأة وجهه المضطرب المروع المذعور ، فأيقنت أنه ليس يمزح .

فقالت مستفسرة وقد أفرطت بها الدهشة وعلا وجهها الشحوب وأسقطت غطاء المائدة على أرض الغرفة :

– ٩٤٩٩ ؟

– نعم ، نعم ، إنه مرقوم بالجريدة بلا أدنى ارتياب .

– رقم الورقة ، هو هناك أيضا ، أيضا ، أظنه هناك ... لا شك أنه هناك ، ولكن انتظرى ، انتظرى قليلا ، تمهلى رويدا ، دعينى أتذكر ! ... كلا ، كلا ، لم أنظر رقم الورقة ، وعلى أية حال فإن رقم المجموعة موجود هناك ، ٩٤٩٩ ، وعلى أية حال ، على أية حال ، أنت فاهمة ... فاهمة ...

ونظر الرجل إلى زوجته وابتسم ابتسامة عريضة بلهاء كابتسامة الرضيع عندما تعرض على ناظريه شيئا بهيج اللون زاهيا ، وكذلك ابتسمت زوجته ، لقد سرها – كما سره – أنه اقتصر على رؤية رقم المجموعة ، ولم يحاول البحث عن رقم الورقة ذاتها ، وسر ذلك هو أن مماطلة الإنسان نفسه وتعليلها بالأمانى المحتملة الحصول ، لذة يجيش لها الصدر وتخفق الأحشاء .

وقال إيفان ديمترى بعد سكتة طويلة :

– إنه رقم مجموعتنا ، فمن المحتمل جدا أن نكون قد ربحنا ، إنه احتمال فقط ، ولكنه شيء يذكر . قالت زوجته :

– هلم وانظر رقم الورقة ذاتها .

– انتظرى قليلا ! دعينا فى فترة هذا الشك اللذيذ برهة ، جعلت فداك لماذا تستعجلين علينا ضياع الأمل وخيبة الرجاء ، وما فى ذاك من حسرة وعناء ، وكربة وبلاء .

دعينا برهة نستروح نسيم الأمل غضا نديا ونحتسى قدح المنى هنيئا شهيا :

منىً إن تكن حقاً تكن أحسن المنى

والإ فقد عشنا بها زمنا رغدا

هذه الورقة تربح خمسة وسبعين ألف روبيل ، خمسة وسبعين ألف روبيل ! أنا لا أسمى مثل هذا المبلغ ربحا ولا جائزة ، بل أسميه الثروة العظيمة والعز والجاه العريض ، والعظمة والأبهة . أسمية القدرة والسلطان والقوة التى لا تحد ولاتحصر ! .. إله السموات والأرض ، ماذا تكون الحال إذا كنا قد ربحنا الورقة حقا ؟

وشرع الزوج والزوجة يضحكان ، ويحدق أحدهما فى وجه الآخر صامتين وقد حيرهما وأذهلهما احتمال الفوز والغنيمة ، لم يكونا إذ ذاك يستطيعان أن يقولا أو يتصورا ماذا كانا يصنعان بذاك المبلغ الضخم ولا ماذا يشتريان به من الأمتعة ويقتنيان من التحف والنفائس ولا أين يتوجهان به وأيان يذهبان ، بل وكل أفكارهما ومشاعرهما كانت منحصرة فى رقم المبلغ ، ذلك الرقم الطويل الجرار ٧٥٠٠٠ ، أما نوع السعادة ذاتها وماهية النعيم المنتظر من المبلغ الجسيم فذلك ما لم يكونا ليستطيعا أن يصوراه لنفسيهما فى عالم الخيال .

وجعل إيفان ديمترى والورقة فى يده يجوب أنحاء الحجرة غاديا رائحا مقبلا مدبرا ، حتى إذا ما أفاق من تلك الصدمة المباغتة ، شرع يتخيل ويتصور ، ويرسل خياله فى ميادين الأمانى والأحلام .

قال :

– لطفك اللهم وحنانك ! وماذا تكون الحال إذا كنا بالفعل قد ربحنا الورقة ! لا شك سنعيش عيشة أخرى ، لن يكون ذلك إلا انقلابا فى حياتنا وثورة ، بل عصرا بديعا وعهدا جديدا ، إن الورقة ورقتك أنت يا ماشا ، ولو أنها كانت ورقتى لكان أول ما أصنع هو إنفاق خمسة وعشرين ألف روبيل فى اقتناء أملاك

جوهرية حقيقية ، فى شكل ضياع وعقار ، ثم عشرة آلاف فى قضاء حاجاتنا الضرورية ومطالبنا المستعجلة ... دفع الأجور وتسديد الديون ، وفرش المنزل ، أبسطة فارسية وسجاجيد عجمية ، و « شيلان كشميرى » وآنية صينية ولعب يابانية ، وهلم جرا ... والبقية – أربعون ألف روبيل – أضعها فى البنك وآخذ عليها أرباحا .

قالت امرأته :

– نعم ، نعم قبل كل شيء ، عزبة أو عمارة ! ذلك أهم شيء ، ذلك الغنى واليسر والجاه والسلطان ، فأما ماتذكر من أمر الشيلان الكشميرى والملاعق الصينية والعرائس اليابانية – فهذا – سلم الله عقلك يجيء وحده ، من تلقاء ذاته .

وهبطت على أحد المقاعد تشهق من شدة الاضطراب .

قال الرجل :

– أجل عزبة ، أجل ، فى إقليم القرم مثلا وسط بساتينه اليانعة ومروجه الخضراء ، وإن تكن عمارة .. أقول إن كنت تؤثرين أن تكون عمارة ..

– دعك من العمارة ... العزبة أجل وأفخم ... فأول مزاياها أنها توفر علينا نفقات استئجار « فيلا » بأحد المصايف ، أضف إلى ذلك أن ريعها يجيء هنيئا مريئا ، لا يقل من بركته ما تستلزمه العمارات من الصيانة والترميمات وما يفقد من أجور العمارات جزاء خلوها من السكان وتخفيض أجور المنازل والدور ، وكم للعمارات خلاف ذلك من آفة قد برأ الله منها العزب وأربابها .

وتسارعت الصور والخيالات على خاطر الرجل ، من كل صورة بهجة وخيال بديع ، وفى جميع هذه الصور والخيالات كان يرى نفسه مهنأ ممتعا ، مملوء البطن بالكستليتة والبوفتيك ، وبالأوز والبط والدجاج ، وبالكنافة والقطائف ، وبالعصيدة وسد الحنك ، ثم يرى نفسه رافلا فى أبهى الحلل والمطارف ، المزركشة بالقصب ، وبالترتر وبالتلى ، مزدانا بشتى الزخارف ، الكرافاتات (ثمن الواحد خمسون زوبيلا ، مما لم يره قط إلا معروضا فى الفاترينات) وساعة من الذهب من فئة الألف روبيل مما لا يلبسه إلا البرنسات والدوقات والبارونات ، بسلسلة ذهبية

أثقل من « رشمة » حصان ، ودبوس من الماس للكرافتة ، وعلبة لفوتوغرافه بالسلسلة ، وخواتم من زمرد وماس وفيروزج وياقوت ، آمنا مطمئنا مسلما فى بدنه معافى مزاجه وبنيته ، دافئا بل حران ! ثم يرى نفسه بعد تناول الشوربة المثلجة (حساء الصيف عند الأمراء) يضطجع لدى باب مصطافه على الرمل الساخن بحافة جدول فياض ، أو بالحديقة فى ظلال الياسمين ... ثم يرى ابنته وابنه الصغيرين يدبان على الرمل من حوله يحفران الثرى أو يقنصان الفراش وأبا قردان ، ويرى نفسه يزر جفنيه يلاعب رأسه النعاس ، وباله من كل هم فارغ ، وذهنه من كل فكر خلاء ، إلا فكرة واحدة ، وهو أن يقدم استقالته للتو واللحظة إلى أولى الأمر فلا ينظر أبد الدهر فى وجوه الموظفين والرؤساء — ثم يرى نفسه قد مل القعود فينهض إلى الحقل أو إلى الغابة فيجمع أضغاثا من الجرجير والكرنب والكرفس والقرنبيط ، أو يرقب الفلاحين يصطادون الأسماك فى الشباك ، حتى إذا غابت الشمس تناول صابونا وبشكيرا وذهب إلى « كابين » الحمام حيث يتجرد من ثيابه على هينة منه وعلى مهل ، ثم يحك صدره العريان بأضافره ثم ينغمس فى الجدول ولا يلبث أن يبصر تحت جلدة الماء المسردة المرقشة صغار السمك تتوثب وتتنزى ، وأعشاب الماء الخضراء تهز رؤوسها وقارا ، وما بعد الحمام — أمتعك الله — إلا الشاى بالقشطة ، والسحلب باللبن ، والخبز « المقمر » بالزبدة ، والبسطة والبسكوت الخ الخ ... وبالليل النزهة فى الجنان ، أو زيارة الجيران .

— نعم .. نعم ، ما ألذ أن يملك الإنسان ضيعة ! هكذا قال الرجل فى أحلامه يخاطب زوجته .

— نعم .. نعم ، ما ألذ الضيعة ، وهكذا قالت له زوجته فى أحلامها التى كانت تماثل أحلامه حذوك القذة بالقذة .

ثم إن « إيفان ديمترى شرع بعد ذلك يصور لنفسه الخريف وأنداءه ، ومزنه وأنواءه ، ثم الشتاء وزمهريره ، وغيمه وصبيره ، ووكف ثلوجه وضريبه ، وعصف إعصاره وهبوبه ، وكسوف نهاره وفرط شحوبه ، وظلماته ، وحلكاته، ومزالقه ، وزحالقه ، وضيق مذاهبه ، وكثرة معاطبه ، وحرج مسالكه ، وقحم مهالكه،

وانقباض الصدور فيه والأنفس ، وكدر المزاج ، وتبلد الحس ، وتقلص البدن وانكماشه ، وظلمة الروح وإيحاشه ، وسآمة المرء فيه وقلة إيناسه ، وسجنه بين جدران بيته واحتباسه ، وقال فى نفسه « هنالك فى الشتاء المظلم الموحش تظهر فائدة الخمسة و سبعين ألف روبيل ، فبفضلها يفر المرء من كلب الشتاء ، إلى الحار الدفىء من الأنحاء » .

ثم التفت إلى زوجته فقال :

– سأرحل فى الشتاء إلى بعض المشاتى بلا شك ، يا مارثا ؟

وأقبل يتخيل أى لذة هنالك فى الرحيل شتاء إلى الأقطار الجنوبية الدافئة ، كساحل فرنسا على بحر الروم (الريفييرا) أو أرخبيل اليونان أو قبرص أو أقريطش أو الهند أو أرض الفراعنة .

وقالت امرأته :

– وأنا أيضا سأرحل بلا شك إلى الخارج ، ولكن ابحث لنا عن رقم الورقة .

قال إيفان ديمترى :

– مهلا ، مهلا ، انتظرى قليلا .

ثم شرع يطوف فى أرجاء الحجرة جيئة وذهابا ، وقال فى نفسه : « وماذا تكون الحال إذا أصرت امرأته على مصاحبته فى تلك الرحلة الشتوية ، أما إنه لامفر له من استصحابها ، وفى ذلك البلية والمصيبة ، لا نزاع فى أن السياحة لذيذة ولكن ليس مع الزوجة – تلك الرقيب اليقظ الشديد والديدبان المنغص ، ومن حق السياحة أن لا تكون إلا مع الخليعات الماجنات من النساء ذوات الظرف والأنس واللهو والدعابة ، نهازات فرص النعيم ، ومختلسات فلتات الحظ ، أما مع ربات البيوت وحاملات الهموم من النساء ، أولئك اللائى لا يزلن يكدرن عليك صفو السياحة بذكرهن الأولاد وحوائجهم وعللهم وأمراضهم ، والبيت وذخيرته وخزينه ، وكلما أخرجن من جيبهن روبيلا للنفقة اضطربن وارتعشن ورجفت أيديهن بالروبيل شحا ولؤما كأنهن يجدن بأرواحهن ، ثم يتنهدن حسرة وتكاد تدمع أعينهن – فكلا وألف كلا ! الموت ولا السياحة مع أمثال أولئك ! ثم إن إيفان ديمترى تخيل زوجته أثناء السياحة الموهومة جالسة معه فى

قطار السكة الحديدية وسط طائفة عديدة من الصرر والأكياس والقفف والزكائب، تشكو رجات القطار ، ونفقات الأسفار ، وتخيل ما هو مرغم أن يكابده فى كل محطة من الجرى إلى « البوفيه » لجلب الماء الساخن والساندوتش لزوجته ، وهو لا يحب الساندوتش ، وتتوق نفسه إلى اللحم والسمك والنبيذ ومائدة حافلة، ولكن زوجته أشح وأبخل من أن تنيله ذلك . وقال فى نفسه ونظر إلى زوجته :

« ستبكى والله وتنتحب وتنصب مناحة ومأتما على كل روبيل يفلت من يدها المغلولة ولا جرم ، فورقة اليانصيب ورقتها ، والغنيمة غنيمتها ، والثروة ثروتها ، ومالى عندها حق ولا دين ولا ميراث ، وكل امرىء فى ماله طليق ، ولكن بعدا لها وسحقا ، ماذا — أخزاها الله تبغى من السفر ؟ ترى أتفهم معنى السياحة أو تتذوق ملاذها ومباهجها ؟ .. كلا ، هى أغبى من ذلك واكثف ذهنا وأسقم ذوقا ، وسيان عندها الحل والارتحال والمقام والتجوال ، ولكنها تريد مضايقتى ولا تجد فى غير ذلك لها لذة ، وأكبر ظنى أنها ستحبسنى فى كل مكان تحله أثناء السياحة وتجلسنى أمامها تنظر إلى وأنظر إليها وعلى الدنيا السلام ، وكذلك أظل من سياحتى الهنيئة فى سجن متنقل ، هى سجانة وديدبانة ، وهكذا السياحات وهكذا الأسفار ، وهكذا النعيم والمتاع واللذة ! .. يحسبنى الناس قد سحت فى أقطار الأرض ، وما كانت سياحتى إلا فى أقطار وجهها ، وحبذا وجهها . وهنا لأول وهلة خيل إليه أن امرأته قد كبرت وذهب كل أثر من جمالها وأصبحت كأى امرأة عادية ليس بها أدنى مسحة من ملاحة ، وخيل إليه أيضا أنها تفوح منها رائحة المطبخ والقلايات والبرم ، بينما هو لا يزال ، شابا فتيا ، أيدا قويا ، يصح له أن يتزوج الساعة من أجمل عذراء .

وقال فى نفسه :

— هذا كله حديث خرافة ، ولكن ... لماذا تريد هذه المرأة أن ترحل إلى الأقطار الأجنبية وأى فائدة لها فى ذلك ، على أنها لا بد راحلة وإن كانت البلاد كلها لديها سواء ، وسيان عندها روما وبلاد الحبشة ، ولا فرق فى نظرها بين نابلز والقطب الشمالى ، كل همها أن تقف عقبة كؤودا فى وجهى ، وسأكون عالة عليها ، وكأنى بها والله وقد عقدت على المبلغ الجسيم عقب حيازته ألف

عقدة وعقدة ، وأقامت من دونه ألف خندق ومتراس ، ومائة ألف مغلاق وترباس ... ثم لتقذفنى من حالق ولتنبذنى نبذة النواة ، وتقبلن على أهلها وأقاربها فتغدقن عليهم الخيرات والحسنات إغداقا ، وأحرم أنا السحتوت والدانق .

وهنا شرع إيفان ديمترى يتذكر أهل زوجته وأقاربها ، إخوتها وأخواتها وعماتها وخالاتها وأعمامها وأخوالها ، وقال فى نفسه « الويل ثم الويل من عصابة السوء تلك وزمرة الشر ، كأنى بهم لا يكاد يطرق مسامعهم نبأ الغنيمة حتى يهرعوا إلى زوجتى يقبلون الأعتاب ، ويستلمون حلقات الأبواب ، ويتمسحون بالأذيال والأذناب ، ويتمرغون فى التراب ، ويلتمسون الصدقات والزكاة ، باكين معولين ، وهنالك المداهنة والملق والابتسامة الكاذبة واللسان المذق ، بعداً لهم وبؤسا ، وتعسا لهم ونكسا ! ثم تخيل هيئة أولئك الأقارب وسحنتهم ، وتمثلت له وجوههم سمجة قبيحة وطلعاتهم كطلعة الحمام كريهة بغيضة .

فقال فى نفسه :

– تبا لهم من حشرات ضئيلة !

وهنا خيل إليه لأول مرة أن وجه زوجته سمج قبيح أيضا ، وأن طلعتها كريهة بغيضة ، فجاش الغضب فى صدره عليها وقال فى نفسه حقدا وحنقا :

– هذه المرأة لا تفهم معنى المال ولا تفقه فوائده وثمراته ، ومن ثم ضنها به وشحها ، وأحسب أنها إن ربحت الغنيمة ، لا تعدو أن تخدعنى عنها ببضعة روبيلات ثم تستوثق من سائرها بالأقفال والأغلاق .

ونظر إلى زوجته ، نظرة خلوا من الابتسام مشحونة بالبغضاء والغضب ، وأدركت المرأة معنى هذه النظرة ، وكان يخالج جنانها من الأفكار والخطرات مثلما كان يخالج جنانه ، وتحلم من أحلام اليقظة مثلما كان يحلم ، فكانت هواجسها وأحلامها تمثل لها زوجها وهو يحاول أن يغصبها أرباحها ويسلبها غنائمها ، ويقاتلها على كل دينار ودرهم .

فنظرت إليه نظرة لو ترجمت بالكلام لكان مؤداها : « تيقظ أيها الرجل من أضغاث أحلامك ، ألا إن من أعظم اللذات أن تشيد قصور الخيالات على حساب غيرك ! كلا ! ما كنت لتخدعنى عن أموالى ! فأنا أحصف من ذلك وأكيس !

صح من سكرتك ، وأفق من غشيتك ! » وفهم الرجل معانى نظراتها ، وجاش لغضب ثانيا فى صدره واتقد فى ناظريه ، ولكي يبتدرها بالقصاص ويعجل عليها بالعذاب والنقمة ، أسرع بالنظر فى كشف الأرقام الرابحة ، فقرأ بصوت ملؤه الشماتة والتشفى :

« مجموعة ٩٤٩٩ ، ونمرة ٤٦ ، وليس ٢٦ »

وهنا ذهب عنه البغض والأمل جميعا ! وخيل إليه وإلى زوجته أن غرفتهما قد أظلمت فى الحال وضاقت ، وانخفض سقفها واسودت جدرانها ، وأن الطعام الذى تناولاه آنفا يلتهب فى أمعائهما ، ويصعد إلى حلقهما ، وأن العيش مر المذاق ، والحياة مصيبة .

وهنا ساءت أخلاقه ، وشرست طباعه وبدأ يتسخط على كل شىء بلا علة ولا موجب ، فنظر إلى بعض فتات المائدة مبعثرا على أرض الحجرة وصاح :

– هذا والله ما لا يطاق بحال ! فأينما يسير الإنسان تطأ قدماه فتات الزاد وكسر الخبز وأشواك السمك ، العياذ بالله ! أحرام عليكم تنظيف حجرات المنزل ؟ .. وهل قضى الله علينا أن نعيش ونموت بين الأدران والأقذار ؟ .. أما إنه لا مقام لمثلى فى مثل هذا البيت ! مالى سوى الخروج من حيلة ! فلأخرجن والله فأشنق نفسى على أول شجرة أصادفها ! .

زوبعة منزلية

للقصصي الروسي أنطون تشيكوف

كان « شرياف » — مزارعا متوسط الحال — واقفا فى زاوية بحجرة المائدة يغسل يديه على الحوض تأهبا لتناول الطعام ، وعلى وجهه أمارات التضجر والتبرم ، وقال :

— ما أقبح هذا الغيم والضباب ! تالله ما هو بغيم ، إن هو إلا نقمة من الله وعذاب ! صب اللهم علينا سجال لعنائك فإنا أهل ذلك ، وأسوأ من ذلك ! العياذ بالله ، لقد عاد المطر !

واستمر يهمهم ، ينفث كمين حنقه ، وأفراد أسرته جالسون على المائدة ، ينتظرونه قبل البدء بالغداء ، كان هناك زوجته « فيدوسيا » وابنه الطالب « بيوتر » وكبرى بناته « فرفرة » وثلاثة أطفال سمر ، سمان ، فطس الأنوف ، شعث ، غبر ، بشعر جعد متلبد ، وكان أولئك الأطفال فى قلق دائم وحركة مستمرة يتململون على مقاعدهم تشهيا للطعام ونهما ، بينما الكبار على أتم ما يكون من الوقار والرزانة وقلة الاهتمام ، كأنهم لا يبالون أكلوا ، أم صاموا .

وكأن رب البيت « شرياف » أراد أن يطيل عذابهم ، ويستنفد صبرهم وجلدهم ، فجعل يتباطأ ويتلكأ ، ولم يجلس إلى المائدة إلا بعد أن غسل يديه وذراعيه إلى المرفقين إحدى عشرة مرة ونشفهما مثل هذا العدد من المرات ، وتلا دعاء المائدة ـ الله يعلم كم مرة ! ـ ثم تمشى على أدنى مهل إلى الخوان ... كأنما يساق إلى جهنم .

وجعل الابن « بيوتر » أثناء الغداء يخالس أمه النظرات ، وأمسك عن الطعام مرارا وتنحنح كأنما يحاول الكلام ، ولكنه كان ينظر إلى أبيه فيعدل عن قصده ويستأنف الغداء ، وأخيرا بعد الثريد ، سلّك حلقه ، ونصب قامته وقال :

– ينبغي لى أن أسافر الليلة على قطار المساء ، بل لقد كان ينبغى أن أسافر قبل ذلك ، لقد أضعت أسبوعين هباء منثورا ، وقد تعلم أن المحاضرات تبتدىء فى أول سبتمبر .

فأجابه أبوه قائلا :

– وما بالك لم تسافر ! ومن الذى منعك من ذلك ، ولماذا – إذن – لا تزال تتلكأ ههنا وتتبلد ؟ اشحن متاعك وارحل لتوك وساعتك ، مع السلامة !

فترة سكوت ...

قالت الأم بصوت غضيض :

– يرحل بلا دراهم ؟ .. لا بد من تزويده بشىء من المال .

قال الأب :

– بلا شك ، بلا شك ! .. لا رحلة بلا مال ، خذ ما تريد فى الحال .

فتنفس الغلام تنفيسا لكربته وتفريجا لغمته ، ونظر إلى أمه مستروحا نسيم الأمل ، واستخرج المزارع « شرياف » كيسه من جيبه ولبس منظاره وقال :

– كم تريد ؟

فقال : أجرة القطار إلى موسكو أحد عشر روبلا واثنان وأربعون كوبيكا و ..

لم يمهله أبوه أن يستوفى طلباته ، فعاجله قائلا :

– المال .. المال ! دائما المال ! .. فى كل آن ولحظة ، لا تسمع عن شىء سوى المال المال ! .. هات .. هات ! .. هات .. هات ...

وجعل يتنهد ، ويتنهد ، لقد كان كلما جرى ذِكر المال يتنهد ، لقد كان يتنهد حتى لدى استلامه الدنانير والدراهم .

فقال متنهدا :

– هاك اثنى عشر روبلا ، ادفع منها أجرة القطار ، وتمتع بالباقى تنفقه فيما شئت من لذائذ الطعام والشراب أثناء السفر .

قال الغلام ، وتبسم أوجع ابتسامة :

– شكرا لله ، نعم سأتمتع بالملاليم الباقية بما لا عين رأت ولا أذن سمعت .
ثم أطرق برهة يخالس أمه النظرات الخفية ، وأخيرا واجه أباه فقال :

– إنك تسلمنى إلى قضاء الله ..

وقضاء الإله أحوط للنا   س من الأمهات والآباء

إنك تتركنى وارتزاقى إلى الأقدار ، وماذا أصنع إذا استعصت الأقدار فى البداية واحتبست الأرزاق ، وأنت تعلم أن الدروس الخصوصية التى منها أعيش فى موسكو ربما أبطأت فى أوائل العام ، وهى – بعد – شىء لا يجىء إلا بالسعى الحثيث وشق الأنفس ، فهلا أعطيتنى خمسة عشر روبلا لمبيتى ومطعمى ، ريثما يجىء فرج الله سبحانه وتعالى ؟

فأطرق الرجل مليا ، ثم أرسل زفرة طويلة وقال :

– اقضها بعشرة روبلات بدلا من الخمسة عشرْ ، وها هى ، خذ ...

ونقده عشرة ...

فتناولها الطالب بمزيد الشكر ... لقد كان ينبغى أن يسأل أباه أكثر من ذلك ، لما يلزمه من ثياب وكتب ومحاضرات ودروس ، ولكنه قرأ فى وجه أبيه آية الضجر والتأفف ، فرأى من الحكمة والصواب أن لا يضاعف بالمسألة آلامه .

ولكن أمه ، وكانت كسائر الأمهات ، يعوزها الفطنة والدهاء والحكمة ، لم تستطع أن تملك نفسها أو تصبر بعد هذا ، فقالت :

– ينبغى لك يا شرياف أن تزيده ستة روبلات ثمن حذاء ، ألا ترى – أصلحك الله – أصابعه بارزة من نعليه ؟ كيف يذهب إلى موسكو بمثل هذه الحال من الرثاثة ؟

قال الرجل :

– أعطيه حذائى القديم ، إنه لا يزال جيدا ...

قالت الأم :

– ولا بد له من سربال ، انظر إلى سرباله ، إن من شر الفضيحة والعار أن يسعى بين إخوانه فى مثل هذه الأسمال والأطمار !

لم تكد تفوه بهذه الألفاظ حتى ثارت فى آفاق الغرفة زوبعة ارتجف لهولها أفراد الأسرة هلعا وفزعا ! ..

وذلك أن رقبة « شرياف » القصيرة الضخمة احمرت في الحال كالجزرة ، ثم ارتفعت الحمرة إلى أذنيه فصدغيه ، ثم عمت سائر وجهه ، ثم اضطرب فى مقعده وتقلب ، ونزع ياقة قميصه تفاديا من الاختناق ، لقد كان يصارع مارد الغيظ وجنى الحنق ! وتلت ذلك سكينة كسكتة الموت ، وحبس الأطفال أنفاسهم هيبة ورهبا ، وكأن الأم « فيدوسيا » لم تفطن إلى ما كان ينتاب زوجها فتمادت قائلة :

– أى عار وفضيحة أن تترك ولدك وقرة عينك بين زملائه وأنداده عبرة وأحدوثة ؟

وما فاهت بهذه الكلمات حتى وثب « شرياف » من مجلسه بغتة وبأقصى ما لديه من حول وقوة وقذف بكيسه الضخم على المائدة ، فأطار ثلاثة أرغفة وسمكتين وبيضة ، واشتعل على صفحة وجهه وهج حريق وقوده الحقد والحنق والبخل والشره .

ثم صاح صيحة شيطانية جهنمية :

– انهبونى ! اسلبونى ! جردونى ! عرونى ! اسحقونى ! امحقونى ! امتصوا آخر نقطة من دمى .. اعتصروا آخر صبابة من حياتى ! خذوا روحى ! اختطفوا حشاشتى ! قطعوا أمعائى ! اقصفوا رقبتى !

وهنا صعد الدم إلى وجه الغلام الطالب ، ووقفت اللقمة فى حلقه ، فأمسك عن الطعام وأطرق ، وانكمشت الأم « فيدوسيا » فى نفسها ، وقبعت فى جلدها ، وتمتمت بكلمات معجمة ، وعلا وجهها المهزول ، المشبه وجه العصفور آية الرعب والجزع ، والأطفال الثلاثة وأختهم « فرفرة » – آنسة فى الخامسة عشرة بوجه أصفر غير مستملح – كلهم ألقوا الملاعق وظلوا صامتين .

واشتد هياج الرجل وحمى وطيس غضبه وقذف من قوارص القول بكل عوراء فاحشة ، ثم اندفع إلى المائدة وشرع ينفض أوراق البنكنوت المكتظ ينثرها فى كل ناحية ، ويصيح وهو ينتفض انتفاضا :

– خذوها ! انهبوها ! التهموها جميعا ! .. لقد ملأتم بطونكم على مائدتى طعاما وشرابا ، وما كفاكم هذا حتى تريدوا أن تذهبوا أيضا بأموالى ، وأرانى فى نظركم كمية مهملة وحرضا هالكا ، وأرانى حجرا أصم وجمادا ما بى إلى الدرهم والدينار من حاجة ! .. فخذوا ثروتى برمتها ، وأنفقوها فى جديد الأحذية والملابس وفى المبيت والمطعم والدرس والمحاضرة ! (يعرض فى كلماته الأخيرة بطلبات ابنه « بيوتر ») .

فاصفر وجه الغلام الطالب ووثب إلى قدميه فصاح مبهور الأنفاس ترتجف أوصاله :

ـ حسبك وكفاك يا أبى ! حسبك ! حسبك ! وقف عند هذا الحد ! ولتعلمن بعد ...

فصرخ الوالد صرخة منكرة أطارت المنظار من فوق أنفه فسقط فى صحن البطاطس :

– اخرس ! فض الله فاك وقطع لسانك ! .. أتجرؤ على يا وغد ... .

فقاطعه الغلام صائحا :

– حسبك يا والدى ، واكفف عنى غرب لسانك ، فلن أطيق بعد اليوم سقطاته وفلتاته ، وحسبى منك ما احتملته إلى الآن ! .. لقد شاءت إرادتى والحمد لله أن أصدع عن عنقى ربقة عتوك وطغيانك ، وأنطلق من أغلال جورك وجبروتك ! لقد كنت أعمى فأبصرت ، وأخرس فنطقت ، وجامدا فتحركت ، وميتا فعشت !

فصاح الوالد وضرب الأرض بقدمه :

– اخرس ، عليك لعنة الله ونقمته ! .. تالله لأرينك عاقبة تمردك وعصيانك ، ولتخرسن والله ثم لتنصتن إلى مقالتى وأنفك راغم ! لقد كنت فى مثل سنك كيّسا لبقا حاذقا بصيرا بأساليب الارتزاق ووجوه المكسب ، أعرف من أين تؤكل الكتف ، ولم أك مثلك نكسا ضعيفا قعددا كهاما ، عاجز التدبير والحيلة ، أتعرف يا خبيث أى نفقات تكلفنى ؟ .. تالله لأنبذنك باليباب ، ولأجعلن قبرك بطون الذئاب ، وحواصل الجارحات من رخمة وعقاب!

فتدخلت الأم فيدوسيا تدفع عن ولدها بصوت متقطع مبهور :

– مهلا ! مهلا ! حنانيك إنه لحمك ودمك !

فصاح بها الرجل وقد اغرورقت عيناه من غلواء الغيظ والحنق :

– اخرسى ! اخرسى ! تالله ما أفسده غيرك ، أنت أنت أصل هذا الشر والبلاء ! أما ترين فرط سقوطه فى مهواة الضلال وهبوطه ! .. لا يرعى لنا ذمة ولا يحفظ عهدا ، ولا يؤدى فريضة الصلاة ، ولا يكسب لنفسه درهما ، لُطفك اللهم ورحمانك ! ماذا أصنع مع هذه الأسرة ، لقد نفدت حيلتى وعيل صبرى ، وأنا فرد واحد بينهم ، وهم عصبة ! غوثك اللهم ومددك ، أجرنى منهم ، أعنى بقوة من لدنك عليهم ! .. وأكبر ظنى أنى سأطردهم من دارى جميعا يوما ما !

وهنا نظرت الفتاة « فرفرة » فاغرة فاها ، إلى أمها ثم قلبت عينيها الشاخصتين تلقاء النافذة ، ثم عرتها صفرة كصفرة الموت ، وصرخت صرخة عالية ، وأغمى عليها .

ولما رأى الوالد ذلك صاح صيحة شديدة ، وسب المكان والزمان ، وخرج يعدو إلى فناء البيت ...

هكذا كانت تنتهى الزوابع فى دار « شرياف » عادة ، ولكن زوبعة ذلك اليوم لم تنته كالعادة بفرار رب البيت إلى الخارج ، وذلك أن الغلام بيوتر أبى فى تلك المرة احتمال الضيم والهوان ، فاقترب من أمه وهو يرتعد ارتعادا شاحب الوجه متأجج المقلتين ، فصاح بأرفع صوته :

– إن لكلمات ذلك الرجل فى فؤادى وخزا كوخز الإبر وحز المواسى ! وقد أصبحت ومالى بكيها المضاض طاقة ! سأرحل عنكم إلى فضاء الله الواسع الفسيح :

وفى الأرض منأى للكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القلى متحول

خذوا مالكم الخسيس البغيض ، فما بى إليه من حاجة ، خذوه ... فالجوع والعرى أحب إلى من لقمة بالمن منغصة ، وكسوة بالتعيير مسمومة ، ومالى لا أتشبه بمن قيل فيهم :

أبوا أن يذوقوا العيش والذم واقع عليهم فماتــوا ميتـة لم تذمم

خذوا دراهمكم لا بورك لكم فيها !

فانزوت الأم مذعورة فى ركن المكان ومدت ذراعيها كأنما تحاول أن تدفع بهما خطرا مهددا ، وكأن الماثل أمامها ليس ولدها وإنما هوخيال مزعج !

وولولت تندب :

– وأنا ماذا جنيت ؟ وما ذنبى ؟

وغادر الغلام الدار يهيم على وجهه ، فى القفار والفيافى ، وحدثته نفسه وهو يجوب الطرقات الموحلة المملوءة بالبرك والغدران ، أن يركب ساقيه إلى موسكو مهما شط مزارها ، فيدخلها على حاله تلك ، مخرق النعلين ، عارى الرأس خاوى الوفاض ، وقال فى نفسه : « ومتى مضت ليلتان أو ثلاث ولم أعد ، أوجس أبى خيفة وهاجت بلابله ، فيلحقنى على الطريق ويبتهل إلى ويتضرع كى أرجع إلى البيت أو آخذ من المال ما أحببت ، ولكنى أتلقى توسلاته وابتهالاته بمنتهى الأنفة والإباء ، والعزة والكبرياء .. وأقطع بينى وبينه المفاوضات ، وأمضى على سننى ، ومن يدرى ، فلعلنى سأهلك جوعا وعطشا على الثلوج ، ثم يعثر على جثتى ، وهنالك فى جميع الصحف السيارة يقرأ أهل الأرض جميعا ان الرجل النذل الخسيس «شرياف» أسلم ابنه وفلذه كبده إلى العرى والجوع فمات رحمه الله ضحية لؤم ذلك الرجل الساقط وفريسة بخله وقسوته » .

وواصل مسيره ، يفكر فى الموت ومخاوفه ، ويفكر فى فجيعة أهله به وحدادهم عليه ، وفى حرقة أبيه ولوعته ، ونيران أحشائه ، وطوفان مدامعه ، ثم أزعجته تلك الصور الشنيعة ، فأسدل عليها الستار ، ثم عاد فكشفه عن أجمل الصور والمناظر فصور مستقبله بريشة الخيال الساحرة وألوان المنى الزاهية الزاهرة ، فتخيل أنه بينما يضرب فى شعاب الغاب إذ يرتفع له شبح بناء مشيد فيقصده فإذا قصر برنس أو غراندوق أو بارون ، فيستسقى أهله شربة ماء ، ويرونه مكدودا منهوكا جواب أقطار ، ونضو أسفار ، فيرحمونه فيكرمون مثواه ، وتراه ابنة صاحب ا لقصر ، وتكون من أجمل الغانيات فتعشقه ، وما بعد ذلك – بلغك الله مناك – إلا الحظ والأنس والنعيم ، وصفوة متاع الحياة !

كل ذلك وهو موغل فى أحشاء الآجام ، قد ركب رأسه لا يلوى على شىء ، ولا يدرى أيان يذهب به ويساق .

وبينما هو ، فى أحضان ابنة البرنس أو البارون ، تحييه بالورد والأقحوان وتشنف أذنيه بأعذب الألحان ، وتفديه بالروح والأهل والجيران ، إذ أخذته السماء بوابل هتان ، فكر راجعا إلى بيت أبيه ، وقد أفاق من أحلام وسنان .

وفى أثناء عودته عقد النية على مكاشفة أبيه بمكنونات صدره مهما كلفه ذاك .

ولما دخل الدار وجد أخته فرفرة على سريرها من وراء الكلة تشكو الصداع وتتأوه ، وعلى رأسها أمها أسيفة كاسفة البال ترقع ثيابا ، وألفى أباه يجوب أنحاء الحجرة جيئة وذهابا ، مقطب الحاجبين مكفهر الجبين ، تدل هيئته وسحنته ومشيته على ما كان يقاسيه من وخز الضمير ، ولذعة الندم .

وقال لغلامه « بيوتر » :

– أظنك عدلت عن نية السفر الليلة .

فرق فؤاد الابن لأبيه ورثى له حين رآه منكسرا خاشعا حزينا ، ولكنه كتم تلك العاطفة وقال بلهجة قاسية :

– إنى ما زلت أحترمك يا أبت ، وما كان يخطر لى على بال أن أغلظ لك القول يوما ما ، ولكن أنت ألجأتنى إلى ذلك بما قد جرحت إحساسى وأوغرت صدرى ، ولا تنس ما كان منك اليوم ، لقد عدوت فى الأذى والإساءة كل حد ، وجاوزت كل مقدار .

أطل الوالد من النافذة ولم يحر جوابا ...

وحك الغلام جبينه كأنما يزن ألفاظه ، قال :

– لا يكاد يمر إفطار ولا غداء ولا عشاء إلا وتقيم لنا عليه مأتما ومناحة ، إن خبزك لينشب غصة ميرحة فى حلوقنا ، ولا شيء أمر ولا أمض ولا أقرح ولا أبرح من طعام تلجلجه الأفواه ولا تسيغه الحلوق ، وإنك وإن تكن أبى ورب الأسرة ، ما أحسب أن الله جل وعلا قد أباح لك أن تغالى فى إذلالنا وإيلامنا كل هذه المغالاة ، تسود عيشنا وتنغص حياتنا ، بلا أدنى موجب ولا علة ، لقد والله أذقت والدتى لباس الذل والهوان ، وأوهنت عظمها ، وأذبت لحمها وشحمها ، وتركتها فى بيتها رقيقة مستبعدة بل أذل وأهون ... وأما أنا فقد ...

فقاطعه أبوه قائلا :

– ليس من شأنك أن تعلمنى ، وما جعلك الله قيما على ولا وصيا .

قال الغلام :

– بل من شأنى أن أعلمك وأبصرك من واجباتك مالم تبصر ، اصنع معى ما تشاء ، واقض فى ما أنت قاض ، أما والدتى المسكينة فاكفف عنها بوادر أذاك وشرك ، ولا تمسسها بسوء ولا تعذبها ..

وهنا خنقته العبرات فعدا مسرعا إلى حجرته ، فأكب على وسادة فراشه وانتحب انتحابا ، ولما انقشعت عنه عاصفة البكاء استلقى على ظهره إلى منتصف الليل فى شبه ذهول وخمود ، ثم نزع ثيابه وحاول النوم ولكنه لم ينم ، وجعل وهو كذلك يسمع وقع أقدام أبيه يجول فى غرف الدار كالروح الشريد المعذب ، يواصل أناته فى الظلام وزفراته ، ولم ينم تلك الليلة أحد من أهل المنزل ، وكان حديثهم قليلا ، نادرا ، وهمسا ووسواسا ، وأقبلت أمه مرتين فأطلت فى وجهه من وراء الكلة وصلبت عليه وتمتمت بشىء من الدعاء ، وكانت شاحبة الوجه ، موجعة حزينة .

وفى الساعة الخامسة صباحا ودعهم جميعا ، وهاج الحنان والإشفاق لوعته فبكى ، ولما اجتاز بباب غرفة أبيه نظر فإذا الرجل لا يزال فى كامل ثيابه لم ينضها للنوم ، ولم ينم ، وكان واقفا عند النافذة ينقر على زجاجها .

وقال الابن :

– وداعا يا أبتاه ! إنى راحل !

– وداعا يا بنى ، النقود على مائدة الطعام ...

قال الوالد ذلك دون أن يلتفت إلى ولده ...

وما هى إلا دقائق حتى كان الطالب بيوتر على طريقه إلى موسكو .

الغـــرام

للقصصى الروسى أنطون تشيكوف

أتممت الدراسة العاليـة فى الآداب والعلـوم بالجامعـة ولم يشأ الله أن أعيش عيشة العالم والأديب بالمدينة ، ولكن شاءت الأقدار أن أضيع ريعان الصبا وزهرة الشباب فى الريف وأن أعيش عيشة قروية كريهه محروما من حياة العلم والأدب ومتعها ولذاتها بين نخبة العلماء والأدباء بالمدينة ، وذلك أنه لما توفى أبى عقب مغادرتى الجامعة ، كانت الضيعة التى أورثنيها مثقلة بالديون ، فرأيت أنه لا بد لى — إن كنت مؤثر الحزم والحكمة — أن أسهر على هذه الضيعة وعلى حسن استثمارها حتى أرفع عنها من الدين ما آدها وأثقلها وكاد يذهب بها ، فأقمت بالريف وبذلت جهدى وحصرت همتى فى سبيـل ما إليه قصدت ، فأصبحت عيشتى من أجل ذلك ريفية بحتة خالية من كل ما يسر العالم ويلذ الأديب ، وتتابعت على ذلك الأعوام ، وكأنما لا منفذ لى من ظلمات هذه الحياة القفرة الموحشة إلا الممات .

وفى خلال ذلك عينت قاضى شرف بالمحكمة الجوالة وبالمؤتمر ، وكان هذا المنصب الجديد يضطرنى إلى الذهاب أحيانا إلى المدينة فكان فى ذلك تفريج لهمى وتنفيس لكربتى .

وفى المدينة اكتسبت أصدقاء جددا من زملائى فى القضاء أخص من بينهم بالذكر « لوجانوفتش » وكيل المحكمة المتجولة ، وكان حلو العشرة خلابا ، وقال لى ذات مرة : « هل لك فى تناول الغداء عندى اليوم ؟ » ..

لم أنتظر منه ذلك لأن علاقة ما بيننا لم تكن من المتانة بمكان ، ولم تتعد صلة الوظيفة الرسمية ولم يسبق لى دخول داره من قبل .

ذهبت معه إلى داره ، وهنالك رمانى القدر المتاح بلقاء زوجته « أتيوتا

أليكسيفينا » وكانت فى ذلك الحين صغيرة جدا لا تتجاوز الثانية والعشرين من عمرها ، وابنها البكر لا يتعدى شهره السادس ولست أدرى — يعلم الله — ما الذى افتتنى وسبانى وخلب لبى من ملامح هذه ا لمرأة ، لقد كانت مليحة حسناء ، عروبا ودودا ، سمحة سجيحة ، لبقة ذكية ، ساحرة جذابة ، لم أر لها قط شبيها ولا نظيرا ، ولأول وهلة أحسست كأنما قد سبق بين روحى وروحها تعارف منذ أقدم القدم فى عالم الأرواح ، قبل أن يخلق الله عالم الأشباح .

وجعل الزوج والزوجة يبالغان فى حفاوتى وإكرامى وإتحافى بمطايب الطعام والشراب ، وقد قام لى — ونحن على المائدة — ألف شاهد ودليل على أنهما كانا على أتم ما يكون من الوفاق والوئام والتآلف والتصافى . وبعد الغداء ، عزفا ما شاءا على « البيانو » ، ولما أرخى الليل سدوله استأذنت منهما وانصرفت إلى مثواى ، وكان ذلك فى غرة الربيع .

وبعد ذلك قضيت عامة الصيف فى ضيعتى بالريف ، وتكاثرت على الأعمال الجافة الثقيلة فلم يكن ثمت مجال للتفكير فى المدينة وشئونها غير أن ذكرى تلك المرأة الرشيقة الحسناء ظلت فى خاطرى ، لم أكن — علم الله — أفكر فيها ، ولكن كان يخيل إلى كأن ظلها الشفاف وشبحها المستنير قد خيما على قلبى .

وفى أواخر الخريف كان بإحدى دور التمثيل بالمدينة رواية خيرية ، ودعانى وكيل المحكمة لمشاهدة تلك الرواية ، فذهبت ودخلت لوجه ، وإذا زوجته « أتيوتا أليكسيفينا » جالسة إلى جنب زوجها ، وما هو إلا أن رأيتها حتى عاودتنى تلك الصبابة القديمة — تلك الهزة والأريحية —تلك النشوة المخدرة ، المفترة للأوصال والمفاصل ، نشوة الحب والجمال ، والوله والدلال ، وأدارت على هاتان العينان السحوران كأس الغرام مترعة دهاقا ، وعاودنى ذلك الإحساس الخفى العجيب ، إحساس تعارف الروحين وتعاطف الوجدانين وأنى وإياها قد كنا ملكين طاهرين نسبح فى الملكوت الأعلى ، ونمرح حول شجرة المنتهى فى جنة المأوى ، قبل أن يخلق الله آدم وحواء ، وجلست إلى جانبها ساعة من الزمان .

ولما ذهبنا من بعد ذلك إلى المقصف لتناول شىء من المرطبات قالت لى :

— لقد نحفت وضويت ، فما خطبك ، أكنت عليلا ؟

– نعم بالروماتزم فى كتفى ، لقد كان يحرمنى الرقاد إبان الأنواء والأمطار .

– أراك مكتئبا حزينا ، وما كذلك كنت أيام الربيع حين زرتنا .

تقول ابنة العمرى ما لك بعدما   أراك حـــديثا ناعم البـــال أفرعا

فقلت لها طول الأسى إذ سألتنى   ولوعة حـــزن تترك الوجه أســـفعا

فلو أن ما ألقى أصـــاب متالعـا   أو الركن من سلمى إذن لتضعضعا

واسترسلت فقالت :

– لقد كنت حين لقيتنا أول مرة ناعم البال جم البشر والطلاقة ، مفراحا طروبا ممراحا فياض الفكاهة سكب اللسان ، خلاب الحديث حتى لقد والله أثرت فى أثرا بطيئا زواله ، ولا أدرى لأية علة ما زلت ترد على خاطرى وتتردد على ذاكرتى ، ولما كنت أتهيأ الليلة للذهاب إلى دار التمثيل هتف بى هاتف من أعماق قلبى أنى سألقاك هناك ، وما كذبنى الهاتف !

ثم ضحكت ...

وكررت قولها ...

– ولكنك محزون الفؤاد مكتئب ، وهذا يكسوك فى نظرى سيما الكبر والهرم .

وفى اليوم التالى تغديت فى دار وكيل المحكمة « لوجانوفتش » بينه وبين زوجته ، ثم ذهبنا إلى محلتهما القروية ، التى كانت لهما مصطافا ومشتى ، لكى تعد بها معدات الشتاء القادم ، ثم عدنا إلى المدينة ، وفى منتصف الليل تناولت معهما الشاى بين معالم السعادة المنزلية ، التى كان من أنصع عناوينها موقد الصلاء يتلألأ فى سنا شعاعه الوهاج بريق الأنس والصفاء ، والأم الصغيرة ، فى أثناء ذلك تتفقد طفلها الرضيع ، تروح إلى مهده الصغير وتغدو .

وجعلت بعد ذلك كلما قدمت المدينة لا أخلى تلك الأسرة الكريمة من زيارتى ، وألفونى وألفتهم ، وتوثقت بيننا عرى الوداد ، وتأكدت روابط الصداقة ، وكنت أدخل عليهم بلا استئذان كأنى فرد من أفراد الأسرة .

فكنت إذا طرقت دارهم سمعت من أقصى حجراتها نغمة ذلك الصوت العذب الرخيم الذى يمتزج بأجزاء نفسى رقة ولطافة ويدب دبيب الغناء فى جوارحى ، وهى تسائل الخادمة فى فتور ولين :

– من الطارق ؟

وتقول الخادمة :

– إنه « بافيل قسطنطين » . فتخرج إلى « أتيوتا أليكسيفينا » وعلى وجهها آية الشوق واللهف وتقول :

– ويلى منك يا بافيل ! ما بالك قد هجرتنا كل هذا الهجران ! هل حدث حادث ؟ ...

وفى خلال ذلك كانت عيناها الفاترتان ، ويدها الرخصة اللدنة ، التى كانت تضعها بمنتهى الاستسلام فى يدى ، ولباسها المنزلى الشفاف ، وشعرها المرسل المهدل ، وصوتها الحلو الرخيم ، وخطوها الخفيف الرشيق ، وابتسامتها العذبة الساحرة ، كل هذه الآيات الرائعات كانت ترسل فى كيانى تلك الهزة المعهودة وتبعث فى نفسى ذلك الشعور المبهم العجيب ، الخفى الجديد ، المدهش الخطير المهيب .

وكنا نجلس الساعات العديدة نتجاذب أطراف الحديث ، ثم يتلو ذلك الصمت الطويل ، وكلانا فى غمرات فكره سابح ، وأحيانا تعزف لى على البيانو بأشجى الأنغام والألحان ، وإن كان لديها حوائج تريد قضاءها من الخارج انطلقت ، وتركتنى أتصرف فى أرجاء البيت كما لو كان بيتى وبيت أجدادى ، وتعود فألقاها على عتبة الدار فأتناول منها ما جاءت به من متاع أو بضاعة ، فأحملها فرحا بها مسرورا حدبا عليها عطوفا ، كأنى أحمل منها طفلا لى عزيزا على ، قرة عين وفلذة كبد !

وكانت « أتيوتا أليكسيفينا » ترق لى وترثى لحالى إذ تجدنى مع وفرة نصيبى من العلوم والآداب والتربية العالية ، أضيع عمرى هدرا بين أجلاف الريف فى الحقول والمزارع ، أكد وأكدح ، ولا يبدو على أدنى أثر لذلك من مال أو يسار ، لا درهم ولا دينار ، وكانت تقرأ على هيئتى آية الفقر ناصعة مبينة ، وتشعر أنى فى هم ناصب وكرب دائم ، وأنى ما كنت أتحدث وأضحك وأمزح إلا لأكتم زفرات البث الذى كان يملأ جوانحى ، وعبرات البث التى كانت تشرئب أن تكف من أجفانى ، وكان يشتد كربها إذا آنست على أمارات الأسى لضائقة مالية

أو شبهها ، فكانت إذ ذاك تأخذ بمرفق زوجها فتنتحى به زاوية من المكان ، ثم يتساران برهة ، ويعمد إلى الزوج بوجه أسيف فيقول لى :

– إن كنت فى حاجة إلى المال الساعة ، يا بافيل فسلنا نقرضك ما تبغى ؟

ثم يصبغ الخجل وجهه إلى أذنيه :

أو ربما عاد إلى بعد طول تهامس مع زوجته وهو مضرج الوجنتين ملتهب الوجه بحمرة الخجل فيقول :

– إنى وزوجتى نرجوك أن تتقبل منا هذه الهدية ...

ويضع فى يدى مشبكا من الذهب ، أو علبة سجاير من الفضة ، أو مصباحا من النحاس ، وأهديهم أنا ، مقابل ذلك ، فراخا وبطا وزبدا وبيضا من حاصلات الريف ، وأذكر بهذه المناسبة أنهما كانا من الأغنياء الموسرين ، فهما لا يباليان أن أقترض منهما ما أشاء ، ولكن من أعجب العجائب أنى مع فرط جرأتى يومئذ على اقتراض النقود كلما سنحت الفرصة ، لم أكن لأجترىء بذلك على تلك الأسرة ولو أشرف بى العوز على الهلاك ، وما علة ذاك ؟ لا أدرى !

ونال منى الحزن وشفنى الجوى ، وكانت لا تفارقنى ذكراها ، أذكرها فى البيت وفى الحقل وفى الخلاء :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثل لى ليلى بكل مكان

وحاولت جهدى أن أتفهم ذلك اللغز الخفى وهو تزوج فتاة حسناء فتانة من رجل كهل خال من كل ميزة تعجب ، وحلية تسر وتطرب ، فترزق منه من البنين ما يزيد صلتها به متانة وتوكيدا ، حاولت جهدى أن أتفهم لماذا أوقع القدر هذه الحسناء فى حوزة ذلك الرجل ولم يوقعها فى حوزتى أنا ، ولماذا صادفته أولا ، ولم تصادفنى أنا ، ولأى حكمة إلهية أزلية وقعت تلك الغلطة الفاحشة فى حياتها وحياتى ؟

وكلما ذهبت إلى المدينة عرفت من عينيها أنها كانت تنتظرنى بفارغ صبر ، وكانت تقول لى فعلا إن شيئا فى أعماق نفسها كان ينبئها بوشك مقدمى ، وكنا نفيض فى الحديث تارة ، ونسكت تارة ، ومع هذا كله ، لم نك نجرؤ أن نتكاشف الحب ، ونعلن الصبابة ، بل كان كلانا يكتم جراحه عن صاحبه ،

ونخشى كل ما نخاله على الغرام دليلا ، وبالهوى نماما ، وكان حبها قد ملك مشاعرى وتغلغل فى عظامى ، ولكننى كنت أسائل نفسى إلى أية غاية يسوقنا هذا الحب ، لو أطلقنا له العنان ولم نكبح جماحه ؟ ..

وقلت فى نفسى : للموت أهون على من أن أشهر من غرامى هذا سيف نقمة على رقاب هذه الأسرة وأصب منه على زوجها وأولادها سوط عذاب ، وصاعقة دمار تهدم أركان هذه الأسرة الآمنة المطمئنة ، أفيكون ذلك من الشرف ؟ وهبنى أخذتها ومضيت ، فإلى أين ؟ وأيان أذهب بها ، وكيف ؟ لقد كان يستقيم لى ذلك ويصح ، لو كنت رجلا آخر أعيش عيشة أخرى ، لو كنت زعيما سياسيا خطيرا أو عالما جليلا ، أو شاعرا فحلا أو مصورا مشهورا ، إذن لنقلتها من عيشة مبغضة كريهة إلى أخرى بهجة لذيذة ، فأما أن أحولها عن حياة سخيفة عقيمة إلى أسخف منها وأعقم ، فذلك هو الحمق والجنون بعينه ، وهبنى فعلت ذلك ، فهل يدوم لنا صفاؤنا ؟ وماذا تكون حالها إن مرضت أو مت ، وماذا نصنع إن فترت بيننا علاقات الصبابة وعفى الزمان على رسوم الحب بيننا وأطلاله ؟ وكأنما كان يخالج ضميرها مثلما كان يخالج ضميرى ، فكانت هى أيضا تفكر فى زوجها وأولادها وفى أمها التى كانت تعد ذلك الزوج ابنا لها ولم تجد لها من حيلة إزاء ذلك الهوى الكمين والهم المبرح سوى خطتين ، إما الخداع والكذب ، وإما الإقرار بالحقيقة ، وكلا الخطتين أليم وخيم المغبة .وكانت فوق ذلك تخاف أن انضمامها إلى ربما أشقانى وأبأسنى ، ونغص من حياتى عيشة ما برحت المحن والكوارث تنغصها ، وزاد فى أرزاء حياة هى بالأرزاء مملوءة .

* * *

وفى أثناء ذلك ، كانت الأعوام تنصرم وكانت أتيوتا قد رزقت أربعة من البنين ، وكنت إذا طرقت الدار المحبوبة ، تلقانى الخدم بالابتسام والأطفال بالهتاف ، صائحين أن عمهم « بافيل » قد جاء ، ثم يرتمون على ويطوقون عنقى بأذرعهم البضة الصغيرة وإنهم ليفيضون فرحة وسرورا .

لم يدروا — عافاهم الله — ما كان ينتابنى من الألم ، بل كانوا يحسبوننى مثلهم مسرورا سعيدا ، وكنت ربما استصحبت « أتيوتا أليكسيفينا » إلى دار التمثيل حيث

كنا نجلس متلاصقين على مقاعد « الفوتيل » يتماس كتفانا . وكنت آخذ المنظار من يدها بلا استئذان ولا كلام ، وأشعر إذ ذاك أني أقرب الناس إليها ، وأنها ملك لى ، وأنى وإياها روحان فى جسد ، وأن أحدنا لا يستطيع البقاء من دون صاحبه ، ولكن العجب العجاب أننا كنا متى غادرنا دار التمثيل عقب انتهائه ، حيا أحدنا الآخر تحية الوداع وافترقنا كما لو كنا غريبين قد التقينا للمرةالأولى والأخيرة !

الله يعلم ماذا كان يرجف به عنا أهل المدينة ، على أنهم فى مزاعمهم كاذبون !

ولما تمادت الحال بالسيدة أتيوتا أليكسيفينا واستفحل الأمر أصبحت لا تطيق طول المكث بالدار فجعلت تكثر من زيارة أمها وأختها وبدأت تشكو مرض الانقباض وضيق الصدر وتفهم أن حياتها قد تسممت وفسدت وأن على كبدها حرقة غليل لا يملك الماء دفعه ، وأن روحها تشرئب وتطمح إلى المحال ، ومالا ينال ، وأحيانا كانت لا تحب أن تبصر زوجها ولا أولادها ، وتفاقم عليها الشر حتى أصبحت فى عداد مرضى « النورستانيا » ..

وكذلك لزمنا الصمت وما زلنا صامتين ، وكانت فى حضرة الضيوف الأجانب تظهر نحوى نوعا غريبا من الضجر بى والتبرم ، وتخالفني فى كل ما أقول وتمالىء على خصومى فى حومة المناظرة والمناضلة ، وإن أبديت رأيا سفهته ساخرة متهكمة فتقول :

– إنى أهنئك على أصالة رأيك ، لقد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب ! ..

وإن نسيت أن آخذ معى « منظار الأوبرا » عند ذهابنا إلى دار التمثيل ، قالت لى معنفة :

– ما زلت أعرف فيك التقصير والإهمال ..

ومن حسن الحظ أو نكده ، أنه ليس فى هذه الحياة من شىء إلا وله نهاية ، وكل حادث سيزول عاجلا أو آجلا ، وكذلك أتاح الله لنا ساعة الفراق الذى لا لقاء من بعده ، وذلك أن « لوجانوفتش » زوج السيدة تقرر نقله رئيس محكمة فى الأقاليم الغربية ، فاضطروا إلى مبيع كل مالديهم من فراش وأثاث ومتاع وخيل ، وفى جملة ذلك محلتهم التى كانت مشتى لهم ومصطافا ، وضرب آخر أغسطس موعدا لارتحال « أتيوتا أليكسيفينا » إلى بلاد القرم استشفاء من داء

« النيروستانيا » وأرجىء سفر الزوج بسائر أفراد الأسرة إلى مقر منصبه الجديد إلى ما بعد ذلك بقليل .

وذهبنا جما غفيرا إلى المحطة لتوديع « أتيوتا أليكسيفينا » ولما فرغت من تبادل تحية الوداع مع زوجها وأولادها ولم يبق على الجرس الثالث إلا دقيقة ، أسرعت إلى غرفة القطار التى كانت منفردة فيها ، أحمل إليها صرة كانت أهملتها ، ولما التقت ألحاظنا خاننا الصبر وانحلت عقدة تجلدنا فأهويت عليها أحتضنها وأطوق بذراعى جيدها وأسندت هى وجهها إلى صدرى وفاض دمعها مدرارا ، وأقبلت ألثم وجهها وكتفيها ويديها المبللة بالدموع . لله ما كان أبأسنا وأشقانا ، وما كان أمضها ساعة وأنكاها ، وهنالك بحت لها بحبى المفرط المبرح ، وغليل مهجتى ، وحرقة كبدى ، وتبين لى ، والوجد يوقد على أحشائى جحيمه المستعر ، أن التزامى خطة الصمت والكتمان وطول إحجامى عن مكاشفة هذه الحبيبة المخلصة الوفية بكامن غرامى ، لم يك إلا حماقة منى وغباوة وسفها وضلالة ، وأنى لم أجن بعمايتى هذه إلا على نفسى وعلى تلك المسكينة ، أحب الناس إلى وأخصهم عندى . إذ حرمت نفسى وحرمتها معى صفوة العيش وطيب الحياة ومتعة الدنيا . وأدخلت نفسى وإياها طائعا مختارا سجن الهم والعناء والكرب والشقاء ، وآفاق الحرية والنعيم أمامى منفسحة فيحاء مشرقة الجنبات ، عبقة النسمات ، حالية الجنان شهية الأنغام والألحان .

وختمت وجنتيها وجبينها وشفتيها بآخر قبلة ، وصافحتها ، ثم افترقنا إلى الأبد ؟ .. وكان القطار قد تحرك ، فلجأت إلى الغرفة المجاورة وكانت خالية فانطرحت على مقعد بها ، ولبثت إلى أن بلغ القطار المحطة التالية أسح الدموع سحا ، ثم عدت أدراجى أتعس الناس طرا ! ..

* * *

زوجة الصيدلى

للقصصى الروسى أنطون شيكوف

كانت بلدة ب — الصغيرة المؤلفة من ثلاثة شوارع ضيقة متعرجة — فى هدأة نوم عميق ، تسود السكينة التامة فى هوائها الراكد ، وتخيم على جوها الصامت ، ولم يلك يسمع ثمت سوى نباح كلب مبحوح من أقصى المسافات ، كانت ساعة السحر .

لقد كان أهل البلدة جميعا فى هجعة هادئة ، إلا زوجة الصيدلى مورديك الذى كان له بتلك الناحية حانوت يبيع فيه الأدوية والعقاقير .

وكانت هذه الزوجة الصغيرة قد استلقت على الفراش تحاول النوم ثلاث مرات ولكنها لم تنم ، ولم تدر لماذا ، وإنها لتكابد من الملل والسأم والضجر أقصاه ، بل لقد اشتد بها الضجر والكرب حتى أوشكت أن تجهش بالبكاء ، ولم تدر لماذا ... وأحست بصدرها غصة تتصاعد إلى حلقها ، وكان على بعد خطوات من خلفها يرقد زوجها « مورديك » يغط فى أحلى غطيط وأرخمه ، ويشخر أشجى شخير وأنغمه ، وقد ركب على قصبة أنفه برغوث شره يلدغه ، ولكنه لم يشعر ، بل كان يبتسم فى منامه ، إذ كان يحلم أن جميع أهل البلدة قد أصابهم سعال ، وأنهم يتسارعون إليه أفواجا ، يشترون منه « أقراص القطران » .. لقد كان يستحيل إذ ذاك إيقاظه .. كلا ولا بوخز الإبر ولا بنخس المهاميز .. كلا ولا بالقنابل ولا بالمدافع !

وكانت الصيدلية بأحد أطراف البلدة ، فكانت زوجة الصيدلى ترى أقاصى الحقول والمزارع ، وكانت تبصر الأفق الشرقى يتبدل من سواد الليل اصفرارا ، ثم تخضب حواشيه حمرة قانية ، كأنما يشب فيه حريق مضرم ، ثم أطل وجه القمر مستديرا كبيرا من خلال الشجر .

وسمع وطء أقدام فى سكتة الليل ورنين مهاميز ، ثم أصوات أناس . فقالت زوجة الصيدلى فى نفسها :

– هؤلاء بلا شك ضباط البوليس ، عائدون من مكتب المأمور إلى ثكناتهم .

وبعد هنيهة ارتفع لها شبحا ضابطين فى الزى العسكرى ، أحدهما ضخم طويل ، والثانى أنحف وأقصر ، وكانا يسيران الهوينا ويتحادثان بصوت عال ، ولما اقتربا من الصيدلية ، سارا على أدنى مهل ، يجران رجلا إثر أخرى وصعدا البصر إلى نافذة المكان .

وقال الرجل النحيف :

– إنى لأشم رائحة صيدلية ، وذاك هو الواقع ، الآن تذكرت لقد طرقت هذا الحانوت منذ أسبوع فاشتريت منه شربة زيت خروع ، وأذكر أن الصيدلى صاحبه رجل قبيح الوجه ذو طلعة شنعاء ، وفك كفك الحمار .

فقال الرجل الضخم :

ـ الصيدلى نائم والحمد لله ، وأحسب أن زوجته نائمة كذلك ، ما أجملها يا صديقى ، لكأنها والله قطعة من الفالوذج ، تبرق بريقا ، وتهتز اهتزازا .

قال النحيف :

– لقد رأيتها ، وشد ما استملحتها ، قل لى يا دكتور ، ترى من الجائز أنها تحب ذلك الصيدلى ، فك الحمار ؟

فقال الرجل السمين :

– ذلك محال يا صديقى « أوبتيوفوز » ، وما أحسب أن هذا السخيف الصيدلى يعرف قيمة هذه الحسناء ، وما كان لغبى مثله أن يفطن إلى ما ضمنت صورتها البديعة من آيات الجمال ، وكأنى به لا يكاد يميز بينها وبين زجاجة من حامض الكربوليك .

قال الضابط :

– اسمع ياحضرة الدكتور ، ما رأيك فى تعريجة على هذه الصيدلية وشراء

شيء من سلعها ، فلعلنا – إن فعلنا – ملاقون الغادة الحسناء ففائزون منها بنظرة تشفي الغليل ؟ ..

قال الدكتور :

– ما هذا الجنون ؟ أفي مثل هذه الساعة من الليل ؟

– وماذا يكون ؟ ما أرى في ذاك من حرج ، إن الصيدليات ملزمة أن تفتح أبوابها لكل طارق ، ولو كان في الليل ، هلم بنا ندخل ...

– إن شئت .

سمعت زوجة الصيدلي من خلف الستارة دقة على الباب ، فصوبت نظرة سريعة إلى زوجها ، وكان لا يزال يغط ويبتسم في نومه ثم ارتدت ثوبا وشبشبا ، وجرت إلى الدكان .

وتراءى لها خلف زجاج الباب شبحان ، ورفعت ذبالة المصباح وهرعت إلى الباب لتفتحه ... وفي تلك اللحظة لم تشعر بضيق ولا ملل ولا سأمة ولا ضجر ، ولا بحاجة شديدة إلى البكاء والانتحاب ، وإن أحست في قلبها بخفقان شديد ، ودخل الدكتور الضخم والضابط النحيف ، وكان الأول شحيما لحيما ، أسمر اللون ذا لحية وحفة ، ثقيل الحركة ، وكان الضابط حليق الذقن مورد الوجه مؤنث الهيئة ، بضا ، رشيق الحركة .

وقالت زوجة الصيدلي ، وغطت بثوبها ناهديها ونحرها :

– ماذا تبغيان ؟

فقال الدكتور :

– أعطينا .. أ .. أ .. أقراص نعناع بأربعة بنسات ،

فعمدت الحسناء بمنتهى التباطؤ والتلكؤ إلى بعض الرفوف فتناولت من فوقه زجاجة وشرعت تزن أقراص النعناع ، وجعل الرجلان يحددان النظر إلى ظهرها ، وزر الدكتور السمين عينيه على نحو ما يفعل القط المعلوف ، أما الضابط فكان على أتم ما يكون من الرزانة والوقار . وقال الدكتور :

– هذه أول مرة رأيت سيدة تبيع العقاقير في صيدلية ..

قالت زوجة الصيدلى ، واختلست النظر من مؤخر عينها إلى الضابط الأحمر اليدين :

– لا غرابة فى ذلك ، إن زوجى لا يتخذ فى حانوته صبيا يساعده ، فأنا صبيه المساعد .

قال الدكتور :

– ونعم المساعد ، وهنيئا لمن كان له صبى مثلك . ولكن خبرينى ، أما تخافين أن تمسى هذه السموم ؟

وتقدمت الحسناء إلى الدكتور فناولته أقراص النعناع فى كيس مختوم ، وأعقب ذلك فترة سكوت ، تبادل الرجلان خلالها النظرات ثم تقدما خطوة نحو الباب ، واستأنفا تبادل النظرات ثانيا . وقال الدكتور :

– أعطينا قليلا من الصودا ، بثلاثة بنسات فقط ...

فرفعت الحسناء يدها إلى الرف بأقصى منتهى البطء والفتور والتراخى .

وقال الضابط بصوت خافت وهو يحرك أصابعه :

– أما لديك فى هذا الدكان من شىء .. شىء منعش .. أريد أن أقول .. شىء لذيذ .. ماء سيلزار مثلا .. ؟

فقال المرأة :

– بلى ، وعندى ذلك أيضا .

– برافو ! .. أحضرينا زجاجة !

فاختفت الحسناء من خلال باب فى حجرة خلفية مظلمة .

وقال الدكتور وغمز بعينه :

– وأيم الله إنها لتفاحة ! كلا والله ، ولن تجد لها ضريبة ولا نظيرة فى أنضر بساتين الأندلس و « مأديرا » ، ما رأيك ؟ أما تسمع شخير صاحبك ؟ . ذلك هو جناب الصيدلى يحلم أحلامه الهنيئة .

وعادت الحسناء من خزانة المشروبات موردة الوجنتين تحمل زجاجة ملء سيلزار ، ففضت ختامها وصفت الكؤوس .

وقال الضابط يخاطبها وقد أسقطت البريمة على أرض المكان فسمع لاصطدامها صليل :

– رويدك ، لئلا ينتبه زوجك من منامه ..

– وماذا علينا لو انتبه ؟

– إنه يشخر ألذ شخير ، ما أحسب إلا أنه يحلم بك ... فى صحتك !

قال الدكتور ، وقد أصابه الفواق (الزغطة) عقب الكأس الأولى :

– شر مخلوقات الله الأزواج ، فأولى لهم ألا يزالوا نائمين .

وسرعان ما فرغت الزجاجة ، وقال الدكتور :

– واها ! واها ! على زجاجة من نبيذ مالجا ... لماذا لا يباع النبيذ فى الصيدلية كما تباع الأدوية ؟

– أجل وعندنا ذاك أيضا ...

– هات زجاجة .

وجلس الرجلان على البنك ، ونزعا قلنسوتيهما وشرعا يشربان الراح . وقال الدكتور :

– النبيذ ردىء جدا ، ولكنه على وجه هذه الحسناء ألذ عندى من المن والسلوى ! ما .. ما .. أملحك يا غادة ! أنت ألذ عندى من ال .. ال .. السنبو .. بو .. بو .. بوسك ! إنى لآكلك بالضمير وأشربك ، وإنى لأنهش بأسنان الخيال تفاحة خدك !

فتوهجت المرأة خجلا ووجلا ، وكست وجهها سيما الجد والوقار وقالت :

– حسبك وكفى !

قال الدكتور ونظر إليها نظرة خبيثة من تحت حاجبيه :

– دعك من هذا الرياء يا كاهنة ، لكأن عينيك تقذفان بقنابل « هوتزر » بم ! بم ! بم .. إنى لأرفع إلى سدتك العلية أخلص التهانى وأركع تحت قدميك اللطيفتين خاشعا ذليلا ! لقد انتصرت وانهزمنا ، وظفرت واندحرنا :

لاتعذلونى وإياهـــا على ضرعى   وزهــوها ، فكلا الأمرين ديــدان

إني مُلِكت ، فلي بالرق مسكنة   وتملَّكت ، فلها بالملك طغيـــان

وإذ ذاك نفضت الحسناء عن أعطافها ثوب الوقار ، واستأنست إلى الرجلين واسترسلت معهما فى ميادين الطرب والسرور ، وأخذت فى أفانين الضحك والفكاهة ، بل لقد شربت معهما – بعد إلحاح – كأسين من النبيذ ، وقالت :

– ماذا عليكم – معشر الضباط – لو أكثرتم من زيارتنا ، ما أشد وحشتى بهذا المكان وما أمض ألمى ! لقد أوشكت أن أموت سآمة وضجرا !

قال الدكتور :

– ولا عجب ، لأنت والله الدرة اليتيمة قذف بها فى مزبلة ! كان لك الله فى وحشتك وكربتك .. وبعد فلقد آن لنا أن نذهب ، إنى مسرور بهذا التعارف ، كم حسابك ؟

فرفعت زوجة الصيدلى ناظريها إلى السقف وحركت شفتيها فى صمت . ثم قالت :

– اثنا عشر روبلا وثمانية وأربعون كوبيكا .

ودفع لها الدكتور المبلغ ، وبعد كثير من عبث الكلام وفضوله وكثير من الضغطات على كف الحسناء والقرصات واللثمات ، خرج الرجلان من الدكان فى منتهى البطء والتوانى يكثران من التوقف والتلفت كأنهما قد نسيا شيئا يحاولان إدراكه .

وعادت المرأة مسرعة إلى حجرة الرقاد ، وأطلت من النافذة ، فأبصرت الرجلين يتمشيان على أدنى مهل ، حتى إذا صارا على نحو عشرين خطوة من الحانوت وقفا ، وأخذا يتهامسان ... فيم يتهامسان ؟ شد ما خفق فؤادها ، ولم تدر لماذا ؟ ...لقد خفق فؤادها ، كما لو كان فى أيدى هذين الرجلين المتهامسين ، مصير أمرها ومستقبل حياتها !!

وبعد خمس دقائق مضى الدكتور فى سبيله ، ورجع الضابط إلى الحانوت فمر به دفعتين وجعل يقف ببابه ثم يخطو خطوات قليلة ويعود .. وأخيرا دق الجرس ...

فانتبه زوج المرأة بغتة وصاح بصوت بشع منكر :

– من الطارق ؟

ثم وثب إلى قدميه وارتدى ثوبه ، وهرع إلى الدكان يتخبط نعاسا وصاح :

– ماذا تريد ؟

فقال الضابط :

– أقراص نعناع بأربعة بنسات ...

وطفق الصيدلى ينخر ويعطس ويتثاءب وينعس أثناء مشيه ، وتصطدم ركبتاه بالمقاعد وبالبنك .. حتى وصل إلى الرف .

وبعد دقيقتين ، أبصرت المرأة الضابط خارجا من الدكان ، ثم رأته بعد بضع خطوات يقذف كيس النعناع على ظهر الطريق ، وعند المنعطف استقبله الدكتور صاحبه ، فتبادلا كلمتين ثم اختفيا فى ضباب الصباح ، وتنهدت المرأة ، وهى تنظر بعين الغضب والحنق إلى زوجها عائدا إلى فراشه .. وقالت والدموع ذوارف تجرى على الخدين والجلباب :

– ما أشقانى وما أتعسنى ، وما أنكد حظى وما أمر عيشى ! ولا أحد يعلم ، ولا أحد يدرى ...

المربّية

للقصصى الروسى أنطون تشيكوف

كانت « ماشنكا » فتاة صغيرة خريجة إحدى المدارس العالية تشغل وظيفة مربية فى بعض الأسر المثرية ، ولما عادت ذات يوم من النزهة إلى دار الأسرة المذكورة ، ألفتها فى ضجة وفى هرج ومرج ، وصادفت الوصائف والخادمات فى الردهة مضطربات شاحبات وإحداهن تبكى وتنتحب ، ثم أبصرت سيد الدار « نيقولا سرجيش » — وهو رجل قصير مترهل الوجه أصلع الرأس — خارجا يعدو من باب غرفتها محمر الوجه ، منتفض الأوصال ، ومر بها دون أن يراها ، ورفع ذراعيه كالمستجير من كارثة أصابته وصاح :

— ما أفظع هذا ! ما أشنع وما أبشع !

ودخلت « ماشنكا » غرفتها ، فألفت سيدة الدار تجرى بها تفتيشا دقيقا ، لقد أبصرت تلك السيدة « فيدوسيا » الضخمة القبيحة الشكل الكثيفة الحاجبين الخضراء الشارب ، الحمراء اليدين ، الشبيهة بالطباخات هيئة وسحنة ، وآدابا وأخلاقا ، واقفة ، عارية الرأس ، إلى المائدة ترد فى صندوق « ماشنكا » ما كانت أخرجت منه من أدواتها : بكر خيط وإبر وكستبانات ، وخرقا ، وقصاقيص ، وركامة ودنتلة ، وأشرطة وأوراقا ، وكأنها فوجئت بمقدم « ماشنكا » فأصابتها حيرة وارتباك وشىء من الحياء والخجل وقالت للفتاة المربية :

— معذرة ، معذرة ! — لقد قلبت الصندوق غير عامدة ، إذ اشتبك به كمى .. قالت ذلك وخرجت مسرعة :

أجالت « ماشنكا » بصرها فى أرجاء حجرتها وحار فكرها فى ذلك الأمر العجيب ، فهزت كتفيها ، واقشعر جسدها جزعا ، ولماذا ، وعن ماذا كانت السيدة فيدوسيا تفتش فى صندوقها ، وإذا كان حقا ما زعمت من أن كمها

اشتبك اتفاقا بالصندوق ، فلماذا انطلق زوجها من باب الغرفة آنفا ، أحمر الوجه مضطربا يضج ويشكو ؟ ولماذا أحد أدراج المنضدة بارز عن موضعه قليلا ؟ ولماذا العلبة المشتملة على وفرها ومدخرها من الدراهم وطوابع البريد مفتوحة ؟ ولماذا كل شيء بالغرفة عليه آثار عملية تفتيش حديثة العهد ؟ .. فلماذا كل هذا ؟.. لماذا ؟ .. ماذا حدث وماذا جرى ؟ أليست هذه كلها شواهد على أنها زجت في تهمة خبيثة ؟ وهنا أصفر وجهها ، وسقطت على سلة البياضات ، خائرة القوى .

ودخلت عليها إحدى الخادمات في تلك اللحظة فخاطبتها ماشنكا » قائلة :

– خبريني يا « ليزا » أتعلمين ما الذي حدا بهم إلى تفتيش حجرتي ؟

– لقد فقدت السيدة مشطا من الذهب مرصعا بالجواهر ، قيمته ثلاثة آلاف روبل .

– ولكن لماذا يفتشون حجرتي ؟

– إنهم لم يتركوا موضعا إلا بحثوه ، ولا أحدا إلا فتشوه ، لقد فحصوا حجرتي أنا أيضا ، لقد جردونا جميعا من ثيابنا وفتشونا عراة ، وشهد الله يا سيدتي أني منذ دخلت هذه الدار ما دنوت قط من حجرتها الخاصة ، فكيف بلمس أمشاطها المرصعة ؟ وهذا ما سوف أقوله في البوليس إن اقتضت الحال ذلك .

كل هذه البيانات لم تقنع المسكينة « ماشنكا » فكررت سالف سؤالها :

– ولكن ما الذي حملهم على التفتيش ههنا ؟

– قلت لك إن أحد أمشاطها المرصعة قد ضاع ، وأنها لم تدع شبرا و لا فترا في طول البيت وعرضه إلا أوسعته بحثا وتنقيبا بنفسها ، حتى البواب الهرم المضعضع « ميخائيل » لم تدعه حتى فتشته أيضا ، هذه والله مخزاة ، بل مأساة ! إنها تعيث في البيت فسادا كاللبؤة الضارية ، وزوجها بإزائها مستكين خاضع ، مضروب على يديه ، مغلوب على أمره ، قصاراه أنه يقرع السن ندما ، ويقوقيء كالإجابة المعورة ، ولكن هوني عليك ، وسكني من روعك ، فإنه لا بأس عليك ولاضير ، إنهم لم يجدوا لديك شيئا .

قالت ماشنكا وأوشكت تختنق غيظا وحنقا :

– ولكن هذه إهانة عظمى يا صديقتى ليزا ، هذه نكبة ومصيبة ! هذه قصوى غاية السفالة والخسة والدناءة ! .. بأى حق يتهموننى ويفتشون مكانى ؟ ..

– اذكرى يا سيدتى أنك وسط قوم أجانب ، فأنت وإن كنت من أسرة شريفة ، لا تزالين على أية حال ... لا تؤاخذينى ... خادمة ... ولست كما لو كنت بين أمك وأبيك .

فانطرحت ماشنكا على فراشها وأجهشت بالنحيب تبكى بكاء مرا ، لم تلق فى حياتها ، منذ كانت ، محنة أشد من هذه ولا نكبة أفدح ... رحماك اللهم ولطفك ! أبعد التربية العالية والتهذيب وبعد ما شهد لها الملأ بطيب الأصل والفرع ، وشرف الأحساب والأنساب تلصق بها تهمة السرقة ؟ ويجرى عليها من التفتيش ما لا يجرى إلا على أحط الرعاع والسوقة ؟ ومن يدرى ما عساه ينزل بها من المكروه بعد ذلك ؟ لقد ازدحمت الهواجس المزعجة والوساوس الكاربة على مخيلتها ، لقد أوجست أن يقبضوا عليها ، ويعروها فيفتشوها ، ثم يرسلوها خلال الطرقات والشوارع فى حرس من الجند فيقذفوا بها فى سجن ضيق مظلم ، كالذى حبست فيه من قبلها مارى » ملكة اسكوتلندة ، و « مارى أنطوانيت » ملكة فرنسا والأميرة « ناراكانوف » الروسية ، ثم حملن منه جميعا إلى المشنقة – أو المقصلة – وما من حام ولا واق ، وما من عون ولا ناصر .

وتذكرت « ماشنكا » أنها كانت قد خبأت فى البياضات ، تحت ملاءات الفرش وأكياس المخدات حفنتين أو ثلاثا من الحلوى : مشبك ، وبقلاوة ، وشكولاتة ، وهريسة ، كانت قد حملتها فى جيوبها من مائدة الغداء ، جريا على عادتها المتأصلة فيها منذ كانت بالمدرسة تلميذة ، فلما تذكرت ذلك وأن سيدة الدار لا بد أن تكون – أثناء تفتيشها الصندوق – قد أبصرت تلك النفائس المكنوزة وأبرزتها لأبصار المتفرجين من وصائف البيت وخادماته ، أصابها من مضض الخجل وغضاضة الخزى ما أصابها ، فانفطر قلبها حزنا ، وذابت كبدها أسى وشجنا وألح على فؤادها الخفقان وسرى منه إلى أحشائها وأمعائها وسائر جوارحها وأوصالها ، حتى كاد أن يغمى عليها . ونادتها الخادمة :

– هلمى إلى مائدة الغداء ...

– أأذهب أم لا ؟ ..

ورجلت شعرها ومسحت آثار الدموع من محياها ، ومضت إلى غرفة الطعام ، فألفت الأسرة حول الخوان ... سيدة الدار في الصدر وعلى الجانبين الضيوف والأولاد ، وكان السكون مخيما على الجميع كأن على رؤوسهم الطير ، وكأنهم فى جنازة .

وافتتحت السيدة الكلام ، فالتفتت إلى خادم المائدة وسألته قائلة :

– ماذا عندك من الألوان الآن ؟

فأجاب الخادم :

– سمك مقلى :

فبادر زوجها « نيقولا سرجتش » وقد لحقته حيرة واضطراب ، قائلا :

–لامؤاخذة يا حبيبتى ، أنا الذى أوصيت بهذا الصنف ، إنى مولع بالسمك المقلى كما تعلمين ، وعلى أية حال ، فإن كنت لا تشتهينه فلست بآكله فليردوه وليأتوا بما شئت من الألوان بدله ، لقد كانت منى هفوة فسامحينى ...

وكانت السيدة فيدوسيا لا تحب من الألوان إلا ما تكون هى نفسها قد أمرت به ، فعز عليها ذلك وساءها حتى اغرورقت عيناها .

فتدخل طبيب الأسرة ماميكوف فقال لها بصوت معسول تشفعه ابتسامة معسولة :

– لا بأس عليك سيدتى لا تأسى ولا تحزنى ، فحسبنا ما نحن فيه من قلق وكدر ، واطرحى الهموم ، وانسى مسألة المشط ، فكل ما فى الدنيا من أمشاط فداء لأدنى شعرة من ضفائرك الغالية ، واذكرى أن صحتك أنفس بكثير من ثلاثة آلاف روبل :

فأجابت السيدة وتحدرت على وجنتها دمعة كبيرة :

– ليس أسفى على الثلاثة الآلاف ، ولكن على الحادثة ذاتها ، أنا لا أطيق بقاء اللصوص فى منزلى ، لا يهمنى المال ، ولكن الغدر والخيانة ونكران الجميل تسوءنى وتؤلمنى .

فأطرق الكل ينظرون فى صحونهم ، ولكن ماشنكا خيل إليها أنهم إليها ينظرون ، فنشبت فى حلقها غصة ، وشرعت تبكى ، وقد وضعت منديلها على شفتيها . وقالت بصوت خافت :

– لا أستطيع البقاء لحظة أخرى ، عن إذنكم إن بى صداعا ، إنى ذاهبة .

ثم نهضت من مكانها وانطلقت مسرعة تتعثر حيرة واضطرابا .

عند ذلك عبس سيد الدار نيقولا وقال :

– هذا والله ما لا يطاق البتة ! أكان يليق بنا تفتيش غرفة الفتاة ؟ أية حاجة كانت تحدونا إلى اقتراف ذلك المنكر ! ..

فأجابت زوجته فيدوسيا :

– لا أزعم أنها سرقت المشط ، ولكن هل تستطيع أن تحتمل عنها مسئولية ذلك ؟ الحق يقال إنى ضعيفة الثقة بأولئك الشحاذات الأديبات العالمات .

– والحق يقال إنها كانت منا خطيئة عظمى ، معذرة يا حبيبتى فيدوسيا ، ولكنى أقول إنه لم يكن لك أدنى حق قانونى فى تفتيش غرفتها .

– دعنى من قوانينك وشرائعك ! وكل ما أعرف هو أنى فقدت مشطى ولا بد أن أجد مشطى ! ..

وأنزلت الشوكة على الصحن بصدمة هائلة زلزلت أركان المائدة ، واستطار شرر الغضب فى مقلتيها : « التفت إلى وأنصت إلى ما أقول . لا شأن لك ولا دخل فى أدنى شىء من هذا ، وكل ما عليك هو أن تأكل طعامك فى سكوت ، ثم لا تتدخل فيما لا يعنيك ! »

فنكس المسكين نيقولا عينيه وغض من بصره ، وتنفس الصعداء ، وخشع واستكان كأذل ما يكون العبد الذليل .

وفى هذه الأثناء كانت ماشنكا قد بلغت غرفتها فقذفت بنفسها على الفراش ، لم تشعر إذ ذاك بما كان يتملكها قبل من الخوف والخجل ، وإنما شعرت برغبة شديدة فى الذهاب إلى تلك المرأة القاسية الجافية ، البليدة الغبية ، ثم تبصق فى وجهها وتلطمها لطمة تنثر صف أسنانها . وكذلك لبثت منطرحة على فراشها

ترسل زفراتها الحارة فى ثنايا وسادتها ، وجعلت تتمنى لو يمكنها الله فى الحال من أن تذهب فتشترى أغلى مشط فى سوق الصاغة ثم تقذف به فى وجه تلك المرأة الوقحة ، وتتمنى لو ينزل الله البؤس والفاقة بتلك الشريرة الساقطة فتمشى فى الشوارع شحاذة تتسول ، ثم تصادفها ماشنكا ، فتذكرها بما كان منها من هذه المساءة والمهانة وتكافئها على ذلك بإعطائها حسنة ، وثوبا قديما ورغيفا . واها ! واها ! وأما لو من الله عليها بثروة طائلة ! إذن لاشترت مركبة فخمة ، ومرت عليها بضوضاء « وكركبة » تحت نوافذ هذا البيت حتى تقتل هذه المرأة الفاجرة حسدا وغما !

ولكن هذه كلها كانت أحلاما ، أما الواقع فإنه لم يكن أمامها من حيلة إلا مغادرة المنزل فى الحال ، فوثبت من فراشها ، وشرعت فى جمع أمتعتها وأدواتها .

— أتسمحين لى بالدخول ؟ .. كذلك قال رب البيت نيقولا سرجتش وكان بباب الحجرة واقفا ، وكرر سؤاله بصوت خاشع ونغمة حزينة .

— أتسمحين لى ؟ ..

— ادخل ...

فدخل ووقف مطرقا محزونا قرب الباب وكانت عيناه نديتين وأنفه الأحمر الصغير يلمع وكان من عادته شرب البيرة عقب الغداء وقد تبين ذلك فى مشيته وفى يديه المسترخيتين الواهنتين .

وقال وأشار إلى السلة :

— ما هذا ؟

— إنى أجمع أمتعتى معذرة يا سيدى ، إنى لا أطيق البقاء فى دارك .

— إنى أفهم ما تقولين .. ولكنك مخطئة .. لماذا تذهبين ، لقد فتشوا غرفتك ، ولكن أى ضرر عليك فى ذلك ؟ ... إنه لا منقصة فيه لقدرك ولا غضاضة .

سكتت الفتاة واستمرت على جمع أدواتها وجعل نيقولا ينتف شاربيه وعثنونه ، يفكر ماذا يقول لها وكيف يعتذر ثم استأنف الكلام فى اضطراب ولجاجة ...

– قد يكون لك بعض العذر ، ولكن يحسن بك أن تذكرى ما تقاسيه زوجتى من مرض الأعصاب ، فتصفحى عن زلتها ...

لم تنطق الفتاة بكلمة واسترسل نيقولا فقال :

– إن كان قد ساءك ما جنت زوجتى ، فإنى أعتذر إليك ، إنى أسألك العفو والمغفرة .

لم تجب ماشنكا ، واستحثت همتها فى جمع أدواتها ، وما قيمة اعتذار هذا الرجل المستضعف المحتقر فى داره ، الذليل الخاضع المهين ، الذى لا قدر له ولا خطر حتى لدى الخدم ؟

وتمادى فى مقاله ...

– إحم ! ... أراك لا تجيبين ، أليس يكفيك اعتذارى إذن فإنى أعتذر إليك عن زوجتى ، إنى أستميحك العفو باسم زوجتى ، لقد أذنبت إليك وارتكبت فى حقك منكرا ، وإنى باعتبارى رجلا شريفا أعترف لك بذلك .

ثم جال بالغرفة جولة وتنفس الصعداء وقال :

– أراك تريدين أن لا يزال هذا الجرح يدمى تحت جوانحى ، وتلك الجذوة تشتعل فى كبدى ... وأن لا أبرح من لذع الضمير فى ألم مضاض وحرقة كاوية .

قالت ما شنكا :

– قد أعلم أنه لا جناح عليك فيما جرى ، وأنك منه برىء فلماذا تعذب نفسك ؟

قالت له ذلك ودمعها بين متحير ومتحدر ...

فأجاب الرجل قائلا :

– إنى على أية حال أبتهل إليك ضارعا أن لا تفارقينا ...

ولكن ماشنكا هزت رأسها إباء ورفضا ...

ووقف الرجل لدى النافذة ، وجعل ينقر على زجاجها بأنامله وقال :

– إن عنادك هذا يكاد يقتلنى ، أتريدين أن أخر راكعا إليك ، أم ماذا ؟ .. تقولين إن كرامتك قد خدشت ، أأنت وحدك ذات كرامة ، وأنا لا كرامة لى

ولا عزة ولا شعور ! إنك تملئين الدنيا صياحا إن مست كرامتك ، ثم أراك تدوسين كرامتى بنعليك ولا تبالين ، أفأنت ذات شعور ، وأنا صخرة صماء ! أم تريدين أن أعترف إليك بما لا أعترف به إلا إلى القسيس ساعة الوفاة ! .. أما وقد أبيت إلا ذاك فاسمعى أحدثك ، وأصغى أعترف إليك ...

لم تحر الفتاة جوابا ... وقال نيقولا سرجتش :

– أنا الذى سرقت المشط ... أيكفيك هذا ؟ أيسرك هذا ويرضيك ؟ أجل ، أنا ... أنا الذى أخذته ، ولكن إياك أن تبوحى بهذا السر لإنسان أيا كان ، إنى أثق بمروءتك وشرفك ، آليت عليك بالذى خلقك فسواك لا أفشيت هذا السر ولا بحت به لأحد ! ...

فدهشت ماشنكا لذاك وارتاعت ، وما زادها هذا الاعتراف العجيب إلا إسراعا فى جمع أدواتها ، فأقبلت تلتقطها من ههنا وههنا وتختطفها وتنتزعها وتلفها تطويها بلا تؤدة ولا أناة ولا عناية كيفما كان ، وتقذف بها أيان كان ، فى السلة أو فى الصندوق أو فى الحقيبة .

واستمر نيقولا سرجتش فى اعترافه ، قال :

ـ ولا عجب ولا غرابة فيما أتيت من اختلاس ذلك المشط ، وما هو بالأمر البديع ولا المستنكر ، وإنما هو مالا يزال يحدث كل يوم فى كل دار ومنزل ، والأمر وما فيه ، أنى أريد الدراهم وهى تأباها علىّ ، وتمنعها عنى ، على أن المال مال أبى ، والعقار عقار أبى ، والضياع ضياع أبى ، وليس لها فى هذه الثروة الواسعة شىء البتة ، وإنما كل شىء ملكى بحق الميراث شرعا وقانونا ، أجل كل شىء ملكى ، وهذا المشط الذى سرقته اليوم هو أيضا ملكى ، وكان ملكا لأمى من قبلى ، ولكنها أخذته كما أخذت كل شىء سواه ، لقد ابتلعت كل شىء وابتلعتنى فيما ابتلعت ، وماذا أصنع ؟ أخاصمها إلى الحكام ، وأذهب معها إلى القضاء ؟ ذلك مالا أستطيعه بحال ، لذلك أرجوك أن تضربى صفحا عما كان ، وعفا الله عما سلف . أرجوك ، وأبتهل إليك وأتضرع أن لا تفارقينا ، خبرينى ، أتبقين معنا ؟

قال ماشنكا :

– كلا ! وعرتها رعدة شديدة – كلا وألف كلا ! .. دعنى وشأنى ، أرجوك ، أرجوك ! ..

فقال نيقولا متنهدا :

– الأمر لله بارك الله فيك وعليك ، وأصحبك السلامة فى حلك وترحالك وكذلك قد أبيت إلا رحيلا ، إني أفهم ... إنى أفهم ، لا حيلة لك سوى هذا ، وأراك من ذلك الصنف الذى يأبى الضيم ولا يحتمل الهوان ... هنيئا لك لقد فزت ونجوت ... أما أنا فقد كتب على أن أظل ههنا فى نار الجحيم حتى أموت فأقبر ، ويلي ... ثم ويلى ! ...

وهنا سمع نداء زوجته من غرفة الجلوس تصيح :

– نيقولا ! نيقولا ! ليزا .. نادى سيدك ...

وكان نيقولا قد جلس على مقعد يستريح من طول الوقوف ، فنهض فى الحال ، وأسرع نحو الباب ، ثم التفت إلى ماشنكا وقال :

– وكذلك قد أبيت إلا الذهاب ، ليتك تبقين معنا ، لقد كنت خير سمير لى ومؤنس وكنت أقصر ليل الشتاء بحلاوة حديثك وأدفع غاشية الملل والسآمة بجميل عشرتك . ويلى ، ثم ويلى، ليتك تبقين ههنا ، ولئن ذهبت ، لم يبق فى هذه الدار وجه آدمى ، بل تكون بمربض من الوحوش الضاريات أشبه منها بمساكن البشر ، ما أمر العيش ههنا ، وما أبشع الحياة ؟

وكذلك فارق الرجل الفتاة موجع القلب دامع العين ، ومضى إلى زوجته ... وبعد نصف ساعة غادرت الفتاة الدار إلى الأبد ...

أحبك

للقصصي الروسي أنطون تشيكوف

كنت واقفا والفتاة « نادنكا » – وهى متعلقة بذراعى – على قمة تل عال يمتد من تحت أقدامنا إلى الحضيض منحدره ، مغشى بطبقة من الثلج يتجلى منها قرص الشمس على مثل المرآة المصقولة ، وإلى جانبنا مزلقة (مركبة للانزلاق فوق الثلج) مبطنة بالقطيفة الحمراء ، وكنا فى نهار مشرق فى كبد الشتاء .

قلت لها : هلم ننحدر إلى الحضيض يا « نادنكا » مرة واحدة ليس إلا ! لا تخافى فلن يصيبنا شىء .

ولكن الفتاة كانت تخاف الهبوط ، لقد بدا لها ذلك المنحدر المتثلج مخوفا هائلا خطر المزلة ، كأنه المهواة السحيقة القاتمة الأعماق ، لقد خانتها قواها ، وحبست أنفاسها وهى تشرف من ذروته الشاهقة إلى الحضيض الأوهد ، لقد خيل إليها أن اندفاعها فى تلك الهاوية سيقذف بها إما إلى الموت أو إلى الجنون !

وقلت لها : إنى أرجوك مبتهلا ألا تخافى ! واربئى بنفسك أن يقال منخوبة الفؤاد ترعابة .

واستسلمت الفتاة أخيرا ، ولكن على مضض ، وإن قامتها الهيفاء لتنتفض فى قبضة الروع كالقناة فى يد الفارس ، وأجلستها على المزلقة صفراء ترتعد وطوقتها بذراعى ، وقذفت بها وبنفسى فى أعماق الهاوية ...

وهوت بنا المزلقة كالشهاب المنقض والسهم المارق ، تشق جلابيب الهواء والريح تضرب وجهينا بسياطها اللذاعة وتقصف من حولنا وتزمجر كأنما تحاول انتزاع رأسينا من بين أكتافنا وكان يشق علينا التنفس لفرط ضغط الريح ، وكأنما الشيطان الرجيم نفسه قد أنشب فينا أظافره يطيح بنا صارخا إلى جهنم ، وكأننا أصبحنا من الهلاك المحتم قاب قوسين أو أدنى .

وفى وسط هذه العاصفة الثائرة قلت للفتاة بصوت خافت :

– نادنكا ... إنى أحبك !

وهنا بدأت سرعة المركبة تقل شيئا فشيئا ، ودفعتها العنيفة العسافة تتراخى ، وزئير الريح وصرير العجلات يتناقص هوله وشناعته ، وهان علينا التنفس ، وما لبثنا أن بلغنا الحضيض ، والفتاة بحال أقرب إلى الموت منها إلى الحياة ... وحملتها من المزلقة فأفرشتها أديم الثرى . ورمقتنى بعينين نجلاوين خالط السحر فيهما الوله ، وما زج الرعب الحور ، وقالت :

– ما كنت لأعيد الكرة ولو أن لى ما بين الخافقين ، لقد كدت والله أن أهلك .

وبعد هنيهة أفاقت ونظرت إلى كالمستفسرة وكأن ألحاظها الفاترة المريضة تسائلنى هل نطق فمى حقا بتلك اللفظة الساحرة « إنى أحبك » أم كان ذلك خيالا أثارته ضجة الريح فى مصورتها ووهما ؟ ..

وإزاء عينيها المتسائلتين ألزمت نفسى الصمت والإطراق أدمن النظر إلى قفازتى .

وأخذت بذراعى ولبثنا برهة طويلة نسير إلى جانب التل المثلج ، وكان ذلك اللغز العويص الخفى قد حيرها ، وشغلها وأقلقها ... أحقا صدرت منى تلك الكلمة « إنى أحبك » أم لم تصدر ؟ .. نعم أو لا ... نعم أو لا ؟ على تلك اللفظة الموجزة تعلقت كرامتها وعزتها وشرفها وحياتها ... تلك لعمرك مسألة خطيرة ... بل أخطر مسائل الحياة ... واستمرت « نادنكا » تديم نحوى كرة الطرف بنظرة حيرى مولهة ملؤها الحزن والإشفاق والرجاء واليأس والقلق ، وجعلت لا تبالى بما كنت ألقى عليها من عادى الكلام ولا تحفل وتذهل عن رد الجواب مرارا ، وكلها تطلع إلى أن تسمع منى بيانا وشرحا عما بدر منى إليها من تلك الكلمة الهائلة ، فى سبيل الله ما كان ينتابها إذ ذاك من قلق البال والبلبال ، وما توزع قلبها من الهواجس وتقسم فؤادها من الوساوس وأثر ذلك من تضارب العواطف على صفحة محياها الجميل الأغر الفاتن ! لقد كانت فى كفاح نفسانى ومعترك وجدانى ، تريد أن تسألنى سؤالا ، ولا تدرى كيف تصوغه ، وقد أعوزها

اللفظ وضاع منها الكلام واعتاص المنطق ، وكان يخامر روحها من السرور ما راعها وبهرها وأزعجها وأكربها ..

وأخيرا قالت لى دون أن تنظر إلى :

– أتدرى ما خطر لى الآن ؟

قلت لها : ماذا ؟

– نعيد الكرة ، ننحدر على التل ثانية ...

صعدنا التل على سلالمه المعدة لذلك ، وأجلست « نادنكا » على المزلقة صفراء ترتجف ، وطحنا فى المهواة المخوفة الهائلة ثانية ، وعاودت الريح زئيرها والعجلات صريرها ، ولما بلغت العاصفة أشنعها أعدت كلمتى السالفة بصوت خافت :

– نادنكا ... إنى أحبك !

حتى إذا استقرت المزلقة بالحضيض نظرت الفتاة فى وجهى نظرة طويلة ، وأصغت إلى صوتى ولم يكن به أدنى أثر من الشعور والعاطفة ، وكان يبدو على شخصها الغض الرقيق وعلى كل جارحة منه بل على ذيل ردائها ونطاقها وقناعها أوضح آيات الاضطراب والقلق والحيرة ، وكأنما قد نقش على صفحة وجهها بأسطر من لهب « ما معنى هذا وما فحواه ؟ .. ومن ذا الذى فاه بهذه ؟ الكلمة ، أهو الذى قالها أم خيل إلى ؟ ؟ »

لشد ما ساءها ذلك الشك والارتياب ، وآلمها ذلك الغموض والإبهام ، لقد أعرضت عن حديثى وأمسكت عن إجابتى ، ثم عبست واغرورقت بالدموع عيناها .

قلت لها :

– أما يحسن بنا أن نعود إلى البيت ؟

فقالت وتورد وجهها خجلا :

– أنا .. أنا أحب هذا الانحدار على الثلج .. هل لك فى انحدارة أخرى ؟

تقول إنها تحب الانحدار فوق الثلج ، على أنها ما كادت تستقر بالمزلقة حتى عراها من الرجفة والاصفرار ما عراها من قبل ، وسلبها الرعب أنفاسها .

وهوينا للمرة الثالثة ، ورأيتها تحدد النظر فى وجهى ترقب شفتى ، هل تتحركان بلفظ ، ولكنى غطيت فمى بمنديلى ، وأخذت أسعل ، ولما توسطنا المسافة تمكنت من النطق بالكلمة المعهودة :

– نادنكا ... إنى أحبك !

* * *

مسكينة نادنكا ، لقد بقى ذلك اللغز لغزا ، لقد استحال عليها حله ، فاستسلمت لقضاء الله وصمتت ، ثم أطرقت تفكر ، وشيعتها إلى دارها ، وحاولت أن تسير الهوينا تراخى من خطواتها ما استطاعت وترقب منى أن أفوه بالكلمة الخطيرة مرة أخرى ، وإنى لأنظر إلى روحها تكابد العذاب الأنكل ، وكأنها تناجى نفسها قائلة :

– مستبعد من الريح أن تكون الريح هى الناطقة بتلك الكلمة ، وليس بودى أن تكون الريح هى التى بها نطقت ، وأخشى أنه لم يفه بها ولم يلفظ.

وفى غداة الغد جاءتنى منها هذه الرقعة :

« إن كنت منحدرا اليوم فوافنى ــ ن »

ومنذ ذاك واصلنا الانحدار كل يوم وفى كل مرة كنت أهمس إليها بتلك الكلمة :

– نادنكا ... إنى أحبك !

* * *

لم تلبث الفتاة أن ولعت بسماع تلك الكلمة ولع البعض بالكحول والأفيون والمورفين ، فأصبحت لا تطيق الحياة من دونها ، لا أنكر أن رعبها من تلك الحركة لم ينقصه التكرار مثقال ذرة ، ولكن هذا الرعب كان يضيف عنصرا عجيبا من اللذة والعذوبة إلى تلك اللفظة الغرامية التى ما برحت لغزا غامضا وسرا خفيا ، ينتحي روح الفتاة باللوعة والحرقة ، واستمرت توجه التهمة إلى اثنين : أنا والريح .. لقد أعيي عليها أن تعرف أى الاثنين كان يصارحها الحب ويطارحها الهوى ، على أنه لم يعد يهمها ذلك ، ولا جرم فنحن لا يهمنا من أى كأس نشرب ، مادام الشراب مسكرا .

واتفق ذات يوم أنى ذهبت منفردا إلى التل المتثلج فاختلطت بالزحام . وإذا بالفتاة تعمد إلى السلم ، وقد ملكها الرعب لانفرادها ، لقد استحال وجهها كالثلج بياضا ، وكانت ترعد وتنتفض ، ثم صعدت فى السلم ، وكأنما تصعد إلى المشنقة ، ولكنها مضت قدما ، لا تلتفت وراءها وكأنما قد عقدت نيتها وأبرمت عزمها ، وأصرت على أن تستطلع خبيئة الأمر فتنزلق على جانب التل منفردة لتستبين هل تطرق سمعها تلك اللفظة المستعذبة المستلذة فى غيبتى ، لقد رأيتها صفراء شاحبة مفترة الشفتين رهبة وفزعا ، ثم رأيتها تمتطى المزلقة وتغمض أجفانها وتودع الحياة الدنيا إلى الأبد ، ثم تقذف بنفسها فى الهاوية ، وصرت العجلات وجلجلت ... ولست أدرى هل سمعت الفتاة فى انحدارها تلك اللفظة المعسولة ولا أستطيع أن أدرى ، وكل ما أعرف هو أنها نهضت من المزلقة عندما استقرت مكدودة منهوكة القوى ، تدلك شواهد الشك والحيرة المرتسمة بوجهها على أنها لا تدرى هل طرقت أذنها تلك الكلمة الخطيرة أم لم تطرق .

... ولعل فرط هلعها أثناء الانحدار قد سلبها حاسة السمع ، وتمييز الأصوات وملكة الفهم والإدراك .

* * *

وأخيرا جاء الربيع بدفئه وإشراقه وذاب الثلج فانقشع ، وانصرف الناس عن تلك اللعبة ، ولم يبق فى هذه الدنيا العريضة مكان تؤمل الفتاة المسكينة أن تسمع منه تلك الكلمة الموسيقية .

... ولم يبق من أحد يقولها ، إذ لم تكن ثمت ريح ، وكنت أنا قد أزمعت إلى « بطرسبرج » رحلة لعلها بلا رجعة .

واتفق قبل رحلتى بيومين أنى كنت جالسا إبان الشفق الأخير فى البستان الواقع وراء ساحة دار الفتاة ، منفصلا عنها بسياج من الأعشاب المتكاثفة الملتفة ، فذهبت إلى ذلك السياج ولبثت برهة طويلة أنظر من خلال شقوقه ، وإذا بالفتاة قد خرجت من خدرها إلى الساحة وصعدت تلقاء السماء تنظر لهفى أسيفة ... وريح الشمال تهب على وجهها الأصفر المحزون ، تذكرها بتلك الريح التى كانت تصرخ حولنا على تلك الثلج حينما كانت تسمع تلك اللفظ لفتانة .

... لشد ما أحزنتها تلك الذكرى ، فزادت فى صفرة وجهها وشحوبه ، وأجرت على خدها الأسيل دمعة فريدة ... ورأيت الصبية المسكينة تمد ذراعيها إلى الريح خاشعة ، مبتهلة ضارعة ، كأنها تسأل الريح أن تجود عليها بتلك اللفظة المشتهاة مرة أخرى .

... وانتظرت أنا هبوب الريح ، حتى إذا تحركت لفظت بالكلمة المعهودة فى خفوت فحملتها إليها الريح :

– نادنكا ... إنى أحبك !

رحماك اللهم وحنانك ! ما كان أشد وقع تلك الكلمة على الفتاة وتأثيرها ، لقد صاحت صيحة عالية ، وبرقت أساريرها وتهلل محياها وأومض ثغرها وتألقت حسنا وتوهجت جمالا واشرأبت منشورة الذراعين لتعانق الريح .

* * *

وعلى أثر ذلك ذهبت لآخذ الأهبة للسفر ...

لقد مضى على ذلك العهد حقب وأزمان ، وصاحبتى نادنكا اليوم ربة أسرة وأم بنين ..

... لقد زوجت – مكرهة أو مختارة – من رجل موظف ، باشكاتب ، أولدها خمسة صبية ، ولكنها لم تنس ما كان من لعبة الثلج ، ولا ما كانت تسر إليها به الريح من ذلك اللفظ الشجى الرخيم ، ولعل هذه الذكرى لا تزال عندها أمتع حسنات الدهر ، وأطيب ثمرات الزمان .. والآن وقد كبرت واكتهلت ، وأخذت من الحنكة والتجربة بالقسط الجزيل والسهم الوافر ، لست أدرى ولا أستطيع أن أدرى ما الذى حملنى على أن أنطق للفتاة بتلك الكلمة !! اللهم إلا أن يكون طيش الشباب ونزقه . !!

البؤس

للقصصى الروسى أنطون تشيكوف

« سيدى وولى نعمتى المبجل » ... بهذه العبارة افتتح موظف صغير « نيفرازيموف » رسالة تهنئة بعيد النيروز ، كان ينوى إرسالها إلى رئيس المصلحة ، أعاده الله وأمثاله أبد الآبدين عليكم وعلى أنجالكم بالخير العميم فى ظلال الرفاهية والصفاء ...

وكان المصباح الذى يكتب فى ضوئه ، يتضاءل شعاعه ويتكاثر دخانه وتفوح رائحته ، وقد كاد ينفد زيته ، وعلى أرجاء المائدة صرصار شارد يتوثب ويتنزى ، وبواب المصلحة « بارامون » ينظف حذاءه الجديد بالغرفة المجاورة ويصقله ، وبه من شدة الطرب وفرط نشاط الفرح ما ترك الفرشة يرن صوتها ويدوى صداها فى كافة حجرات المكان .

قال الشاب الفقير « نيفرازيموف » ، ورفع ناظريه إلى سقف الغرفة القذر متحيرا :

– ماذا أكتب فى تهنئة المجرم الأثيم (يعنى رئيسه) بعد ذلك ، ويل له وألف ويل !

وأبصر بالسقف دائرة مظلمة – ظل المصباح – ومن تحت ذلك الظل الجدار قذرا ملوثا ، وبدت له الحجرة تخيم على أرجائها الوحشة والكآبة والبؤس والنحس ، فامتلأ قلبه أسفا على نفسه – وعلى زميله الوحيد فى وحشته وكربه – الصرصار ...

وناجى نفسه قائلا :

سأبرح هذه الغرفة متى انتهت ساعات النوبتجية ، ولكن زميلى المسكين يستمر نوبتجيا ههنا طول مدة حياته الصرصارية .

ثم تثاءب وتمطى وقال : لقد ضاقت على الأرض بما رحبت ، وسئمت الحياة ! أأذهب أنا أيضا فأنظف حذائى ؟

ثم تثاءب ثانية وتمطى ، ومضى مسترخى الأوصال متخاذل الأعضاء ، حتى وقف على البواب « بارامون » وكان قد فرغ من تنظيف حذائه .

وقال البواب للكاتب :

– لقد بدأ دق النواقيس ! ألا تسمع ؟

ولم يعد الحقيقة ، لقد انثال عليهما رنين النواقيس من نوافذ المكان مشفوعا بنفحات من هواء الربيع الطلق ، وامتزج ذلك الرنين بصرير العجلات وصليل المركبات ، ومن فوق هذه وتلك ارتفعت ضحكات الجماهير .

وقال « نيفرازيموف » متنهدا وأطل على الشارع ينظر أشباح الرجال تتسابق تحت ضياء مصابيح الزينة :

– ما أكثر هذه الجموع والأفواج ، إنهم مسرعون إلى الكنيسة ، لقد ملأ إخواننا وزملاؤنا بطونهم من طيبات المطاعم والمشارب ، وهم الآن يجوسون خلال الشوارع طربى سكارى ترنح الراح أعطافهم وتخالط رؤوسهم ، وما أشد سرورهم الساعة وما أعلى صياحهم وضحكهم .. وأنا من دونهم التعس الشقى المنحوس ، أجلس وحدى منفردا فى هذا المكان المظلم المشؤوم كالسجين فى حبسه .. وفى مثل هذه الليلة الطيبة المباركة التى جعلها الله عيدا للأمير والسوقة والثرى والشحاذ ، وهذه حالتى كل عام ! .. تفو ! ..

فأجابه البواب قائلا :

– لا أحد يرغمك على هذا ، أنت تفعله بمحض اختيارك ، وليس دور النوبتجية عليك الليلة ، ولكنك قد استؤجرت بالدراهم لتبقى ههنا بدل الذى أستأجرك ، إنك طماع جشع !

– فض الله فاك ! ليس الطمع وإنما الحاجة ألجأتنى إلى ذلك ، وما أخذت والله إلا روبلين اثنين ، ثمن منديل أو جورب .. إنما هى الحاجة والبؤس والفاقة ... روبلان ليس إلا ... حرمت من أجلهما لذة الحرية والاستمتاع بهذا العيد السعيد ،

واللهو والمرح وشهي الطعام والشراب .. وسمت نفسي الكرب وسوء العذاب ، وحرمتها لذة الجلوس إلى زق النبيذ والكئوس وفتاة :

هي أشهى إليّ من سنة النوم وأحلى من مفرحات الأماني

أغازلها وأجمشها بين النحر والترائب ، وأشعر - أني فتى الفتيان ، وبديع هذا الزمان .. لا يبعد الله غيري ، لقد طاش سهمي ، وغار نجمي ، ولم يوفقني الله إلا إلى الخيبة والخسران ! ... انظر إلى هذه الفاجرة تشق بها سيارتها الجموع كأنها بلقيس على عرشها ، وأنا ههنا مدفون في هذا الجحر المظلم أقتل نفسي حسرة وغما !

- لن تأخذ من الدنيا إلا حظك ، قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ، والدنيا سجال يوم لك ويوم عليك ، لا تقنط من رحمة الله ، سيجيئك يومك فتركب أنت أيضا سيارتك يوم تنال من درجات الرقي ما تطمح إليه .

- أنا ! .. كلا يا أخي .. لن أبلغ ذاك ولو اجتهدت حتى فرقعت ... تلك المناصب والدرجات موقوفة على أهلها من ذوي الشهادات والكفاءات .. وأنا لست في العير ولا في النفير ، وحسب أولياء الأمور أن يبقوا على فلا يرفتوني :

ولست بسائل الأعراب شيئا حمدت الله إذ لم يأكلوني

- لم تصب في مقالك هذا ، ألم تر إلى رئيسنا المدير ، كيف قد بلغ هذا المنصب بلا شهادات ولا كفاءات .. وهو على الرغم من ذلك ...

- ولكن رئيسنا المدير قد وفق إلى سرقة مائة ألف قبل تمكنه من بلوغ هذا المنصب ، هذا ولقد منحه الله من أساليب المكر والدهاء وسعة التدبير والحيلة خلاف حسن الشكل والمنظر والجهارة والفخامة ما أنا منه براء ، وأنا أعرف أن شكلي وهيئتي وأخلاقي لا تستطيع أن تقربني من النجاح قيد أنملة ، هذا إلى بشاعة اسمي ، قبحه الله من اسم « نيفرازيموف » مثل هذا الاسم كفيل والله أن يصعد بحامله إلى المشنقة ، والأسماء - أصلحك الله - منها نعمة ومنها نقمة .. فلا تخدعني يا صاحبي ، أنا يائس من كل خير ، هذه قسمتي لا مفر منها ولا موئل ، اللهم إلا الانتحار ..

ثم انثنى عن النافذة وطفق يجول في الحجرات محزونا كئيبا ، واشتدت

جلجلة النواقيس وعلا رنينها .. لم يكن به حاجة إلى سماع تلك الأنغام لقد كانت تهيج أحزانه ، وتثير أشجانه ، ولقد كان كلما ازداد رنينها ارتفاعا ازدادت الحجرات فى عينه ظلاما ، والجدران سوادا ، والمصباح دخانا ، والدنيا بأسرها حرجا وضيقا ...

وقال « نيفرازيموف » فى نفسه :

– أأترك المكتب وأمضى ؟ ويفعل الله ما يشاء !

ولكنه تأمل فوجد أن الفرار على هذه الصورة لن يعود عليه بأدنى ثمرة .. وماذا يجدى عليه الخروج من المكتب والتجول عبثا بلا قصد فى الشوارع وليس معه درهم واحد ، ثم الذهاب بعد ذلك إلى داره ، وإنها لأقفر من المكتب وأشد وحشة وشؤما ... وهب أنه أستطاع أن يقضى العيد فى غبطة ومسرة ، فماذا بعد ذلك ؟ لا شىء ! .. لا شىء سوى الكد بلا راحة والشقاء بلا نعمى ، والعناء بلا ثمرة ، واليأس بلا أمل ، والفقر والبلاء الدائم !

وقف « نيفرازيموف » مسلوب الحركة وسط المكتب مطرقا يفكر ، وجعل يتلهف على حياة أطيب مما هو فيه وألين ، تلهفا تتوقد جمراته على كبده ، وتقدح فى أحشائه ، لقد جعل يتمنى – بجدع الأنف – لو يجد نفسه بغتة فى الشوارع بين تلك الجموع المزدحمة فيمتزج بها ويضرب بسهم فى مسرات ذاك العيد الذى من أجله تدق هذى النواقيس وترتفع تلك الضوضاء والضجة ، لقد تلهف على عهد الطفولة ومناعمها .. وعلى حلقة الأسرة حول موقد الصلاء ، وعلى تلك الوجوه الناضرة المشرقة ، وعلى المائدة الحافلة ، والضياء والدفء .. ثم أقبل يفكر فى تلك الفاجرة التى مرت تحت عينه آنفا على سيارتها الفاخرة ، وفى الكسوة الجديدة التى أبصر الباشكاتب يرفل فيها آنفا ويختال ، وفى السلسلة الذهبية التى ازدان بها صدر السكرتير إذ يمر من تحت النافذة .. وتمادى يفكر .. ثم يفكر .. يفكر فى العيش الرغد والرخاء والخفض .. فى فراش دفىء ، وطعام مرىء ، وشراب هنىء ، .. فى حذاء جديد ، غير مرقع .. وفى رداء ليس فيه خروق ... لقد ظل يفكر فى كل هذه الأشياء لأنه كان منها مجردا ! ..

ثم قال فى نفسه :

– أسرق ! أكون لصا ! وهبنى رضيت ذلك لنفسى ، فكيف أبدأ ؟ لا أرانى فى هذا الفن ماهرا ، ويخيل إلى أن السرقة من أصعب الصناعات والفنون ، وعلى فرض أن الحظ ساعدنى وسرقت شيئا ، فأين أخفيه وأستره ؟ .. لقد سمعت عن بعض اللصوص أنهم يهربون بمسروقاتهم إلى أمريكا ، فعلى فرض أنى أردت أن أحذو حذو هؤلاء ، فكيف أذهب مثلهم إلى أمريكا ، ولست – أعرف أين هى .. يمين الله لا أنا لا أدرى – ولا المنجم يدرى – أين أمريكا هذه ! أفأذهب فى الشوارع أسأل الناس أين تكون تلك المسماة أمريكا ؟ . وهل أنا واثق أنهم ينبؤوننى إن سألتهم ؟ إن أمريكا هذه ليس يعرف طريقها إلا من تعلم فى المدارس .. فيظهر لى أن التعليم ضرورى حتى لمن أراد أن يكون لصا .. !

خفتت أصوات النواقيس ، ولم يصل إلى مسمع الفتى سوى مضمحل ضوضاء المركبات من أقصى مدى ، وسعال البواب « بارامون » فى حجرته ، وازداد به كربه وغمه حتى بلغت الروح التراقى ، ودقت الساعة اثنتى عشرة .

– ماذا أصنع ؟ أكتب تقريرا سريا عن الجمعيات السياسية وأرفعه إلى رؤساء الحكومة .. لقد صنع ذلك « بروشكين » وكان كاتبا حقيرا مثلى فنال به منصبا كبيرا .

وجلس « نيفرازيموف » إلى مكتبه وظل يفكر ، وكان الزيت قد نضب فى المصباح ، فتكاثف دخانه ، وآذن أن ينطفىء ، وكان الصرصار الشارد لا يزال يرتكض على المكتب ويتنزى ، وقد أعياه أن يجد مستقرا .

– أجل ، إن إرسال التقارير السرية ليس من المستحيلات ، ولا يزال الناس يأتونه ... ولكن كيف يبدأ الإنسان ... وماذا يكتب ؟ وقد سمعت أن كتابة أمثال هذه التقارير تحتاج إلى مهارة ودقة ، وإلى مزيد الحذر والاحتراس والحيطة ، .. وأن أقل هفوة قد توقع الكاتب فيما لا تحمد عقباه ، وربما أوردته حتفه .. وأنا – أى مهارة عندى ؟ وأين أنا ... من الحصافة والدهاء ... ضلة لى ! .. إن أنا إلا غبى أحمق !

وبينا هو يكد قريحته يتلمس مخرجا مما هو فيه من أزمة كربه الحازبة ، وقعت عينه على الصرصار يتوثب أمامه على المكتب .

– لك الويل يا زميل البؤس ، ويا خدن النحس والشقاء ، أما آن لك أن تفارقني ، فلا بد لك من أن تعين على محن الدهر ونكباته ؟ لأرينك كيف تكون عاقبة الركض والوثوب على مكتبي ، يا أخا الشيطان !

ثم لطم الصرصار أثناء توثبه لطمة ألقته على ظهره ، وأخذ بإحدى أرجله فألقاه في المصباح ، فتأجج لهبه واضطرب ...

وكذلك سرى عن « نيفرازيموف » ونفس الله كربته !

بولينكا

للقصصي الروسي أنطون تشيكوف

الساعة الواحدة بعد الظهر ، فى دكانة من دكاكين الأقمشة « نوفوتيه دى بارى » كانت « بولينكا » آنسة بيضاء هيفاء ، واقفة تتلفت كأنما تنشد ضالة ، وبولينكا هذه ابنة خياطة ، رئيسة « ورشة » خياطة .

أسرع إلى الآنسة بولينكا غلام أسمر اللون فسألها قائلا :

– ماذا تريدين يا سيدتى ؟

– نيقولا نيموفتش أحد موظفى هذا المحل ، إن معاملتى معه دائما ..

وفى هذه الأثناء ، كان « نيقولا نيموفتش » وهو شاب رشيق أسمر ، حسن الزى أنيق الملبس ، ذو مشبك لماع فى بمباغه ، وشعر مجعد ، قد أفسح للآنسة مكانا على البنك الذى أمامه واشرأب بعنقه ينظر إليها مبتسما :

وصاح بصوت رخيم عطوف :

– أسعد الله يومك ، يا بولينكا ، ماذا عسى تريدين أن أصنع لك يا عزيزتى ؟

فعمدت إليه بولينكا قائلة :

– أسعد الله أوقاتك يا نيقولا ... لقد غدت إليك ثانيا ... أرنى ما عندك من الركامة من فضلك .

– الركامة ؟ ولأى شىء تريدينها ؟

– لتطريز جونيلة .. لتطريز حلة كاملة فى الواقع ..

– بكل ارتياح ...

ثم وضع نيقولا أصنافا عدة من الركامة أمام بولينكا ، فتنظر الفتاة إلى الأصناف نظرة دلال فاترة ، وتبدأ المساومة فيها .

ويقول نيقولا :

– لا تتشددى ، أترين أن روبلا فى المتر من هذا الصنف كثير ؟ هذا صنف فرنسى ، حرير صرف ... عندنا صنف أدنى ... أغلظ وأثقل من الحرير ، بنصف روبل فقط ، إنه أحط كثيرا من الصنف الأول بلا أدنى شك .

قالت بولينكا :

– أريد أيضا قلنسوة بأربطة حريرية ... ثم انحنت فوق الركامة ، ولأمر ما تنهدت من أعماق قلبها « وهل عندك أيضا مناطق من أعلى صنف » ؟

– نعم ...

تزداد بولينكا انحناء فوق الركامة وتنهدا ، وتقول بمنتهى اللين والرقة :

– ولماذا تركتنا بسرعة فى يوم الخميس يا نيقولا ؟

– آه ! ... إنى أعجب أشد العجب كيف فطنت إلى ذلك ، مع ما كان وقتئذ من فرط اشتغالك بذلك التلميذ أو الطالب (كما تسمونه) .. وشدة إقبالك عليه ... عجبا عجبا ... لقد خيل إلىّ إذ ذاك أنه لو شبت النار فى الغرفة أو خسفها الزلزال ، لما أحسست لفرط انشغالك بذاك الغلام ...

يتوهج وجه الفتاة خجلا وتظل واجمة ، ويغلق البياع صناديق السلع بأنامل مرتعشة ، ويظل يرصها ويرصفها واحدا فوق الآخر ، لغير ما سبب البتة ، وتتلو ذلك فترة سكوت .

وتقول بولينكا ، وترفع عينيها بهيئة المذنبة الأثيمة ، نحو البياع .

– أريد أيضا تنتنة صدر ...

– من أى صنف ؟ تنتنة الخرز هى آخر مودة ..

– وكم ثمنها ؟

– السوداء بنصف روبل ، والملونة بروبلين ونصف ، « ثم يخفض البياع صوته ، ويقول من طبقة « الأراضى » ... اسمعى يا بولينكا لن أغشى داركم منذ اليوم ...

– ولماذا ؟ ..

– لماذا ؟ .. الأمر فى غاية الوضوح والبساطة ، وكان يجب عليك أن تفطنى إليه من تلقاء ذاتك . لماذا أعذب نفسى بنفسى ؟ لماذا . . أبحث عن حتفى بظلفى ؟ أفتحسبين أنه يسرنى أن أرى ذلك التلميذ يتسلط على فؤادك ، ويملك زمام هواك ؟ إنى أبصر كل شيء وأفهم كل شيء ، وأراه منذ الخريف الأبيض ما يزال يختلف إلى داركم ويتردد ، وأراك تخرجين معه كل يوم للنزهة ، وإذا جلست إليه لا تزالين تديمين إليه النظر كأنه ليس من البشر بل من الملائكة ، أنت تعشقينه ولا ترين له فى سائر الناس ندا ولا مثيلا ، وعلى ذلك فلا ثمرة فى الجدال معك والمناقشة والسكوت خير وأولى .

تظل الفتاة « بولينكا » مطرقة واجمة ، تنقر على البنك بإصبعها ، فى ارتباك وحيرة ...

ويقول البياع :

– إنى أرى الحقيقة بعينى رأسى واضحة جلية ، ففيم أزوركم وأغشى داركم ، ولا ناقتى فيها ولا جملى ... أجيئك ، لتنبذينى فى زوايا الإهمال وتقبلى قلبا وقالبا على ذاك التلميذ ، أتحسبين أنه قد ضربت على الذلة والمسكنة ، فلا بقية عندى من عزة ولا إباء ولا كرامة ، دعينا من هذا وخبرينى ماذا تطلبين من الأصناف ؟

– لقد كلفتنى أمى أن أشترى عدة أصناف ، ولكنى نسيتها جميعا ، أريد أيضا شيئا من الريش ..

– أى صنف ؟ ...

– أجود صنف وأحدثه ...

– أحدث الأصناف الآن ، وآخر مودة ، هو ريش الطيور الحقيقى ... فإن شئت أحدث لون فذاك الأحمر ، وهو لون رمانى تشوبه صفرة .. إن فرط غرامك بذلك التلميذ قد تركتنى فى أشد الحيرة ، وتالله لا أدرى كيف تكون العاقبة ، على أنى أعلم أنها لن تكون إلا وبيلة وخيمة . أنت تعشقين الغلام ، والله وحده يعلم إلى أى محنة هذا الغرام يسوقك ..

وفى أثناء كلامه هذا ظهرت على وجهه حوالى عينيه بقع حمراء من شدة

هياج أعصابه ، وكانت يمناه تضغط بشدة على ما فى قبضتها من الريش فتسحقه سحقا ، واسترسل فى الكلام ، قال :

ــ أيخطر لك ببال أنه سيتزوجك ، أبذلك تخدعك أحاديث المنى الكاذبة ؟ أبذلك توسوس إليك النفس الأمارة بالسوء ؟ هذه وربك أضاليل أوهام ، وأضغاث أحلام ، وأولى لك أن تطرحيها . انتبهى من رقدتك ، وأفيقى من غشيتك ...

إنى أرى فريق الطلبة قد حرموا على أنفسهم الزواج ، أتحسبين أن أغراضه من ناحيتك شريفة ؟ ضلة لك ، ما أشد غرورك ! أما علمت – أنار الله بصيرتك – أن أولئك الطلبة لا يعدوننا – نحن فئة العمال والصناع آدميين مثلهم ، بل يروننا كصنف من الحيوانات والبهائم و هم لا يزورون أمثالنا من الخياطين والباعة إلا ليسخروا من جهلنا ، وليشربوا الراح على مائدتنا ، إنهم لا يجرأون على شرب المسكرات فى بيوتهم وبيوت أهل طبقتهم ومن فوقهم ... هم يخشون العذل والملال والطعن والهجاء من تلك الطبقات ، فأما نحن أهل الطبقة الدنيا ، فلا يحسبون لنا حسابا ، ولا يالون مثقال ذرة بما نتحدث به عنهم ، نحن فى نظرهم كمية مهملة ، فهم فى مجلسنا لا يحجمون على ارتكاب أية سخافة ... فلا يستبعد منهم أن يقفوا أمامنا على رؤوسهم ... لا شك ، لا شك ... أى صنف من هذا الريش تبتغين : الأحمر أم الأزرق ؟ وإذا كنت ترينه الآن يتردد عليك ويتعلق بأذيالك ، فسوف نرى كيف تكون العاقبة ، إنه متى صار محاميا أو طبيبا ذكرك بالخير على أقداح الشراب ، ويقول لندمانه « لقد كان لى حينا ما عصفورة حلوة ظريفة ، فياليت شعرى أين تكون ، وأيان طارت ! .. بل لكأنى به يقول الآن لأصحابه مفتخرا متبجحا « لله درى ، لقد اقتنصت أرنبة صغيرة ، ابنة خياطة ، وإنها والله لتكاد تموت من حبى صبابة » .

تجلس بولينكا ، وترنو من مقلة ساهية تلقاء أكداس الصناديق البيضاء ، وتقول متنهدة :

– كلا ، لن آخذ أى صنف من أصناف الريش ... إنى أخاف أن أخطىء الغرض المقصود ، فأولى لأمى أن تحضر ههنا فتختار بنفسها ما تشاء ... ولكنى

ريد ستة أمتار من القطيفة ، وعشرين زرا صدفا ، ثم تكون مثقبة ، ليكون أثبت لها في الخياطة وأمتن ..

يلف لها نيقولا القطيفة والأزرار في ورقة ، وترنو هى إليه بعين مذنبة أثيمة ، كأنها تتوقع منه أن يسترسل فى حديثه ، ولكنه يظل مطرقا صامتا ، تعبث أنامله بالمتر الخشب الذى يقيس به البضاعة .

وبعد فترة سكوت تمسح الفتاة شفتيها المصفرتين بمنديلها وتقول :

ـ لقد كدت أنسى شيئا هاما ... أزرارا لحلة صبيانية ..

– من أى صنف ؟

– نريد أن نزخرف بها حلة لابن سراة القرى ...

– متى كنت تريدينها لأحد أبناء الريف فعليك بالألوان الزاهية : هاك مجموعة منوعة من الأزرار ، أحمر ، أزرق ، خوخى ، بنفسجى ، وأحسنها السماوى المذهب ، إنه براق متألق ، إن المهذبين ذوى الأذواق السليمة يؤثرون الأسود المطفى المذهب الحافة . ولكنى لا أفهم قصدك لا أستطيع أن أفهم ما الذى تنتظرينه من هذا الشاب ؟ وماذا تتوقعين أن تكون خاتمة هذه المغازلات والخلوات ، والغدوات فى البكور والأصائل والروحات ؟ ماذا ترجين من تلك الخلطة التى لا يراد بها خير ، ولا تؤدى إلى غنم ولا سلامة .

فانحنت بولينكا فوق الأزرار ، وهمت قائلة :

– أنا والله لا أدرى ... لا أدرى ماذا طرأ على وماذا أصابنى وماذا دهانى ؟

فى هذه اللحظة أقبل رجل ضخم من موظفى المحل ، مبرم الشاربين يندفع فى مسلك ضيق من وراء « نيقولا » فزحمه بمنكبه وعصره إلى البنك وكاد يسحقه ، حتى تأوه نيقولا ، والتفت الرجل الضخم إلى ورائه مشرق الوجه براق الأسرة يخاطب سيدة تسير خلفه ، قال :

– تقدمى إلى هذا القسم يا سيدتى ، هنا مكان الملابس ، عندنا ثلاثة أصناف من « الجرسى » : سادة ، وبالخرز ، ومطرز ، أيها تريدين ؟

وفى الوقت ذاته ، مرت بجانب الفتاة بولينكا سيدة ضخمة مبدنة ، فأجابت الرجل بصوت عميق رنان ، قالت :

– أريد الصنف المطرز ، من فضلك ...

فانحنى نيقولا فوق الآنسة بولينكا ، وعلى وجهه ابتسامة مستكرهة وهمس إليها قائلا :

– تظاهرى بأنك منهمكة فى تأمل الأصناف ... وا أسفاه ! ما أشد اصفرار وجهك وشحوبه ! أمريضة أنت يا بولينكا ، أم ماذا أصابك ؟ لشد ما تغيرت ، أيقنى أنه سيهجرك عاجلا أو آجلا ، سيتخلى عنك وينفض منك يده ، كما ينفض تراب الميت ، فإن صحت أحلامك وتزوجك فلن يكون ذلك عن شوق إليك ، بل طمع فى مالك ، سينفق مهرك فى فراش داره وأثاثها وزخرفها ، ثم يوليك احتقاره وازدراءه ، ويظهر الاشمئزاز منك والضجر والتبرم أمام الملأ ، ثم يحجبك عن أبصار أصحابه وزواره بعلة أنك غير متعلمة ولا مثقفة ، ولست من خريجات المدارس ، وسيجعل اسمك بين أهله وخلانه « العروس الجبس زوجتي » وما أبعد مسافة الخلاف والتفاوت بينك وبين الطبقة التى يتقلب فيها طبيب أو محام ، ما أنت منهم ولا هم منك ، مهما تظرفت لهم وتجملت ، ومهما بالغت فى إكرامهم والاحتفاء بهم ، فستبقين فى نظرهم وعقيدتهم « ابنة الخياطة الجاهلة العامية » ...

فى هذه اللحظة يصيح امرؤ من أقصى المحل مناديا :

– نيقولا تيموفتش ! عندى هنا سيدة تريد ثلاث ياردات شريط مطرز بالمعدن ، هل عندنا منه ؟

فيلتفت نيقولا فى ناحية المنادى ويتصنع الابتسام ويصيح :

– أجل ، عندنا ... شريط بطراز من المعدن ، وصنف بالحرير ، وصنف بالتلى .

وتقول بولينكا :

– لقد نسيت شيئا هاما ، لقد كلفتنى « أولغا » أن أشترى لها ثلاث مناطق ...

ويقول لها نيقولا والحزن يلتهب فى وجهه وصوته :

– وامصيبتاه يا بولينكا ! ما بال عينيك بالدموع مغرقتان ؟ فيم البكاء يا بولينكا ؟ هلمى أحجبك عن الأبصار فى قسم المناطق ، احبسى مدامعك ، ستفضحينا يا بولينكا !

ويسرع بالفتاة وهو يتكلف ابتسامة مغتصبة ، ويتصنع الخفة والطلاقة فى حركاته ، إلى قسم المناطق ، وهنالك يخفيها عن أعين الجمهور وراء هرم شامخ من العلب والصناديق ...

– أى صنف من المناطق تريدين ... ؟ يقول ذلك بأعلى صوته ، وبعدها مباشرة يهمس إليها : امسحى دموعك » !

– أريد .. أريد .. أريد ... أريد مقاس ثمانية وأربعين سنتيمترا ... ولكن أولغا أوصتنى أن يكون مبطنا بالعا ... بالعاج الحر ... يا نيقولا ... إن لى إليك لحديثا طويلا ... تعال اليوم يا نيقولا !

– لك لى حديث طويل ؟ فى أى شىء ؟ وعن أى شىء ؟ ما بيننا منذ اليوم ما يستدعى الحديث ، لا طويله ولا قصيره ..

– إنك من بين سائر الأنام من تعنى بى وتحفل ، ومن عليه أعتمد وأعول ، وليس لى غيرك من صديق أبثه شجنى ، وأشكوه لوعتى وحزنى .

– بطانة هذه المناطق ليست من اليراع ولا من الصلب ، بل من العاج الحر .. أى شىء بيننا يحتاج إلى المحاورة والمناقشة ، أما إنه لا ثمرة فى الحديث ألبتة ، ستخرجين معه اليوم أيضا للنزهة ؟

– نعم ، س ... سأخرج معه اليوم ...

– إذن فما ثمرة الكلام ؟ ليس يجدى عليك الكلام شيئا .. أنت تحبينه أليس ذلك الواقع ؟

فهمست بولينكا مترددة الدموع من عينيها ضخاما غلاظا :

– نعم أحبه !

فهز نيقولا كتفه مضطربا واشتد اصفرار وجهه وهمهم قائلا :

– ماذا عسانا نقول بعد ذلك ؟ لا فائدة فى الكلام ، امسحى دموعك ، هذا كل ما فى الأمر ، أنا ... أنا ... أنا لا أطلب إليك شيئا .

فى هذه اللحظة يظهر رجل من موظفى المحل معروق هزيل ، يهرول نحو هرم الصناديق المختبئة وراءه الفتاة . ومعه زبون وهو يقول لزبونه :

– سأريك صنفا من الحمالات مرنا مطاطا ، لا يعوق دورة الدم ، وهو مزود بأزكى الشهادات الطبية ...

عند ذلك يقبل نيقولا على الآنسة فيغطيها بنفسه ، وإخفاء لاضطرابها واضطرابه يتكلف ابتسامة كاذبة ويخاطبها بأجهر صوته قائلا :

– عندنا صنفان من « التنتنة » يا مدام ، قطن وحرير ... فأما صنف « الشرقى » و« الإنكليزى » و «الفنسيان » و « الكروشيه » و « الترشون » فهذه كلها من القطن .. وأما « الروكو » و « السوتاش » و « الكمبراى » فهذه من الحرير ... اعملى معروف وامسحى ... اعملى معروف !

ولما رأى أن دموعها لا تزال تتفجر ، استرسل فى صياحه بصوت أعلى وأجهر :

– الصنف الاسبانيولى ، والاسلامبولى والمسكوفى و «الروكو » و «السوتاش » و « الكمبرارى » .. الشرابات .. الفنلات ، بكر خيط ، حرير ، قطن ، كتان ...

الحب

للقصصى الروسى أنطون تشيكوف

« الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ، ألا حبذا هذا السحر من ليل إبريل الناعم الغض مطلا علىّ من خلال النوافذ تناجينى كواكبه بألحاظها الفاترة الساجية .. لا أستطيع النوم .. لقد جاز بى السرور كل غاية !

إن جثمانى كله من فرعى إلى قدمى ليجيش بنوع من الشعور غامض غريب مبهم ، لا أستطيع الآن فحصه وتمحيصه ، ومالى ولتمحيصه وفحصه ؟ حسبى الآن أن ألتذ به وأستمتع ، وقبح الله البحث والتحليل وأصحابه ! .. وهل يستطيع البحث والتحليل امرؤ يرى نفسه مطاحا فى أعماق الفضاء كالكوكب المنقض ؟ ...وهل يستطيع البحث والتحليل من يبلغه فجأة أنه ربح مليونا ؟ » .

بهذه الكلمات أو شبهها افتتحت رسالتى الغرامية إلى « ساشا » آنسة فى التاسعة عشرة من عمرها ، كنت قد همت بها صبابة ووجدا ، .. لقد بدأت الرسالة خمس مرات ، وخمس مرات شطبتها ومزقتها وأعدت تحريرها ، وأنفقت فيها من الزمن مقدار ما كنت أمضيه فى تأليف كتاب أنقد ثمنه سلفا ، ولم أضع فيها كل ذلك الزمن ابتغاء إجادة أو إتقان أو تنميق أو زخرفة أو تهذيب ، ولكن لأجعل عملية التحرير هذه بلا نهاية ، فرط تلذذ بها واستعذاب ...وأى لذة — رعاك الله — هى أحلى وأعذب من جلوسك فى غرفتك الهادئة تناجى أمانيك وأحلامك ، وليل الربيع الصافى الأديم المشرق الديباجة يطل عليك من خلال نافذتك ؟ ..فيا سقى الله ذاك العهد ، ويارعى الله تلك الليلة ! لقد كنت ألمح بين السطور وجها جميلا ، وصورة فاتنة .. وخيل إلىّ كأنما يجلس معى على المائدة ويحرر مثلى رسائل غرامية أطياف ملائكية لا تقل عنى مسرة وسعادة و« عبطا » وبلاهة . وجعلت أكتب باستمرار ، وأنظر إلى يدى يجيش فى عروقها شعور مستلذ من أثر لمسة كفها ، وكلما التفت ورائى أبصرت خيال

بإطار من الفل والياسمين ، .. لقد كانت « ساشا » شيعتني بنظراتها العذبة من خلال ذلك الشباك بعد تحية الوداع ... ولما لمحت من بين الفل والياسمين عينيها النجلاوين ، أوحى إلىّ بغتة أنى فى لجة الغرام راسب ، وتمثلت قول القائل :

اليوم جاز بى الهوى مقداره   فى أهله وعلمت أنى مغـــرم

لقد قضى الأمر ، وما على بعد الآن إلا المفاوضة .

إن من أمتع اللذات أن تطوى رسالة غرام بعد الفراغ من تحريرها ، فتختمها ثم تلبس رداءك وقلنسوتك على مهل فتذهب بكنزك الثمين إلى صندوق البريد ، .. لقد تصوبت مواكب السحر فغابت ، وامتد مكانها على الأفق الشرقى خط أبيض ، نقطه هنا وهنالك قطع السحاب ، ومن هذا الخط انبثق الفجر فغمر الآفاق بتباشيره ، والبلدة نائمة ... عجلات المياه قد انطلقت ، وقد سمع من مصنع بعيد بأقصى البلد صفير البوق يوقظ العمال .

فى ظهيرة اليوم التالى جاءتنى خادمة « ساشا » من سيدتها بالرد الآتى :

يسرنى أن تزورنا اليوم ، أنا فى انتظارك ، المخلصة « س » ...

هذا الرد – على قصره وقلة ألفاظه – كان بالأغلاط الهجائية والنحوية مملوءا ، ولكن هذه الأغلاط زادته فى عينى طلاوة ، وفى مهجتى لذة وحلاوة ، ورأيت فى خطها الأعوج الأعرج وما يبدو عليه من معنى الحياء والخفر والهيبة ، مشابه من مشيتها المتئدة ومن هيئة رفعها حاجبيها لدى ضحكها ، ومن حركة شفتيها .. ولكن محتويات الرسالة لم تسرنى ... أولا ، إن الرسائل الغرامية لا يجاب عليها بمثل هذا الرد اليابس الجاف ، ثانيا ، هى تدعونى إلى زيارة دارها ، ولست أدرى ما الذى يجبرنى أن أزورها فى منزلها ، حيث أصبح تحت رحمة أمها الضخمة السمينة وأخويها وأقاربها الفقراء ، أنتظر بفارغ الصبر قيامهم عنا وتركى وإياها وحدنا ... وربما كبسوا على أنفاسنا طول مدة بقائى لديهم فحرمونا لذة الخلوة ... . وكذلك كانوا يصنعون ، ضلة لهم ما أغباهم وما أعمى بصائرهم .. كأنهم يحسبون أنى مولع بهم مغرم ، وأنى لا أطيق فراقهم لحظة ! .. وبناء على ذلك استحملت الخادمة رسالة إلى « ساشا » أسألها فيها أن تضرب للقائنا موعدا ، وتكون المقابلة فى مكان مستتر بإحدى المتنزهات أو الغابات ... وقبلت الفتاة

اقتراحى ... لقد قرعت الوتر الحساس ، على حد قولهم ، وفيما بين الساعتين الرابعة والخامسة بعد الظهر دخلت المتنزه ، فعمدت إلى أقصى أركانه وأخفاها ، وهنالك ألفيت « ساشا » تنتظرنى ، وعليها سيماء الحذر والاحتراس ، وقد بالغت فى الاستتار والتكتم ، وعلى وجهها خمار أبيض ، فمجاراة لها ومحاكاة ، زحفت إليها على مشطى قدمى ، وجعلت حديثى إليها همسا ... وأعجب ما فى الأمر أن اهتمامها لم يكن منحصرا فى شخصى ، ولكنه كان موزعا بين شتى أركان هذا الموقف ومختلف تفاصيله التى لم أكن أنا إلا واحدا منها ... لم تستغرق شخصيتى من حواسها وبالها أكثر مما استغرقته غرابة الموقف وروعته ، وخفاؤه ورهبته ، وأعماق الأجمة القائمة ، وظلال الدوح المظلمة ، والسكينة المخيمة ، والوحشة المهيبة وملحقات ذاك الموقف من نجواى وشكواى ، وحنينى وأنينى ، وإيمانى ووعودى ، ومواثقى وعهودى ... وأكبر ظنى أنها لم تكن تعشقنى أنا ، وإنما كانت تعشق العشق ذاته ، ولو فى تلك الساعة وجد أمامها أى امرئ غيرى لما نقص ذلك من سرورها وطربها مثقال ذرة .. هذا ما كان يخيل إلىّ والله أعلم !

وانطلقت الآنسة « ساشا » من البستان إلى منزلى ، وأشهد الله أن خلوة الأعزب بمعشوقته فى مأواه تهيج من طربه ما تهيجه الخمر والموسيقى ..

... وفى تلك الخلوة اللذيذة يتحدث العاشق عادة فى أمر المستقبل .. وما يصدر عنه مثل هذا الحديث من الثقة بالنفس والغرور بالأمنية يتجاوز كل حد وغاية ، فترى العاشق يرشح من الآمال أبعدها وأقصاها ويبسط من المشروعات أفسحها مدى وأناها ، ويشيد من قصور الخيال أشمخها ذرى وأسماها ، ويرفع نفسه إلى رتبة « الفيلد مارشال » وإن لم يعد درجة « ملازم ثانى » ويقذف فمه الأفاك من أمثال هذه السخافات والخرافات ما يستحيل على السامعة الحسناء تصديقه إلا إذا كان قد أغشى بصرها الحب وأعمى بصيرتها الجهل والبلاهة .. ومن حسن حظ الرجال أن عاشقاتهم من الغوانى يكن دائما ممن أعماهن الهوى ، وهن من الجهالة بأحوال الدنيا وشئون الحياة بمكان ، فبدلا من ارتيابهن بأكاذيب العاشق تراهن ينخدعن بها ويروعهن ويبهرهن ما تنطوى عليه من جزيل مواهب الحظ ونفائس كنوز السعادة ، فتصفر وجوههن دهشة ، وتخفق قلوبهن إجلالا وتقديسا ، ويلتهمن تلك الأباطيل التهاما ... وجعلت « ساشا » تصغى إلى

وتقديسا ، ويلتهمن تلك الأباطيل التهاما ... وجعلت « ساشا » تصغى إلى أحاديثى ، ولكننى تبينت آية الذهول فى وجهها ، فعلمت أنها لم تفهم فحوى كلامى ، لقد أضعت وقتى ومجهودى سدى إذ حاولت أن أشرح لها تدابيرى ومشروعاتى ، ... ورأيت كل همها أن تعرف منى أية غرفة من البيت ستكون لها ؟ وبأى لون ستلون جدرانها ؟ ولماذا اخترت هذا الطراز من « الكنب » دون غيره ؟ ولماذا آثرت من أصناف البيانو المستطيل على المربع ؟ وأقبلت تفحص ما كان على منضدتى ومائدتى من أصناف التحف والزخارف وغيرها ، تتأمل الصور ، وتشم القوارير ، وتنضو طوابع البريد عن الظروف القديمة تقول إنها تحتاجها لأمر ما .

وقالت بهيئة جد ووقار :

– أرجوك أن تجمع لى أمثال هذه الطوابع ، أرجوك ... من فضلك !

ثم وجدت بندقة على النافذة ، فكسرتها وأكلتها ..

ثم أجالت نظرة فى مكتبى وقالت :

– لم لا تلصق وريقات على كتبك تنقش عليها اسمك وعنوان الكتاب ؟ قلت لها :

– ولماذا ؟

– لتكون أسهل متناولا ... وأين أضع كتبى ؟ أنا ... أيضا عندى كتب ، ألا تعلم ذلك ؟

فسألتها قائلا :

– وماذا عندك من الكتب ؟

– جميع الأصناف ...

ولو خطر ببالى إذ ذاك أن أسألها : وماذا عندك من الآراء والعقائد والأفكار والمبادئ والمذاهب .. إذن لرفعت حاجبيها وفكرت هنيهة ثم قالت : جميع الأصناف ..

وبعد ذلك خطبت « ساشا » رسميا من أهلها ... فإن تسألنى أيها القارئ

قلت لك إنها أشرّ فترة وأتعسها فى حياة الإنسان ... شر من عيشة المتزوج ومن عيشة الأعزب ، فالرجل الخاطب لا هو بهذا و لا بذاك .. لقد غادر أحد شاطئ النهر ولما يبلغ الثانى .. هو ليس بالمتزوج ولا يمكن أن تسميه أعزب ...

جعلت فى هذه الفترة لا أظفر بساعة فراغ إلا هرعت إلى خطيبتى ، وكنت كلما ذهبت إليها حملت لها فى أعماق قلبى ذخيرة جمة من المنى والآمال والرغبات والشهوات والاقتراحات والمقالات والخطب ... وكان يخيل إلى وأنا ساع إلى دارها ، أنه متى فتحت الباب الخادمة ، ألقيت بنفسى إلى ناصيتى فى بحر من السرور زاخر .. ولقد كنت بالفعل ألقى بنفسى فى بحر زاخر ، لكن من الكرب والعذاب ! فما من مرة دخلت على خطيبتى إلا ألفيتها محفوفة بجيش من أقاربها وأهلها ، وكلهم مشغول فى إعداد الجهاز « البايخ » (وبهذه المناسبة أقول : لقد مر عليهم شهران كاملان فى أعمال الخياطة والتطريز) ، وكان المنزل مفعما برائحة المكاوى ودهن الشمع والأبخرة ، وأينما وضعت قدمك تصدّع تحتها الخرز المنثور ، وفى الغرفة الكبرى كنت ترى أمواجا طامية من التيل و « البفتة » و « الشاش » ومن خلال هذه الأمواج يطل عليك وجه « ساشا » الأبيض المستدير ، ورأسها الذهبى الصغير ، وبين أسنانها فتلة خيط .

وكان حزب الخياطين هؤلاء يتلقوننى بأقصى غاية الحفاوة والترحاب ، وأعلى صيحات الفرح والحبور ... ولكنهم كانوا يسوقوننى سريعا – على الرغم منى إلى غرفة الطعام ، حتى لا أعطلهم عن أداء أعمالهم وحتى لا أبصر الدخلة ... وبرغم أننى كنت أجلس فى غرفة الطعام ، أتحدث إلى العجوز « بيمونوفنا » إحدى الأقارب المتقاعدات .

ولم تكن كربة « ساشا » إذ ذاك بأقل من كربتى ، ولا غيظها دون غيظى ... فكانت لا تزال تمر أمامى مسرعة – كالظبية السانحة – وهى تحمل فى يدها كستبانا أو شلة خيط أو بكرة أو غير ذلك من أدوات الغم والتنغيص ! وكانت تقول لى أثناء ذلك إذ أرفع إليها نظراتى الضارعة المبتهلة :

– مهلا ! مهلا ! .. سآتيك بعد دقيقة .. أيخطر ببالك أن الغبية الحمقاء أختى « ستيبانيد » تتلف صدر « الفستان الحرير » خرقا وجهالة ؟

وبعد نفاد صبرى عبثا فى انتظار هذه الغنيمة ، أستشيط غضبا ، ثم أغادر الدار مغيظا محنقا ، فأهيم فى الشوارع على غير هدى فى صحبة الخيزرانة الجديدة التى أكون قد اشتريتها تأنقا وتجملا .

وأحيانا أشتهى أن أخرج معها للنزهة ، حتى إذا جئتها ألفيتها قد تهيأت للخروج مع أمها فى قضاء بعض أدوات الجهاز المنحوس (الذى جعله الله سببا إلى انتحارى) ، وهى واقفة إلى جانب أمها ، تلعب بمظلتها المزخرفة .

وحينذاك تقول لى :

– نحن ذاهبون إلى السوق ، لنشترى كمية أخرى من الكشمير ونغير « البرنيطة » ..

فى سبيل الله نزهتى وفسحتى ، ومتاعى ولذتى . فأنضم – مكرها – إلى السيدتين وأذهب إلى السوق ، ألا إن من شر المصائب أن تشهد النساء وهن يساومن أصحاب المتاجر فى بضاعتهم ، لقد كنت أذوب خجلا حينما كنت أرى « ساشا » بعد هدمها صفوف البضائع المرصوصة هدما وقلبها كيان الدكان ، تخرج منها بمنتهى الجمود والبرود ، دون أن تشترى أدنى شىء ، لا تتقى الله فى التاجر المسكين الذى أهلكت بدنه وأغرقته فى عرقه ، كأنما هو عبد من عبيد أبيها ، ولكن النساء هكذا خلقن ومن شاء أن يعاشرهن فليحتمل آفاتهن !

وإذا اشترينا شيئا من بعض المحال ، فخرجنا به ، لم تلبثا أن تثيرا خصاما ونزاعا عن السلعة المشتراة ، فتقول إحداهما صفقة خاسرة » وتقول الأخرى « بل صفقة رابحة » .. « لقد غلبنا الرجل ... وضحك علينا » ... كلا ! إن الشيطان ذاته لا يستطيع إحرازها بأرخص من ذلك ، أفلا تستريحين حتى تنهبى الناس وتسلخى جلودهم سلخا ؟ ... اتقى الله فى عباده » الخ الخ .. وأنا أثناء ذلك ، أغلى من الغيظ وأتميز ، وألعن جميع نساء الأرض فى ضميرى .

وانقضت تلك الفترة – مدة الخطبة – بعد أن أشرفت فى خلالها على الهلاك ، وتم الزواج بخير ، وهاك صورة موجزة من حياتى الزوجية :

الساعة الرابعة مساء ، وأنا جالس فى مكتبى أقرأ شيئا بصوت عال .. وأطلب زجاجة من البيرة .

– ساشا ، أين البريمة ؟

تثور ساشا من مكانها ، فتبحث عن البريمة بشكل مزعج بين أكداس الورق ، فتقلب علبة الكبريت ... وبدون أن تهتدى إلى البريمة تعود إلى مقعدها فتجلس مرتاحة مطمئنة ... تمر خمس دقائق أخرى ... عشر دقائق ... ربع ساعة ... ويحمى على قلبى الظمأ وغليل الغيظ ..

– ساشا ! أرجوك أن تبحثى عن البريمة ...

تثب « ساشا » من مكانها ثانية فتتخبط بين الأوراق من حولى .. العياذ بالله ! إن صرير مضغها لأشد صدمة لمسمعى ووقعا على أعصابى من صليل السيوف والخناجر ... وأنهض أنا أيضا فأجرى البحث معها ... وينتهى البحث باليأس من وجود البريمة ، فألجأ إلى القراءة ، ولكن ساشا لا تدعنى وذلك ، هى تلزم جانبى ، وتشرع تحدثنى حديثا طويلا عن لا شيء .

فأقول لها :

– ساشا ، حبذا لو تسليت أنت أيضا بقراءة شيء من هذه الكتب ...

تتناول « ساشا » كتابا وتجلس بإزائى ، وتشرع تحرك شفتيها ، وأنظر أنا إلى جبينها الضيق وشفتيها المتحركتين وأطرق مفكرا !

وأقول لنفسى :

– لقد ناهزت العشرين عاما من عمرها ... ولو قارنتها بغلام فى مثل هذه السن لوجدته يفوقها علما وخبرة وذكاء .

ضيق جبينها وتحريك شفتيها ... ولماذا أغتفر لها ؟

ولكنى أغتفر لها هذا النقص كما أغتفر لها هذا وذاك ، لمحبتى إياها ، وعين الرضا عن كل عيب كليلة ، عجبا عجبا لتلك القوة الغامضة الخفية المجهولة ، قوة « الحب » ولمناقضاتها وأعاجيبها !

لقد كنت قبل أن أعشق ساشا ... ربما أصاحب المرأة أو الفتاة حينا ، ثم أهجرها لغير ما ذنب سوى بقعة على جوربها أو أثر الطعام على أسنانها ... والآن أغتفر كل شيء ... المضغ بضوضاء عالية ، والتخبط فى البحث عن البريمة ،

، وإهمال الترتيب والنظام في المنزل ، وإطالة الحديث فى غير شىء ... كل شىء أغفره عفوا من حيث لا أشعر ، ولا أدنى مجهود من الإرادة ... كأن زلات « ساشا » زلاتى ، وذنوبها ذنوبى ... وما علة ذلك ؟ حبى لساشا ، ولكن الحب ذاته ، ما علته وما سره وما هيته ؟ هذا الذى ترك الأوهام فى حيرة !

الرجل السعيد

يتحرك قطار الركاب من محطة « بولوجو » الواقعة على ملتقى الخطين المؤدى أحدهما شمالا إلى بطرسبرج ، وثانيهما جنوبا إلى موسكو ، وفى غرفة من الدرجة الثانية خمسة ركاب يلاعب النعاس رءوسهم ، لقد فرغوا من الطعام ، فاستقروا فى مجالسهم يستدرجون الكرى ، وقد ساد السكون .

ينفتح الباب ويدخل عليهم رجل طويل نحيل معروق منتصب القامة « كالصنفور » عليه حلة جديدة محكمة ، وقلنسوة صفراء .

وهذا الشبح يقف ساكنا وسط الغرفة برهة طويلة يتنفس تنفسا ثقيلا ويزر أجفانه ، ويحدق فى أنحاء المكان متوسما ، ثم يهمهم لنفسه قائلا :

« مخطئ أيضا ، هذه ليست غرفتنا لقد أوشكت أن أجن ! لقد ذهب الشيطان بالغرفة ! »

ينظر أحد الركاب فى وجه الطارئ ، ويصيح طربا :

– إيفان اليكيفتش ! ماذا جاء بك ههنا ؟ أذاك أنت ؟

فينظر الرجل « الصنفورى » إلى المتكلم نظرة طويلة من عين ساهية سادرة ، وأخيرا يعرفه فيصفق فرحا ، ويصيح :

– ها ! بيوتربتروفتش ! كيف حالك ؟ لقد طالت غيبتك ، كم أشهر مرت وأعوام ، منذ آخر عهدى بك ! لم يخطر ببالى أنك فى هذا القطار .

– كيف حالك ؟

– بخير حال ، ليس بى سوى أنى ضللت غرفتى ثم تعذر على أن أصيبها ، ما أشد غباوتى وحماقتى ، إنى أستحق أن أجلد !

وفى أثناء كلامه يترنح قليلا ، ولا يكاد يثبت مكانه ...

ويسترسل قائلا :

– ما أعجب هذا الحادث ! .. لقد نزلت عن القطار عقب الجرس الثانى لأشرب قدحا من الكونياك ، ولقد شربته فعلا ، وقلت لنفسى « أما والمحطة الثانية بعيدة جدا ، فلا بأس من تناول كأس أخرى » وفيما أنا أرتشفها دق الجرس الثالث ... فاندفعت مسرعا كالمجنون فوثبت فى أول مركبة ، إنى وربكم لمعتوه أبله !

قال بيوتر بتروفتش : ولكنى أراك فى أقصى غاية السرور والطرب ، هلم واجلس إلينا ، أهلا وسهلا ومرحبا !

– كلا كلا ! سأذهب لأنشد مركبتى ، فأجلس فى غرفتى .. عموا مساء !

– أخشى عليك أخطار القطار ، فلعلك ساقط بين المركبات إن لم تستبصر ، وما أراك – وقد أخذ منك الشراب هذا المأخذ – بمستبصر .. اجلس إلينا ، ومتى بلغنا المحطة التالية أديناك إلى غرفتك ، اجلس إلينا ..

يتنهد إيفان اليكيفتش ويجلس متكرها ، ازاء بيوتربترفتش وبه من القلق والاضطراب ما به ، ويتململ فى مقعده كأنه على شوك.

ويسأله بيوتربتروفتش قائلا :

– أيان تذهب ؟

– أنا ؟ أنا ؟ أذهب فى الفضاء ، فى فضاء الله ! أذهب فى اللانهائية ! وراء الفلك ووراء المادة ! .. إن رأسى ليدور كالنحلة ! وإن به من التشويش والاضطراب والفوضى ما أنسانى نيتى ومقصدى ، فلا أعرف إلى أين يذهب بى ... أنا ذاهب مع القضاء والقدر حيث شاءا.. إلى حيث ألقت ! ... هاهاها ! يا سيدى العزيز ، أرأيت قط رجلا جن من شدة الفرح ؟أنا والله ذاك الرجل ، انظر إلىّ تجد أمامك أسعد خلق الله طرا ! أجل ، بلا شك ولا جدال ، ماذا تتبين فى هيئتى ، وعن أى شىء ينم لك وجهى ؟

– عن إذنك .. كذا ، كذا .. قليلا ، قليلا .

– أخشى أن يكون وجهى ينم عن البلادة والغباوة ، يؤسفنى أنى لا أملك الآن مرآة أقرأ فيها صحيفتى ، معذرة يا سيدى ، يخيل إلىّ أنى صائر إلى الجنون ، هاها ! أيخطر ببالك أنى الآن فى شهر العسل ؟ هذه يا سيدى هى الحقيقة .

– أنت ؟ أتقول إنك قد تزوجت ؟

– اليوم ، هذا يوم من حياتى الزوجية ... لقد انطلقت آنفا وزوجتى من الكنيسة عقب عقد الزواج مباشرة .

يتلو ذلك عبارات التهانى ، والأسئلة المعتادة ..

ثم يقهقه بيوتر بتروفتش قائلا :

– لله أنت ، ما أمهرك وما أكيسك ! نلت وطرك وبغيتك ... ومن ثم زيك الأنيق وهندامك الحسن !

– أجل ، واستيفاء للحظ ، أغرقت نفسى فى طوفان من الغالية (الياسمين والورد والبنفسج) ! الله أكبر ! إنى منغمس فى غرور النعيم ، وباطل اللذات إلى أم رأسى ! ... حياتى كلها غرور فى غرور ، وعيشتى أحلام وأوهام ! لقد انمحت حقيقة الحياة المرة المؤلمة من شعورى ووجدانى .. فلا أفكار عندى ولا هموم ولا مشاغل ولا حقوق علىّ ولا واجب ولا فرض ولا مسئولية ! ولكنى مرتفع عن سقال الأرض ، محلق فى آفاق النعيم ، سابح فى ملكوت السعادة ، بأجنحة ملائكية براقة ، إنه لإحساس فذ عجيب ، وشعور مدهش نادر ، ما أحسست به قط قبل الساعة !

وهنا يغمض عينيه من فرط اللذة ويهز رأسه يمينا وشمالا ، ويقول :

– إنى فرح مسرور إلى درجة الخطر ! تصور يا عزيزى مبلغ سرورى ! فى ظرف دقيقة أصير فى غرفتى ، هناك على مقعد قرب النافذة تجلس غانية جميلة كلها محبة لى وشغف وإخلاص ... كلها غرام بى وحنان ورأفة ووفاء ! غيداء ، فتانة الحسن عيناء ، هيفاء ، معشوقة الدل حوراء ، جبين وضاح ، كفلق الصباح ، وأنف كحد السيف ، وأنامل كالعناب ، وثغر كاللآلىء الرطاب ، وقدم صغيرة لطيفة ، لو قدمت إلىّ فى صحن لأكلتها بالملعقة أو بالشوكة ، ولكن معذرة يا صديقى ، أنت لا تفهم هذه المعانى الدقيقة ، تلك أسرار من الجمال أنت أكثف ذهنا من أن تدركها ، تلك ألغاز غامضة من عجائب صنع الله قد حجبها البارئ عن أبصاركم معشر الماذيين ، تلك أسرار روحانية لا يفقهها إلا من اصطفاهم الله من عبادة المخلصين ...

أما أنتم معشر الماديين السفسطائيين فما أبعدكم من السعادة الحقيقية ، أنتم تدعون الفلسفة زورا وبهتانا ، وكلما زفت الحياة إليكم نعمة من مناعمها أو حسنة من حسناتها ، ألقيتموها تحت منظار فلسفتكم الكاذبة وطرحتموها في ميزان حكمتكم الخرقاء ، وأقبلتم تحللونها في جهاز نقدكم الباطل المضلل ، فلا تلبثون أن تستنبطوا بفضل جهلكم وعمايتكم من كل نعمة نقمة ، ومن كل لذة محنة ، ومن كل حسنة سيئة ، ثم تخرجون بفضل قياسكم المعكوس ، ومنطقكم الكاذب بهذه النتيجة : وهى أن الحياة كلها شر وبلاء ، وليس فى الدنيا إلا الألم خالصا ، والشقاء محضا ، فتبا لكم ولفلسفتكم العقيمة الفاسدة كل شيء تنقدونه وتفحصونه وتحللونه ، حلل الله عظامكم ومفاصلكم ، ولا أراكم خيرا ولا غبطة لا فى العاجلة ولا فى الآجلة،ستظلون فى عماكم وحرمانكم ، معشر الأعزاب ، حتى تتزوجوا فتتذوقوا حلاوة المرأة ، بهجة الحياة وزينة الدنيا .. كذلك بعد دقيقة أذهب إلى غرفتى ، حيث تنتظرنى الحسناء بفارغ صبر ، تذوب شوقا إلى رؤيتى .. ستتلقانى بأحلى ابتسامة على ثغرها البراق ، وأجلس إليها ، وأهصر بفودى رأسها فتتمايل على هضيم الكشح ريا المخلل ... هذا وربك الصفاء والرغد والنعيم السرمد .

ويهز إيفان إليكيفتش رأسه يمنة ويسرة ويغرب فى الضحك طربا .

– ثم أوسد رأسى ترائبها ، وأطوق خصرها بيمناى ، والصمت من حولنا والسكينة .. والشفق الشعرى وافرحتاه إنى لفرط مسرتى ، أكاد فى مثل تلك اللحظة ، أعتنق الدنيا برمتها .. اسمح لى يا صديقى بيوتر أن أعتنقك ...

ونهض الصديقان فاعتنقا وتلاثما ، على ضحكات القوم المتوالية ... واسترسل الرجل السعيد ، قال :

– واستكمالا للطرب أو للجنون ، أو كما يقول الروائيون ، استكمالا لخدعة الرواية ، يذهب المسرور إلى المقصف فيلتهم قدحين أو ثلاثة ، يثور على أثرها فى الرأس وفى الفؤاد نوع من اللذة أمتع وأحلى من كل ما تقرأ عنه فى عالم القصص وروايات الجن ... معذرة أيها السادة ، إنى امرؤ حقير ، لا فى العير ولا النفير ، ولكنى بعد تلكم الأقداح التى احتسيت إخالنى أميرا بل قيصرا .

ويخيل أنى مفرط العظم والجسامة ، وأنى أملأ الفضاء ، وأفعم الأرض

والسماء ، أشعر أنى بلا نهاية ، أنى أحتضن الدنيا بأسرها وأطوق السبع الطباق بذراعى !

هذا النزق والخفة والمزاح من الرجل السعيد سرت عدواها إلى القوم فطار النعاس من أجفانهم وأحدقوا بالرجل يتصايحون عجبا ، ويتضاحكون طربا ، وهو وسطهم كالقرد أو كالبهلوان ، يميل ويترنح ، وينقبض وينبسط ويطوى وينشر ، ويتثنى ويتلوى ، ويطلق للسانه العنان فى ميادين اللغو والفضول ، وشعاب الهراء والهذر إلى ما لا حد له ولا نهاية :

– سادتى ، سادتى ... أريحوا أنفسكم من الجد والعقل ، اخلعوا رداء الوقار ، حلوا حبوة الحلم ونطاق الرزانة ، اطرحوا الفلسفة فإنها لم ترح من كان قبلكم ، ولن تريح من سيكون بعدكم ، اضربوا بالنقد والتحليل عرض الحائط ... وإذا ظمئتم إلى السلاف فاحتسوها رحيقا سلسلا ، ولا تحرموا أنفسكم لذيذ مذاقها ، ردوا حياضها كما يرد المنهل الظمآن أهلكه الصدى ، اكرعوا دنانها وأباريقها ، بلا إحجام وبلا تردد وبلا تريث ولا تلبث ، ولا تقفوا من دونها تتجادلون ، أخير هى أم شر ، وحلال أم حرام ... أنتم عطاش وهذا المورد أمامكم ، وقد جعل الله لكم السبيل إليه ، فما بالكم لا تردون ! تبا لكم ! لا فائدة فى الفلسفة ، والفرصة سانحة ، ولا فى التحليل والنقد ، قبحت الفلسفة ، وقبح النقد والتحليل ، وقبح الله كل متفلسف متحذلق متكلف ، وباء من الله بالخيبة والخسران ، وبالفشل والخذلان !

وفى هذه اللحظة يمر الكمسارى خلال الغرفة ...

فيوجه الرجل السعيد إليه الخطاب قائلا :

– مهلا يا أخا الروس ! بالله ربك إن جزت المركبة رقم ٢٠٩ فعرج بها ، وأنشد هناك غادة فى حلة زرقاء وقلنسوة حمراء ، بيدها قمرية بيضاء ، فقل لها إنى ههنا !

– سمعا وطاعة يا سيدى ... ولكن ، بكل أسف ليس فى هذا القطار رقم ٢٠٩ ، عندنا رقم ٢١٩

– فليكن إذن ٢١٩ ، هما سيان ... اذهب إلى السيدة فخبرها أن زوجها

بخير ، وعلى ما يرام .

يمضى الكمسارى فى سبيله مندهشا ...

ويمسك إيفان بفودى رأسه بغتة ويصيح :

– عجبا عجبا ! ما أسرع هذا التغيير والانقلاب ! .. أنا زوج .. وهى زوجة ! هاهاها ! بالأمس بهيم متشرد ، واليوم زوج ورب أسرة ! ولكن حالها هى أعجب وأغرب !

بالأمس طفلة صغيرة ، لعبة ، عروس من الورق ! واليوم زوجة وربة بيت ، هذا ما لا يسيغه عقل ، ولا يتصوره ذهن !

قال أحد الركاب :

– إن من أعجب العجائب فى هذه الأوقات أن يصادف الإنسان رجلا سعيدا ، فأقرب من ذلك أن تصادف غرابا أبيض .

قال إيفان أليكستفتس :

– وإذا كانت السعادة البشرية فى هذه الأوقات بهذه الندرة ، فمن الملوم على ذلك ؟ إن كنت محروما من السعادة فالذنب ذنبك ، الإنسان خالق سعادته وخالق شقائه ، إن شاء كان سعيدا ، وإن شاء كان شقيا ، وما السعادة منك ببعيد ، إنما هى بمطرح لحظك ومتناول يدك ، فإن لم تحزها فأنت المقصر ، إى وربك إنى أرى السعادة تطلبك ، وأراك منها تهرب !

– وكيف ذلك ؟ اشرح لنا وبينّ .

– الأمر أبسط من ذلك وأوضح ، لقد قضت سنة الله أن الإنسان فى سن معينة ينبغى له أن يعشق ، فإذا بلغت هذه السن وجب عليك أن تصبح من فرط الغرام كأنك بيت فيه حريقة .. ولكنك لا تفعل ، عصيانا لأوامر الطبيعة البشرية ، وصمما عن ندائها ... أنت لا تهوى ولا تعشق ، ولا تستخفك الخرد الغيد ، ولا البيض الرعاديد ، ولا يزدهيك خد أسيل ولا طرف كحيل ، ولست تلقى بنفسك فى بحر الصبابة والأشواق ، ولا بقلبك فى معترك المهج والأحداق .. وكذلك يمر بك موكب الجمال تخفق على مناكبه أعلام الهوى ، وأنت جامد لا حراك بك كالصنم أو التمثال ، وكذلك تضيع الفرصة إثر الفرصة ، ماذا تنتظر

لا أبالك ! وهكذا تحرم لذة العشق وما يتلوها لذة الخطبة والزفاف وشهر العسل والحياة الزوجية ، كأنك لا تعلم أنه لا سعادة بلا زواج . فاسمع ، لا أسمعك الله مكروها ، متى سنحت الفرصة فاهتبلها وتزوج ، ومن نكد الدنيا أيضا أن تعرف أن الخمر منفاة الأتراح ، مدعاة المسرات والأفراح ، وأن فى التوراة والإنجيل « الخمرة تفرح الفؤاد » وتعرف أنك إن كنت فى سرور فأنت المزيد فما عليك إلا أن تطرق الحان ، وتسفك دماء الدنان ، ثم لا تفعل ... وكل هذا تأتيه تفلسفا منك وتعاقلا ، وادعاء كاذبا للأدب والفطنة والحصافة ، تلتمس الشهرة والظهور من طريق الشذوذ عن الجماعة وتنكب الصراط الممهد المستقيم ، والمنهج المعبد المطروق ، على حد قولهم « خالف تعرف » فاعلم – علمت الخير – أن السعادة ليست محاولتك الترفع عن مستوى الناس ، بل فى هبوطك إلى مستواهم ، وهى ليست فى شذوذك عن الجماعة بل فى لزومك طريق الجماعة !

– تزعم أن الإنسان خالق سعادته ، وأن بيده سروره وغبطته ، وكيف يصح ذلك إذا كان أقل طارئ (كاعتراض ألم فى ضرسك أو معدتك أو إلمامة من ثقيل أو بغيض) كفيل أن يبدد سلك مسرتك ، ويتركها هباء تذروه الرياح ؟ ألا كل شىء بالصدفة رهين ! ولو طرأ الآن عليك طارئ لرأيناك تضرب على نغمة أخرى ..

– هذا باطل ومحال ، إن طوارئ القطارات لا تحدث إلا فى الندرة ، والنادر لا حكم له ، وما لنا الآن ولذكر الطوارئ قبحها الله وقبح من يذكرها ... كأنى بالقطار يقف بنا على محطة ؟ !

قال بيوتر بتروفتش :

– خبرنى أين تقصد ؟ موسكو أم وراء ذلك جنوبا ؟

– شفاك الله ! ماذا تقول ؟ كيف أذهب جنوبا ، إذا كان القطار يذهب بنا شمالا !

– ولكن موسكو ليست فى الشمال ..

– أعرف ذلك ، ولكن من قال إننا ذاهبون إلى موسكو ، نحن على طريقنا إلى بطرسبرج ..

– بطرسبرج ! شفاك الله ، إنك أولى بالشفاء منى ! نحن ذاهبون إلى موسكو !

– إلى موسكو ؟ ماذا تعنى ؟

– شيء عجيب ! إلى أى محطة قطعت تذكرتك ؟

– إلى بطرسبرج ...

– أهنئك ! لقد ركبت الطريق المخالف ...

فترة سكوت ، ينهض الرجل السعيد ، فيتلدد حائرا ...

ويقول بيوتربتروفتش مفسرا :

– الأمر واضح ، إنك فى محطة « بولوجو » وثبت فى القطار المخالف ، نعم ، بعد احتسائك القدح الثانى أو الثالث من الكونياك وفقك الله إلى ركوب القطار المضاد ، الذاهب جنوبا .

وهنا يصفر وجه الرجل السعيد ويجذب بفوديه وينبرى يجول فى الغرفة كالوحش فى قفصه ، ويصيح حسرة وكمدا .

– ضلة لى ما أحمقنى وما أغبانى ! قتلنى الله ، ماذا أصنع الآن ؟ ياللبلية ! إن زوجتى الساعة بالقطار الآخر منفردة حزينة تندب غيبتى وتخشى على الموبقات والمهالك ، قلقة الأحشاء مستعرة الجوانح ! فلا أبعد الله غيرى !

ويرتمى على مقعد ، فيتلوى كمن لدغته أفعى .

– أنا البائس المنكوب الشقى ، أنا أبعد خلق الله من السعادة ! ماذا أصنع .. ؟

وهنا يتضافر القوم على تسليته فيقولون له :

– لا تخف ولا تحزن ، أبرق إلى زوجتك تنتظرك ، ثم خذ إليها قطار الشمال ، وبذلك تلحقها ...

فيصيح الرجل السعيد ، خالق سعادته ومسبب نعمته ومسرته ، مجهشا بالبكاء :

– آخذ قطار الشمال !! ومن أين لى ثمن التذكرة ونقودى كلها مع زوجتى . فتضاحك القوم وتهامسوا ثم اكتتبوا للرجل السعيد . ، وزودوه بمبلغ .

المغالاة

وصل المهندس « سميرنوف » إلى محطة « نيولوشكى » ولم يزل أمامه مسافة ثلاثين ميلا ليبلغ الضيعة التى كلف بمعاينتها ومسحها .

وشرع يبحث عن مركبة ، وبعد الجهد الجهيد ، أصاب رجلا فلاحا قويا أيدا ، شديد الأسر ، صلب العود ، عبوسا متجهما ، فى رداء رث مهلهل ، فنظر إليه وإلى مركبته وعبس وقال وهو يمتطيها :

– ما أعجب مركبتك هذه ! لا يعرف صدرها من عجزها .

– وماذا أشكل عليك من أمرها ؟ وما الذى التبس عليك واستبهم ، تأمل يا سيدى ، فحيث يكون مبعر الحصان فذاك الصدر ، وحيث يكون جنابك فذاك العجز .

وكان الحصان ضئيلا هزيلا منفرج الساقين ، فلما وقف السواق فأخذه بالسوط ، لم يزد على أن هز رأسه ، ولما سبه ولفعه بالسوط ثانية ، صرت المركبة وارتعشت ، كأنما أصابتها حمى ، وبعد السوط الثالث ترنحت ، وبعد الرابع تحركت .

فقال المهندس ، وتعجب من مقدرة السواقين الروسيين على الجمع بين بطء المسير والرجات التى تطفر الأحشاء وتخلع القلوب ، وكان قد أصيب برجة :

– خبرنى ، يا رعاك الله ، أعلى هذا المنوال سيكون سيرنا كله ؟

– سنبلغ الغاية على كل حال ، الحصان فتى قوى .. وما عليك إلا استثارته فإذا انبرى يركض ، لج وتمادى ، فلا سبيل إلى حبسه وكبحه ... شى يا ملة الكلب !

خرجت المركبة من فناء المحطة فى أخريات الشفق وقد اختلط الضوء بالظلمة ، وعلى يمين المهندس سهل فسيح مغشى بالثلج وظلال الليل مترامى الأطراف ، لا حد له ولا نهاية ، وعلى الأفق حيث يندمج فى السماء ويمتزج ، تنتشر حمرة

الشفق الخريفى البارد متضائلة مضمحلة ، وعلى اليسار يرتفع فى الظلام شبه قرية ، ولم يستطع المهندس أن يستبين ما أمامه ، إذ كان مجال بصره قد سد كله بقفا السواق وكتفيه العريضتين ، وكان الهواء راكدا ، مثلوجا باردا .

قال المهندس فى نفسه ، وحاول أن يغطى أذنيه بياقة معطفه :

– أية قفرة موحشة ! لا ديار ، ولا نافخ نار .. فلو أوقع النحس الإنسان فى أيدى لصوص لما نفعه استصراخ ولا استنجاد ، وبمن يستغيث فى هذه البيداء وما من منجد ولا مغيث ! .. أضف إلى هذا أن السواق مريب الطلعة متهم الهيئة ، ليس ممن عليه يعتمد ، ولا إليه يطمأن ..

قبحه الله ، ما أضخم ظهره وما أعرض منكبيه ! ... ومثل هذا المارد العملاق ما عليه إلا أن يرفع يده ، وعلى الدنيا السلام ، يخيل إلى أن عزرائيل يكمن فى بطن كفه الضخمة الغليظة ... ووجهه السمج القبيح الهمجى ، لا ينم عن خير ولا سلامة ، ألا قبح الله كلحته !

وقال المهندس :

– اسمع يا صديقى ! ما اسمك ؟

– اسمى أنا ؟

– أجل ..

– اسمى « كليم »

– خبرنى يا مستر كليم ماذا تعرف عن أرضكم هذه ؟ خطرة مخوفة ؟ هل بها لصوص ؟ .. هل بها قطاع طريق ؟

– كلا يا سيدى ، حفظنا الله وحاطنا مما تقول .. دار أمن وسلام ، ومن ذاك الذى يجرؤ أن يخيف الطريق ، والحكومة – أيدها الله – بالمرصاد ؟

لقد كان المهندس يوجس خيفة من السواق ، وأراد أن يرهبه فقال له :

– الحمد لله على خلو هذه الأرض من اللصوص وقطاع الطريق ، ذلك والله نبأ سار ، ولكنى من باب الحيطة والحذر ، أحمل معى ثلاثة مسدسات (علم الله أنه كاذب فى قوله) ولا يخفى عليك يا صديقى كليم أن من السفه والحماقة أن

تتعرض لرجل يحمل ثلاثة مسدسات ، ولا بدع يا صديقى ، فالمسدس هو الموت العاجل والأجل المتاح ، وأنت إن شئت أن تلهو وتلعب ، فاختر لنفسك لعبة خلاف الموت وملهاة غير المنون ! أجل إياك وحامل المسدس ، ولو أيدت بالأعوان من قطاع الطريق ، فحامل المسدس خليق أن لا يعبأ من هؤلاء بعصابة ...

ادلهم الليل ، وبدأت المركبة تضج وتصيح وتصطخب ، وتجف وترجف ، ثم انعطفت فجأة إلى اليسار ..

فقال المهندس فى نفسه :

– إلى أين يذهب بى الرجل ؟ لقد كان على صراط مستقيم ، فما الذى مال به إلى الشمال بغتة ؟ .. ويلى على ابن الخبيثة ، كأنى به يحملنى إلى غار لصوص . وما ذاك على أمثاله ببعيد ، أما ترانا لا نزال نسمع بأشباه ذلك فى كل آن ؟

ثم خاطب السواق قائلا :

– تقول إن هذه البقعة مأمونة ، وإنه لا لصوص بها ، ألا تعلم أن هذا الخبر منك يسوؤنى ؟ ألا تعرف أن ملاقاة اللصوص ومكافحتهم هى جل بغيتى فى الحياة ومنيتى ؟ قد أكون نحيفا ضئيلا ، ولكن لى قوة الفيل وسطوة الأسد ! ولقد هاجمنى مرة أربعة لصوص .. أفتدرى كيف لاقيتهم ؟ لم يكن معى إذ ذاك مسدس .. ولكن ماذا يهمنى وجود المسدس أو عدمه ! ضربت الأول « شلوتا » فطوحته على سطح زريبة ، وصدمت الثانى كما يصدم الإكسبريس من يقف فى طريقه ، فصرعته ثم دست عليه فحطمت عظامه ، فلما شاهد ذلك الثالث خر مغشيا عليه من الرعب ، أما الرابع فأسلم للريح ساقية ، آه ! لو كنت حاضرا ، إذن لشاهدت بعينك إحدى المعجزات الخوارق ! أية قوة هبطت علىّ .. لا أدرى من أين ؟ لقد كان عندى إذ ذاك من القوة ، ما كنت أستطيع أن أسحق به الصوان ، وأفت الجلمد الصفوان ، وأنفذ من الحديد والفولاذ ، كفاك الله شرى ! والله لو غضبت عليك مرة ، فما هى إلا قبضة على « زمارة » رقبتك بيد واحدة ، ثم أفتحها عنك كالفسيخة الميتة ، وما هو إلا أن أضع عليك كفى حتى أمسحك من الأرض مسحا ! احذرنى كما تحذر الضرغامة الهصور ، واسأل الله منى العافية !

فالتفت السواق إلى المهندس وغضن وجهه ثم استحث الجواد بسوطه .

واسترسل المهندس قائلا :

– ويل للص الذى تحدثه بى نفسه ، ليحطمن عظمه وليخمدن نفسه ، ثم ليحتوينه رمسه ، وإن فر من يدى فليلقين من القضاء أنكى العذاب ، أو نكل العقاب .. إنى أعرف القضاة جميعا ومأمورى البوليس ورؤساء المحاكم ، إنى لمن كبار الموظفين ، ولى عند أولى الحل والعقد شفاعة مقبولة ، وكلمة غير مردودة ، إنى أرحل الآن ، وبأمر الحكومة أرحل ، وفى خدمة الحكومة أنتقل ، وأولو الأمر والنهى من الحاكم ، يتتبعون خطواتى ، ويترقبون حركاتى ، وقد بثوا فى الأرض من العيون والأرصاد ما يكفلون سلامتى من اللصوص والفتاك فى جيئتى وذهابى ، ورحلتى ومآبى ، وإن من وراء كل شجرة وعشبة على طول الطريق لعساكر وجنودا مستترة تكلؤنى وترعانى .. ار .. ار ... اربط ... أين تريد أن تدخل بنا ؟ أنى تذهب بنا ؟ .. ما هذه ؟

– ألست تبصر ؟ هذه غابة !

فقال المهندس فى نفسه :

– حقا إنها لغابة .. تبا لى ! مالى أصيح وأصرخ كالخائف المذعور ، غير أنه ليس من الحكمة أن أعلن للرجل خوفى .. ولعله قد آنس منى هيبة ووجلا ... وإلا فما كثرة تلفته نحوى ؟ ما أحسب إلا أنه يدبر لى مكيدة .. لقد كان فى البداية يسير الهوينا كالسلحفاة ، وأراه الآن يخب بنا خبب الذئاب !

– اسمع يا كليم ! ما بالك تستحث الجواد كأنك تسابق به الريح ؟

– أنا لا أستحثه ، إنه يتدفق من تلقاء نفسه ، ألم أقل لك إنه متى انبعث فلا راد له ولا رادع ؟

– كذبت ، وإنى والله لأتبين الكذب فى وجهك ولسانك ، إنى أنصح إليك أن تكبح من جماح فرسك ... اقبض من عنانه قليلا ، أسامع أنت ؟ أحبس لجامه !

– لماذا ؟

– لماذا ؟ لأن أربعة من زملائى قادمون ورائى ، فلنخفف السير حتى نمكنهم من لحاقنا ... لقد وعدونى أن يركبوا من المحطة على أثرى ليدركونى فى الغابة ...

سنجد فى صحبتهم أنسا ومتاعا ... وإن فيهم لقوة وبأسا ، وكل يحمل مسدسا ... ولكن ما بالك لا تزال تتلفت وراءك ، وتتململ كأنك على جمر ... اسمع يا عزيزى ... إنه لا ... لا ... لا حاجة بك إلى التلفت خلفك وإدامة النظر إلىّ ... إنى شخص عادى ليس فى هيئتى ما يلفت النظر ... اللهم إلا الأربعة المسدسات التى أحمل ... فإن شئت أبرزتها إليك ...

ثم أدخل يده فى جيبه كأنه يحاول إخراج شىء ... وفى تلك اللحظة حدث حادث ما كان ليخطر له قط على بال ، وذلك أن السواق انحدر فجأة عن المركبة وأقبل يعدو فى الغابة بكل ما أوتى من أيد وسرعة ، وصاح بأرفع صوته :

– النجدة ! النجدة ! خذ المركبة والحصان أيها الشيطان ، ولكن لا تأخذ روحى ! هب لى حياتى ! الأمان ! الأمان ! النجدة النجدة !

وسمع المهندس وقع قدمين مدبرتين ، وصوت تقصف غصون وأشواك ، ثم ساد السكون ... فوقف الجواد ثم اطمأن فى مقعده من المركبة ، وأطرق يفكر ، قال فى نفسه :

– لقد ولى فرارا ، لقد ذعر الجبان !! ماذا أصنع الآن ؟ لا أستطيع الذهاب وحدى لأنى لا أعرف الطريق ... أضف إلى ذلك أنى أتهم بسرقة المركبة والجواد ... ماذا أصنع ؟

ثم صرخ :

– كليم ! أيها السائق ! إلىّ ، ولا تخف ! إنه لا بأس عليك ولا ضير ! .. كليم ! كليم !

فأجابه الصدى :

– كليم ! كليم !

ولما مر بخاطره أنه ربما اضطر إلى البقاء حتى الصباح منفردا مستوحشا فى ملكوت الليل المخوف ، يلتحف الفقر والظلام ، ولا يسمع سوى الصدى والذئاب ، ونخرات الحصان الأعجف الهزيل ! أحس وخزات فى صلبه ، كأن مبردا قد سلط على قفاه .

– كليم ! كليم ! صديقى كليم ! أين أنت يا كليم ؟

واستمر يصيح ساعتين كاملتين ، ولما بح صوته وتولاه القنوط ، ووطن النفس على المبيت بالغابة ، حمل إليه النسيم صوت حنين كحنين الإبل .

فصاح المهندس فرحا :

– أذاك أنت يا كليم ؟ ... أنت هنا يا صديقى الحميم ؟ هلم إلينا !

– أخاف أن تقتلنى !

– إنما كنت أمزح يا صديقى ، أقسم بالله ما كنت إلا مازحا ، عجبا ، عجبا ، كأن معي مسدسات ! وشهد الله ما حملتها قط ! لقد كذبتك محفوزا بعامل الخوف ، أنشدك الله إلا أمضيت بنا للتو واللحظة ، إنى أوشك أن أموت بردا .

وتأمل كليم فرأى أنه لو كان الرجل لصا ، لما لبث مكانه ولكان قد ذهب بالحصان والمركبة ... وعلى ذلك برز من وراء الشجر وتقدم نحو صاحبه .

وقال المهندس :

– ويحك ! ماذا أخافك ؟ أترتاع لكلمة مزح قلتها على سبيل الفكاهة ؟ اصعد !

– أصلحك الله يا سيدى ، لو علمت أن ذلك كائن لما حملتك ولا بألف روبل ، لقد كدت والله أموت رعبا ...

وأعمل كليم السوط فترجحت المركبة ، ثم أعمله ثانية فارتجفت ، ولما تحركت بعد السوط الرابع ، غطى المهندس أذنيه بياقته ، وهام فى أودية الذكرى .

ولم ير فى الطريق بعد ذاك ولا فى السواق كليم أدنى شىء يخاف أو يحذر ..

أنيوتا

للقصصى الروسى تشيكوف

كان « ستيفان كلوتشكوف » شابا فقيرا من طلبة السنة الثالثة بمدرسة الطب ، وكان يسكن أرخص غرفة بإحدى الدور المفروشة المعدة لسكنى الفقراء بأجور زهيدة ، وكانت تشاركه فى تلك الغرفة – تعاونا على المعاش – فتاة تنال رزقا طفيفا من صناعة التطريز ، تستدر القوت من سم الخياط ، وكانت تنفق جميع كسبها على عيشتهما المشتركة ، تخفف بذلك من وطأة الدهر على شريك حياتها « ستيفان كلوتشكوف ».

كان ستيفان هذا يتمشى فى الغرفة إقبالا وإدبار ، يكد الذهن فى حفظ دروس التشريح ، وقد جف حلقه ولسانه وعرق جبينه لفرط ما جهد نفسه فى استظهار تلك الدروس .

وكانت تجلس على مقعد بجانب النافذة المرصعة بالثلج ، شريكة غرفته وعيشته ، فتاة فى الخامسة والعشرين من عمرها ، نحيفة قصيرة صفراء ، ذات عينين زرقاوين فاترتين ، خاشعتين ، لقد كانت منحنية على ياقة قميص تطرزها بخيط أحمر وكانت لشدة سرعتها كأنها مع « الزمن » فى سباق ... لقد دقت ساعة المنزل اثنتين بعد الظهيرة ، والغرفة لا تزال قذرة مشوشة النظام ، لم تنظف بعد ولم ترتب ... ملاءة الفرش مجعدة ، والمخدات مبعثرة ... والحجرة خليط مشوش من الكتب والملابس والأوراق الممزقة بينها طشت غسيل تطفو عليه رغوة الصابون وتعوم أعقاب السجاير .

واستمر طالب الطب يقول ويكرر :

الرئة اليمنى تتكون من ثلاثة أجزاء ... وحدودها ... الجزء الأعلى يمتد من ناحية جدار الصدر الأمامى إلى الضلع الرابعة أو الخامسة ... ومن ناحية الجنب

إلى الضلع الرابعة ... ومن ناحية الخلف إلى اللوح الفقرى ..

ثم إن « كلوتشكوف » طالب الطب ، رفع عينيه تلقاء السقف يحاول أن يصور لنفسه فى الفراغ ما كان يقرؤه في الكتاب ، ولما أعياه أن يكون عن ذلك صورة واضحة جلية ، شرع يلمس بأصابعه موضع أعلى الرئة من أضلاعه ، وقال :

– قبح الله هذه الأضلاع ، إنها أشبه شىء بأوتار البيانو ، لا يزال يلتبس عليك بعضها ببعض ، ثم لا تستطيع التمييز بينها إلا بعد طول المران والحنكة ، ولا بد من دراستها على الهيكل العظمى وعلى الجسم الحى ... أنيوتا ! إلىّ يا أنيوتا ، هلمى أدرس تلك الأضلاع المشؤومة على جسدك.

فألقت أنيوتا ياقة القميص التى كانت تطرزها ، ونزعت ثيابها ونصبت قامتها ، وجلس « كلوتشكوف » بإزائها وقطب حاجبيه وشرع يعد أضلاعها ، وقال :

– باسم الله الحى القيوم ... أين الضلع الأولى ... لا أستطيع أن أجدها إنها لكامنة وراء لوح الكتف ... وهذه هى الضلع الثانية لا محالة ... نعم ... وهذه هى الثالثة ... وهذه الرابعة ... إحم ! ... وهذه ما بالك تتلوين كالأفعى ؟ ... اثبتى لا ثبت الله قدمك !

– إن أصابعك لباردة ... إنها لتقع على كالثلج .

– لا بأس .. إنها لن تقتلك ... لا تتلوى ! ... هذه لا بد أن تكون الضلع الثالثة ، وإذن ... تكون هذه الرابعة ... إنك لترين كالنحيفة المهزولة ، ومع ذلك لا يكاد الإنسان يلمس لك أضلاعا ، إنك كبنات عرس ، لا عظام فيك ... هذه هى الضلع الثانية ... وهذه الثالثة ... ما أصعب هذا الدرس – درس الأضالع – إنه لمشكل عويص لا يعرف له أول من آخر ، ولا بد لى أن أستبينه جليا ... فما علىّ إذن إلا أن أرسمه بيدى ... أين القلم الرصاص ؟

وتناول « كلوتشكوف » قلمه الرصاص ، وخط على صدر « أنيوتا » وجنبيها خطوطا متوازية محاذية لأضلاعها ، وصاح طربا :

– جميل جدا ! فى منتهى الإبداع ! الآن أستطيع أن أجسك ! قفى !

فوقفت « أنيوتا » ورفعت رأسها ، وشرع الطالب المجتهد يجسها وبلغ من

انهماكه فى دراسته أنه لم ينتبه إلى ما أصاب الفتاة من وخزات البرد القارس . ولا نظر إلى شفتيها وأنفها وأصابعها كيف أفرطت بها زرقة الزمهرير ، وظلت الفتاة تجف وترتجف وهى مع ذلك تشفق أن يفطن الشاب إلى رعشتها ، فينصرف عما هو فيه من التخطيط والجس والدراسة فيرسب فى الامتحان .

ولما فرغ كلوتشكوف من مهمته قال :

– لقد وضح الصبح لذى عينين ، وقد برح الخفاء ، وفهمت الموضوع كما ينبغى ، البثى مكانك يا نيوتا ، لا تتحركى ، ولا تمسحى تلك الخطوط ، ودعينى أحفظ ما بقى .

واستأنف الطالب الطواف فى أنحاء الحجرة يتلو ويردد ، وظلت أنيوتا جالسة مكانها منقبضة ترتعش قرة ، مخططة الصدر والجنبين كأنها قد وشمت ، وكان من دأبها الصمت ، فلبثت صامتة ، تفكر ثم تفكر .

وأنيوتا هذه منذ بانت من أهلها ودار أهلها وتشردت ، واضطرت إلى سكنى الغرف المفروشة مابرحت سبع سنين تنتقل من غرفة إلى أخرى عرفت فى خلالها خمسة من طلاب المدارس العليا خلاف « كلوتشكوف » ، وقد عاشت مع كل من هؤلاء ردحا من الزمان ، وكلما يتخرج واحد يتركها ويمضى فى طلب المنصب والجاه والثروة ، وتبقى هى منفردة مهجورة على حد قول القائل :

فصرت كعش خلفته فراخه بعليـــــــاء فرع الأثلة المتهشم

وكان أحد هؤلاء يعيش فى باريز ، واثنان منهم طبيبين ، والرابع مصورا ، والخامس – وكان قد ساعفه الحظ – أستاذا بإحدى الجامعات ، وسادسهم كلوتشكوف ... وما هى إلا عشية أو ضحاها ، حتى يتخرج ويترك عشه إلى الفضاء ، وأمامه المستقبل أفيح زاهر ... على أن الحاضر لم يكن زاهرا ولا أفيح ، بل ضيقا مظلما ، كان كلوتشكوف فى تلك الساعة معدما من الدخان ومن الشاى ، لم يبق عنده من ذخيرة الأمس إلا أربع قطع من السكر ، فكان حتما على أنيوتا أن تكمل تطريزها ثم تذهب به إلى طالبته ... وبالربع روبيل الذى تؤجره تشترى شايا ودخان .

* * *

دق الباب وسأل سائل :

« أأدخل ؟ »

فسرعان ماتناولت الفتاة رداء فأرسلته على كتفيها .

ودخل « فيتسوف » المصور وقال للطالب :

– لقد جئتك فى حاجة .

ثم جعل ينظر من جمرتين متأججتين من تحت ناصيته الكثيفة المنسدلة فوق جبينه وأنفه نظرات وحش ضار .

– لقد جئتك فى حاجة ، أفأنت قاضيها ؟ أقرضنى فتاتك الحسناء ساعتين من الزمان ! إنى أعالج رسم صورة ، ولست والله مستطيعا ذاك بلا نموذج ، فلتكن نموذجى .

قال كلوتشكوف :

– بكل ارتياح ، اذهبى معه ياأنيوتا .

فهمست أنيوتا بصوت خافت :

– لا أنسى ما جرى لى المرة السالفة هنالك ..

فقال كلو تشكوف :

– دعيك من هذه السخافات ، إنه لا يريدك لغرض سيء وإنما من أجل الفن ، والفن مقدس ، فلم لا تساعديه ما دمت قادرة ؟

فشرعت أنيوتا تلبس ثيابها .

وقال كلو تشكوف للمصور :

– إلهة الحب ، إنه موضوع ممتع ، على أنى أجده صعبا مستعصيا ، ولقد حاولت التصوير من نماذج شتى ، وبالأمس جعلت نموذجى فتاة مليحة ، ولكنى وجدت ساقيها زرقاوين ، فكلمتها فى ذلك ، فقالت إن جوربها الأزرق قد نفض عليهما من صبغته ... ولكنى أراك تقتل نفسك مذاكرة وحفظا ، أما إن ذخيرة صبرك لا تنفد .

– إنما هو الطب ، لا تنال منه الأقل إلا كدا وجهدا ..

– هذا وأراك تعيش هنا أسوأ عيش وأقذره يرحمنا الله ، لعيشة الكلاب أنظف من هذا وأنقى .

– ماذا تعنى ؟ أما أنه لا حيلة لى فيما أكابد وأعانى ، أنا لا أنال من أبى سوى اثنى عشر روبلا فى الشهر ، ومن المحال أن تعيش بهذا القدر الطفيف كما تهوى .

قال المصور وعبس تقززا واشمئزازا :

– نعم ... نعم ... ولكنك تستطيع على أية حال أن تجعل غرفتك أنظف وأثاثك أحسن نظاما .. إن الرجل المثقف المهذب لخليق أن يكون على شىء من سلامة الذوق .. أليس كذلك ؟ والله يعلم أى حجرة هذه ! الفراش مشوش ... والملاءة مبقعة ، وهذه الأوساخ والمقاذر .. وعصيدة أمس لا تزال فى الصحون .. تفوح !

قال الطالب مرتبكا :

– إنه لكما تقول : ولكن أنيوتا لشدة انشغالها بالتطريز الذى تكسب منه قوتنا لاتجد من الوقت متسعا لترتيب المكان .

ولما ذهب المصور بالفتاة استلقى الطالب على المتكأ وشرع يحفظ ثم أخذته سنة من النوم ، ولما انتبه بعد ساعة وضع ذقنه على يده وأطرق يفكر فى سوء حاله ، وتذكر قول المصور أن الرجل المثقف المهذب لخليق أن يكون على شىء من سلامة الذوق ، وهنا تجلت له غرفته لأول مرة فى أبشع مظاهر التشوش والقذارة ، ثم تجلى له مستقبله فى ناظر الخيال أنيقا مشرقا بهيجا ، وتخيل يوما يصبح فيه مشهورا تغص بالوفود عيادته ، وتزدان بالزوجة الحسناء حجرته ، ونظر إلى طشت الماء القذر تطفو عليه رغوة الصابون وتعوم أعقاب السجاير فعرتـه قشعريرة وأغمض أجفانه اشمئزازا ، وارتفع كذلك فى خياله شبح أنيوتا سمجا قبيحا ، فعزم على فراقها مهما كلفه ذلك .

ولما عادت من عند المصور ونزعت رداءها نهض من مكانه وقال لها :

– التفتى إلى يا بنيتى ، اجلسى واسمعى لا بد لنا أن نفترق ! فالواقع أنى لا أحب أن أعاشرك منذ الآن .

لقد عادت أنيوتا من لدن المصور متعبة منهوكة ... وكان طول الوقوف — كنموذج — قد أشحب وجهها وأضناه ، فأطرقت واجمة لا تفوه بكلمة ، سوى أن شفتيها ظلتا ترتجفان .

واستمر الطالب :

— قد تعلمين أنه لا بد من افتراقنا عاجلا أو آجلا ، وأنت يا بنيتي ذكية لبيبة ، وإنك لتفهمين ما أقول ...

فلبست أنيوتا رداءها ثانية ، وطوت تطريزها ولفته في ورقة وجمعت إبرها وخيوطها ، وكل ذلك في أتم صمت وسكينة — وتناولت من فوق النافذة قطع السكر الأربعة (كل ما يملك الطالب من حطام الدنيا) فوضعتها على المائدة بجانب كتبه .

وقالت له في رفق وحنان :

— هذا سكرك ...

ثم أدارت وجهها لتخفي دموعها المنسكبة ، وقال كلوتشكوف :

— فيم البكاء يا بنيتي ؟

وأقبل يتمشى في الغرفة جيئة وذهابا وبه من الحيرة والاضطراب ما به ، وقال :

— حقا ، إن هذا منك لعجيب ... ويحك ! أما تعلمين أنه لا بد لنا من الافتراق يوما ما ، وأنه ليس في الإمكان أن نبقى معا إلى الأبد ...

وجمعت الفتاة كل متاعها وواجهته لتحييه تحية الوداع الأبدي ، عند ذلك خانه الصبر ومست كبده لوعة حزن على الفتاة ، فقال في نفسه :

— ما ضرني لو أبقيتها معي ، ولو لأسبوع واحد ، أما أنه لا بأس من بقائها إلى حين !

وساءه ما بدا له من ضعف عزيمته وخوره ، فصاح إليها بشدة وخشونة :

— تعالي ، مالك واقفة هنالك ؟ إن كنت ذاهبة فاذهبي ، وإلا فاخلعي نعليك وردائك وابقي ههنا ، لا بأس من بقائك !

فنزعت أنيوتا رداءها وحذاءها فى صمت وخفية كالسارق الذى يحاذر أن يرى ، ثم مسحت دموعها وأنفها فى خفية أيضا ، وتنهدت فى خفية ، وبمنتهى الترفق والسكون وعلى مشطى قدميها مشت إلى النافذة ، فأخذت مكانها المعهود .

وسحب الطالب كتاب التشريح واستأنف التطواف فى الحجرة ، يقول ويردد « الرئة اليمنى ، تتألف من ثلاثة أقسام ... الأعلى ويمتد على جدار الصدر الأمامى إلى الضلع الرابعة أو الخامسة ...

ليزا

كان الفتى « أليكس » الابن الأوحد لسرى من سراة الروس يدعى « إيفان » رب ضياع وأملاك ، وكان الشاب « أليكس » قد أتم دراسته بإحدى الكليات وعاد ليعيش فى قصر أبيه عيشة المترفين وكان جميلا وضىء الطلعة رشيق القد . لا تزال الفتيات تشرئب إليه وتطمع وإنه عنهن لمعرض . لا يأبه لهن ولا يكثرث فكن يؤولن ذلك بأنه لابد أن يكون قد تعلق بمعشوقة شغلت باله وملأت قلبه . والواقع أن أولئك الفتيات كن يتداولن بين أيديهن نسخة من بعض رسائل هذا الشاب ، وهذا نصها إلى س . ف . موسكو ، أمام دير ألكفسكى ، ومن فضلها تسلمها إلى أ . ن . ر »

لقد حارت الفتيات فى أمر ذلك الفتى — إذ كان أول فتى رأينه يصف الهموم والأشجان والقلوب الدامية . والجفون الهامية . وأول من لبس خاتم الحداد منقوشا على فصه رمز الموت .

وكان أشد الجميع تعجبا من أمره واهتماما لشأنه الفتاة « ليزا » ابنة جاره السيد « جريجورى » — مع أنها لم تكن رأته قط وذلك بسبب ما كان بين أبويهما من تقاطع قديم العهد .

كانت « ليزا » فى السابعة عشرة من عمرها وضاءة الطلعة ساحرة الطرف دعجاء المحاجر . ميالة للعب واللهو جمة الخلاعة والمرح والفكاهة . وكان لها وصيفة تدعى « ناسية » فى مثل سنها وطيشها وخفتها . وكانت مستودع أسرار سيدتها فى تدبير الخطط والحيل .

قالت الوصيفة « ناسية » لسيدتها ذات صباح : « أتأذنين لى يا سيدتى فى الخروج لزيارة صديقة لى ؟ »

« لا مانع . ولكن أين تذهبين ؟ »

« إلى دار السيد « إيفان » والد « أليكس » فإن امرأة طاهيهم تحتفل اليوم

بعيد ميلادها ، وقد جاءت أمس فدعتنا إلى الوليمة »

قالت ليزا : « هذا عجيب جدا ! سادة البيتين فى صدام ولدام . وخدم البيتين فى مدام وندام ! »

« ما للسادة ولنا ؟ وبعد فإنى تابعة لك لا لأبيك . وما أحسب أن بينك وبين « أليكس » عداوة . فدعى الكبار فى خصامهم ما سرهم »

قالت ليزا : « اذهبى يا ناسية وانظرى « أليكس » وافحصيه فحصا دقيقا ، ثم عودى فصفيه لى وانعتيه كما هو لا تزيدى ولا تنقصى »

وكذلك مضت الوصيفة وأقامت ليزا تنتظر إيابها .

وعادت « ناسية » مساء فقالت : « لقد أبصرت « أليكس » ياليزا ووفقت إلى ملازمته سحابة اليوم »

قالت ليزا : « وهل هو من حسن الصورة وجمال الطلعة على ما يصفون ؟ »

« وفوق ما يصفون يا ليزا . أهيف رشيق القد ممشوق القوام أغر أبلج وضاح الجبين »

« أحقا ما تقولين ؟ لم أكن أحسبه كذلك . وهل رأيت عليه سيما الحزن والكآبة كما يزعمون ؟ »

« الأمر على نقيض ذلك . فما رأيت أفرح منه ولا أمرح ولا أكثر دعابة ولا أغزر فكاهة ، ولقد بلغ من فرط دعابته أنه اقترح علينا نحن الفتيات أن يطوف علينا فيعانقنا ويقبلنا جميعا »

قالت ليزا : « ولكنهم يقولون إنه عاشق مشغول بمن يهوى عن الناس طرا »

« لا علم لى بذلك ولكن المرجح أن هذا الزعم باطل — بدليل أنه كان لا يزال يرشقنا بنظراته ويديم إلينا كرة ألحاظه ولم يسؤنا منه ذلك — إذ كانت ألحاظه تنبعث عن أحلى عينين فى أجمل محيا »

قالت ليزا : « وماذا يقول عنه خدامه ؟ »

« يقولون إنه غاية فى الظرف والرقة — ما شئت من عذوبة لقاء وحلاوة أنس وسحر بيان — وأنه لا عيب فيه سوى فرط افتتانه بالغوانى . على أنى لا أرى فى

عيبا كبيرا »

قالت ليزا وتنفست الصعداء : « من لى بأن أراه ! »

« وماذا يمنعك يا سيدتى ؟ إن قريته ليست منا ببعيد . إنها منا على ثلاثة أميال . فاذهبى ثمت فقابليه وحادثيه كما تشائين »

قالت ليزا : « كلا كلا ! هذا ما لا يكون أبدا . ولئن فعلت ذلك حسب أنى به مفتونة وفى حبه مستهامة ، وأنى أطلبه وأعدو وراءه . هذا فضلا عما بين أبوينا من النفرة والجفاء مما يحول دون لقيانا وائتلافنا . لقد سنح لى خاطر يا ناسية وهو أن أنبرى له فى زى فتاة فلاحة ! »

قالت ناسية : « يالها من حيلة ! اذهبى إلى قرية « أليكس » فى زى الفلاحات واعرضى له . وأنا الكفيلة أنه سيحفل بك ويكترث »

قالت ليزا : « ولا تنسى أنى حاذقة بحكاية لهجة الفلاحات وألفاظهن . ما أبدع هذه الحيلة وما أشد فرحى بتوفيقى إليها »

وفى الصباح شرعت ليزا فى إنفاذ تدبيرها ، فاستحضرت ثياب الفلاحات وخاطت لنفسها منها رداء ووشاحا . وجربتهما على نفسها أما المرآة فأعجباها أيما إعجاب . وتبين لها أنها فى تلك الثياب الريفية أملح منها فى أفخر حللها وأبهر حليها . ثم أخذت تدرب نفسها فى المرآة على أساليب الفلاحات فى التحية والخطاب والحركة والإشارة والصوت واللهجة وتعطى نفسها دروسا فى تلك الحركات . تمشى أمام المرآة إقبالا وإدبارا وتنحنى تحية وتلوى بالسلام بنانها ، ثم توالى هز رأسها على نحو ما تفعل الهرة الصينية ، ثم تتكلم بلهجة الريف وتضحك من نفسها . ونالت حركاتها هذه مزيد الاستحسان من وصيفتها ناسية » .

وكذلك ذللت الآنسة ليزا كل عقبة سوى واحدة . وهى أنها لم تستطع أن تسير حافية القدم . لقد جربت ذلك فى ساحة القصر ولكن الحصى خدش عقبيها وأدمى أخمصيها . وكيف لا يفعل بها ذلك وإنها لكما قيل :

قطرات النسيم تخدش خديه ولمس الحـــرير يدمى بنـــانه

فوقفت لا تستطيع حراكا حتى أسعفتها وصيفتها ، وكذلك استحضرت

خفين من الأخفاف الريفية .

ولما هبت نسمات السحر ورق جلباب الظلام ، تسللت ليزا من خدرها وهمست فى أذن وصيفتها بكلمات تقولها لمربيتها إن سألتها عن علة غيابها . وانحدرت فى السلم الخلفى إلى الحديقة ومنها إلى الروض المجاور .

لاح الفجر وضرج وجنة الأفق أرجوانا . وكلل جبين الشرق ذهبا وعقيانا . وكأنما السحب فى صفوفها موكب يرتقب من طلعة الشمس مليكا بجواهر الضياء متوجا . وفارسا فى شكة الشعاع مدججا . ولقد كان فى رونق الصباح . ولألاء حبب الطل فى أقداح الأقاح . وفى خفق أذيال النسيم . وهتاف الطير بالترنيم والتنغيم . ما أفاض السرور على قلب الفتاة وأشاع الطرب فى جوانحها .

وأغذت السير تطوى بساط الأرض طيا ، خيفة أن يعترضها عائق حتى خرجت من دائرة أملاك أبيها . ودخلت الغابة التى تفصلها عن ضيعة جارهم — والد الفتى أليكس — وإذ ذاك خفضت من سيرها . وعولت أن ترقب ثمت ظهور الفتى .. وهنا اشتد خفقان قلبها وما تعرف لذاك من علة . خبرنى أيها القارىء .. ألا ترى أن ما يصحب نزواتنا أيام الشباب من عوامل الخوف والفزع هو أمتع ما فيها .. هو لذتها وفتنتها ؟

استرسلت الفتاة فى مطربات الذكريات ومفرحات الأمانى ، ثم ذهبت فى أعماق الغابة تسلك بين ألفافها طريقا مذللا مظللا يضرب عليه الدوح سرادقا من مشتبك العيدان ومؤتشب الأغصان .

وإنها لكذلك إذ أقبل نحوها كلب صيد بديع الشكل يثب وينبح فريعت وصاحت ، وإذ ذاك سمعت صوت إنسان يزجر الكلب ثم طلع عليها من بين الشجر صياد صغير .

فقال لها : « نفسى فداك يا غادة . لا تراعى . إن كلبى لمؤدب مستأنس »

فأفرخ روعها . ثم قالت وتظاهرت بشىء من الخوف يشوبه شىء من الخفر :

« ولكنى يا سيدى أكاد أموت رعبا . وكلبك هذا متنمر مستأسد يكاد يتميز غيظا . شد ما أخافه »

وهنا جعل أليكس (قد عرف القارىء أنه أليكس) يديم إليها النظر ثم قال :

« إن كنت خائفة فاسمحي لى أن أصاحبك فى سيرك . أتأذنين لى فى ذلك ؟ »

قالت ليزا : « ومن يمنعك من ذلك ؟ كل إنسان حر طليق يروح ويغدو أينما شاء »

قال أليكس : « ممن الفتاة ومن أين ؟ »

قالت ليزا : « من قرية بريلوتشينا وابنة حدادها وسيلى » وقد جئت ههنا لأجنى من بقول هذا الروض وأكلائه »

وكانت تتأبط حقيبة فقالت : « وأنت يا سيدى من أى القرى ؟ أحسبك من « توجيلوفو »

قال أليكس : « أجل . إنى خادم اللورد الصغير أليكس ابن سيد القرية »

أراد أليكس بأكذوبته هذه أن يفهم الفتاة أنه من طبقتها وفى مستواها . ولكن ليزا تبسمت وقالت :

« لست من البله والسذاجة كما تخالنى . أنا أعتقد أنك اللورد الصغير نفسه »

قال أليكس : « وما يحملك على هذا الاعتقاد ؟ »

« أسباب كثيرة »

« ولكن »

فقاطعته الفتاة قائلة « أتريد أن تخدعنى عن الحقيقة ؟ أتحسبنى لا أميز بين السيد والخادم ؟ »

لما سمع أليكس من ليزا هذا الكلام أطربه صوتها وسبته خفة روحها ورقة شمائلها وحدة ذكائها الممزوجة بعذوبة سذاجتها فصبا إليها وأولع بها . ولما كان من شأنه إسقاط الكلفة والاحتشام بينه وبين طبقة الفلاحات،دنا منها وهم أن يلثم ثغرها ولكنها فرت وأجفلت واستشعرت الجد والوقار ، وقالت :

« إذ شئت دوام الصداقة بينى وبينك فلا تنتهك فيما بيننا حرمة الأدب »

قال أليكس « جعلت فداك ، أخبرينى يا غادة من ذا الذى علمك كل هذا

الأدب والحكمة ؟ ومن ذا الذى نثر لؤلؤ اللفظ الرخيم ، من ثنايا لؤلؤ ذلك الثغر النظيم ؟ »

حينذاك أدركت ليزا أنها تعدت حدود شخصيتها المزيفة ، وبرزت من ثوب تنكرها المستعار ، فسرعان ما توارت فى حجابها ، وتداركت أمرها ، فقالت :

« أو تنكر على ما تراه منى من آيات العلم والاطلاع ؟ لا عجب فلقد رأيت وسمعت شيئا كثيرا من محاورات ساداتى الأرسطوقراطيين . ولكنى أرانى أطلت الحديث معك ، وقد آن لى أن أجمع من البقول والأعشاب حاجتى فامض فى سبيلك وذرنى وشأنى »

وهمت بالانصراف ولكن أليكس منعها ممسكا بيديها ــ قال :

« فدتك نفسى من ساحرة فتانة . نبئينى باسمك يا غادة »

قالت ليزا وحاولت أن تتملس من قبضته :

« اسمى ألكولينا . ولكن دعنى يا سيدى فقد آن أن أعود إلى منزلى »

قال أليكس « اسمعى يا ألكولينا لأزورن يوما ما أباك الحداد « وسيلى »

قالت ليزا « ماذا تقول ؟ لا تفعل ذلك ولا يهمسن بخلدك أن تفعله . ولو علم أبى أنى كنت أحادث رجلا من الأشراف بخلوة فى ظلال الغابات لأوسعنى سبا وضربا »

« ولكن لابد من لقائك مرة أخرى . »

« لا بأس سآتى ههنا ثانيا لجمع البقول »

« ومتى ؟ »

« غدا إن شئت »

« سيدتى ألكولينا . بودى لو أقبل وجنتيك ولكنى أهابك . غدا نلتقى فى مثل هذه الآونة . ألست تعديننى ذلك ؟ »

« بلى »

« وما أحسبك تخدعيننى ؟ »

« كلا »

« أقسمى »

« أقسم بروح القدس لن أخدعك »

ثم افترقا .

عادت ليزا إلى دارها فغيرت زيها . وجعلت تجاوب أسئلة وصيفتها« ناسية » مجاوبة من به ذهول وتدله .

أما أليكس فراح من فرط الطرب فى نشوة عازب اللب شارد العقل ولم يذق النوم ليلته .

وباكر المكان المعهود والطير فى وكناته ولبث يرتقب الفتاة ساعة من الزمان خالها دهرا . وأخيرا لمح من خلال الأعشاب ذيل رداء أزرق ، فهرع إلى الفتاة ألكولينا وأقبل يشكر لها حسن وفائها بلسان دافق وقلب خافق ، وأضاءت محيا الفتاة ابتسامة كان يشوب رونقها ظل من الهم والأسى . فسألها أليكس عن علة حزنها ، فقالت ليزا إنها جد آسفة على ما كان منها أمس من اختلائها به واسترسالها معه فى الحديث مما لا يتفق مع عفاف العذارى . وإنها لم تأت الساعة إلا برا بقسمها المقدس . وإنها لن تراه بعد الآن مطلقا وترجوه أن ينقض أسباب علاقة لن يكون من ورائها إلا الشر .

فلما سمع الفتى كلامها كاد أن يلفظ نفسه ثم استجمع لبه وأبرز جماع ما عنده من حجة وبرهان ليصرف الفتاة عما اعتزمته من مقاطعته،وحاول أن يفهمها شرف غايته وفرط خضوعه لها وإذعانه . وضرع إليها أن لا تحرمه رؤيتها ولو مرة فى الأسبوع . وكان ينطق عن حرقة كامنة ، ولوعة باطنة . ولاشك مطلقا فى أنه كان إذ ذاك عاشقا مغرما . وصبا متيما . وأصغت إليه ليزا فى صمت وسكينة .

ثم قالت « أعطنى عهد الله وميثاقه أنك لن تطرق قريتنا لتبحث عنى مطلقا . ولن تحاول لقائى إلا فيما أحدده لك من المواعيد . » فعاهدها على ذلك وجعلا يجوسان خلال الغابة ـ يتجاذبان أطراف المحاورة ، ويتسالبان أهداب المذاكرة ـ إلى أن قالت ليزا

« لقد آن أن أعود إلى دارنا »

لم يمض على الفتى والفتاة شهران حتى تجاوز بهما الغرام كل حد . وجن كل واحد منهما بصاحبه جنونا . وكان كلاهما يرى أن أمر الزواج بينهما مستحيلا . فكان أليكس على الرغم من فرط شغفه وهيامه يعلم أنه ليس فى الإمكان أن يتزوج قروية وضيعة النسب . وليزا تعلم أن ما بين أبويهما من الإحنة والضغينة يحول دون ذلك الزواج .

فى ذات يوم من أيام الخريف خرج السيد « إيفان » والد « أليكس » للتنزه على صهوة جواده ومعه ثلاثة أزواج من كلاب الصيد ورجلان من حراس الصيد . ونفر من الغلمان فى أيديهم المقارع .

وفى تلك الآونة كان جاره وعدوه الألد « جريجورى » والد الفتاة « ليزا » قد خرج للتنزه على فرسه لتعهد مزارعه .

وكذلك التقى الخصمان فى ألفاف الغابة فجأة . فعمد « إيفان » إلى خصمه « جريجورى » فحياه فى أدب وحفاوة . ورد عليه « جريجورى » السلام فى غلظة وجفاء وهو فى ضميرة يلعن الساعة التى جمعته وخصمه فى صعيد واحد .

فى هذه الآونة نجم أرنب من خلال الأشجار فصاح « إيفان » صيحة شديدة وأطلق كلاب الصيد ثم انبرى هو وحارس صيده فى أثر الطريدة ، وكانت فرس « جريجورى » لم تتعود الصيد فريعت فأجفلت ثم قذفت براكبها « جريجورى » فهوى إلى الأرض فأسرع إليه « إيفان » فأنهضه ثم دعاه لمرافقته إلى داره . فلم يستطع رفض دعوته إذ أحس أن لجاره عليه منة قد وجب شكرها .

وكذلك عاد إيفان إلى داره مكللا بالنصر والفخار يقتاد الأرنب ويقتاد أيضا خصمه الألد جريحا مرضوضا لا يكذب من يسميه أسير حرب وأخيذ هيجاء . تناول الجاران الغذاء معا وأخذا يتحادثان وقد تحللت أحقادهما وسلت أضغانهما . ولما هم « جريجورى » بالانصراف أعاره « إيفان » إحدى مركباته إذ كان لا يستطيع امتطاء فرسه ولم يبرح حتى وعده إيفان أن يرد إليه الزيارة من غده مستصحبا نجله « أليكس » وكذلك ترى أن إجفالة من فرس جموح محت عداوة قديمة لم يستطع محوها كر الحقب والدهور .

ولما أفضى جريجورى إلى داره استقبلته ليزا فصاحت « مالك تعرج ياأبتاه .

أين فرسك ؟ ومن أين هذه المركبة ؟ ؟ » .

فقص عليها أبوها كل ما جرى له مع جاره وباغتها فى نهاية الحديث بقوله أن إيفان وابنه قادمان فى الغد لتناول الغداء على مائدتهم.فاصفر وجه الفتاة وصاحت « ماذا تقول ؟ إيفان وابنه يتناولان الغداء عندنا غدا ! هذا ما لا يحتمله انسان ! افعل ما بدا لك يا أبى ولكن. . لا تلزمنى أن ألقاهما فذلك مالا يكون أبدا »

قال جريجورى « ما بالك ياصبية ! هل عزب عقلك وضاع صوابك ؟ خبرينى متى كان من طبعك كل هذا الحياء والخجل ؟ على رسلك وثوبى إلى رشدك »

قالت ليزا « كلا يا أبى . لن أظهر أمام إيفان وابنه ولو سيقت إلى الدنيا بحذافيرها » .

فسكت الرجل إذ علم إنه لا فائدة من مجادلتها ثم تركها ومضى .

وآبت ليزا إلى حجرتها فاستدعت خادمتها ناسية فعقدتا جلسة سرية وطفقتا تتشاوران فى ذلك الطارىء المباغت وماذا تكون الحال إذا أبصر الفتى أليكس فى السيدة المهذبة ليزا فلاحته ألكولينا ــ وماذا يكون حكمه عليها بعد ذلك ؟ وبينما هما فى قيل وقال سنحت للفتاة خاطرة فيها حل تلك المشكلة فأفضت بها إلى ناسية واتفقتا على تنفيذها .

ولما اجتمعت الفتاة بأبيها فى الغداة على مائدة الإفطار قال لها :

« ألا تزالين مصرة على اجتناب السيد « إيفان » ونجله ؟ »

« سألقاهما ولكن على شرط – وذلك أنه فى أى هيئة كان ظهورى أمامهما وفى أى زى وملبس فلا تبدين أدنى تسخط أو غضب » .

فاستضحك الرجل وقال « أظنها ألعوبة جديدة من ألاعيبك . لا جرم ياليزا إنى موافق فافعلى ما بدا لك أيتها الماجنة الفتانة » .

فى الساعة الثانية بعد الظهر قدم السيد إيفان ونجله فى مركبة يجرها ستة جياد يحفهما الخدم والحاشية . واستقبلهما جريجورى » فى غرفة السماط . ولما اطمئن بالثلاثة المجلس – أخذ الشيخان يتذاكران أيام الصبا وعهد الشباب

وظل « أليكس » يدمن الفكرة فى ابنة جريجورى التى لم يكن قط أبصرها (فيما كان يتوهم) وجعل يرتقب دخولها عليه بفارغ صبر لكثرة ما سمع عن بدائع محاسنها – وهو مع اشتغال قلبه بحبيبته ألكولينا اشتغالا لم يدع فيه مجالا لغيرها - فإن روحه القلقة المتأججة كانت لا تزال تخف وتنشط إلى ملح الجمال أينما كان

كالعين منهـومة بالحسن تتبعه والأنف يطلب أقصى منتهى الطيب

فتح الباب ودخلت ليزا . وهم أبوها أن يقدمها إلى ضيفيه ولكنه حينما أبصر هيئتها التى شاءت أن تظهر فيها إذ ذاك ارتد حائرا دهشا وعض على شفتيه غيظا . لقد راعه ودهاه أن أبصر ليزا الحسناء « الخمرية اللون » قد أكملت على بشرتها الصافية الرقيقة أكثف طبقات من الطلاء الأبيض والأحمر وحملت نفسها من أثقال الحلى والزخارف ما يكل عن حملة الجمل الأكوم . وكذلك كان من المستحيل على أليكس أن يميز حبيبته فى شخص تلك السيدة المحتجبة وراء أكثف جدار من الأصباغ والألوان – قد ازدحمت عليها الحلى والزخارف ازدحام النجوم الشوابك فى أديم السماء . والحبب المتكاثر على صفحة الماء .

انحنى السيد « إيفان » على يد الفتاة « ليزا » فقبلها وفعل الفتى مثل أبيه على الرغم منه . غير أنه لما لمس أناملها خيل إليه كأنها ترتجف .

واستسلم أبوها لقضاء الله فسكت على مضض ـ بل جعل يتصنع السرور والضحك .

جلس الجماعة إلى الخوان ومثل أليكس دوره الذى لا يزال يمثله فى حضرة السيدات من التظاهر بقلة الاكتراث وغروب الذهن وانشغال البال . ومثلت ليزا دورها من التكلف والتصنع والرياء فجعلت تتكلم بالفرنسية وتلفظ الكلمات من خلال أسنانها – وأبوها ينظر إليها ولا يفهم غرضها من هذا المسلك .

وأخيرا انصرفوا عن المائدة واستأذن الضيفان وانطلقا .

سرت ليزا بنجاح حيلتها .

وفى غداة الغد أسرعت إلى لقاء أليكس فى الغابة وفاء بسالف وعدها .

ولما رأته فاتحته قائلة « يقولون إنك كنت ضيفا على سيد أهل قريتنا ـ ما

رأيك فى ابنته ليزا ــ سيدتنا الصغيرة ؟ »

« لم أحفل بها ، بل لم ألتفت إليها قط » .

« هذا مما يؤسف له » .

« ولماذا »

« لأنى أردت أن أتأكد منك صحة ما يزعمونه من إفراط الشبه بينى وبين السيدة « ليزا » .

« هذا كذب صراح ! فض الله أفواههم إن كان هذا ما يزعمون – إن « ليزا » تلك لفى غاية من القبح والسماجة » .

« لا تقل ذلك يا سيدى إن مولاتنا الصغيرة « ليزا » لآية فى الظرف والملاحة . وأين أنا منها وما أصلح أن أكون لها خادمة » .

« أقسم بالليل والنهار . والفلك المدار . أنك أجمل منها ألف مرة ــ بل أجمل نساء هذا العالم » .

ثم أخذ ينعت مقابح مولاتها ليزا » بما أثار ضحكها وملأها طربا وعجبا »

قالت « هبنى أجمل منها صورة – فأين من علمها جهلى – ومن ذكائها غبائى ومن ظرفها جفائى ؟ »

قال أليكس « لا تقولى ذلك ، فلأنت والله وأذكى منها قلبا ، وأبرع أدبا ، ولست بالجافية الغبية كما تزعمين ، ولئن امتازت عنك ليزا بالقراءة والكتابة ، فما أيسرهما ، لأعلمنك فى أقرب وقت » .

– إنى إلى ذلك محتاجة ومالى لا أتعلم القراءة وأنت المعلم » .

قال أليكس « فلنشرع فى الحال » .

ثم افترشا العشب واستخرج أليكس من جيبه قلما وقرطاسا . وبدأ يعلم ألكولينا حروف الهجاء . فسرعان ما تعلمتها وجعل أليكس يتعجب من حدة ذكائها وسرعة حفظها .

وفى اليوم التالى شرع يعلمها الكتابة . فأوهمته بادئ بدء أن القلم فى كفها مستعص – ولكنه مالبث أن انقاد وأحكم رسم الحروف .

وصاح أليكس طربا وافرحتاه ! إن طريقتنا فى التعليم لأسرع أثرا وأطيب ثمرا من كل ما عرف الناس حتى الآن من طرق التعليم ومناهجه » .

وفى الدرس الثالث استطاعت ليزا أن تجيد القراءة فى ترجمة كتاب « هلواز الجديدة » لجان جاك روسو . وبعد القراءة حررت رسالة نقدية عن أسلوب الكتاب ومغازيه وأغراضه . فطار عقل أليكس وأوشك أن يجن من فرط دهشته .

مر على هذه الحال أسبوع ونشأت بين الفتى والفتاة مراسلات وكان صندوق البريد الخادمة ناسية فكان أليكس يأتى تلك الشجرة فيتسلم ما يكون فى جوفها من رسائل معشوقته ويضع ما عنده من رسائل .

وفى هذه الأثناء كانت الصحبة الجديدة بين الأبوين قد بلغت أقصاها وأصبحا كالأخوين لا يطيق أحدهما عن الآخر فراقا . فتفاوضا فى أمر تزويج « أليكس » من « ليزا » واستقر على ذلك رأيهما ثم شرعا فى تنفيذه ..

قال السيد « إيفان » لابنه أليكس ذات ليلة :

« أريد أن أفاتحك فى مسألة هامة وهى مسألة زواجك » .

« زواجى بمن يا أبتاه ! »

« بالآنسة ليزا ابنة جارنا جريجورى – إنها نعم العروس يا بنى ما شئت من حسن فائق وأدب رائق . وظرف شائق » .

« أعفنى من ذلك يا أبى إن أمر الزواج لا يخطر لى على بال » .

« إن كان لم يخطر ببالك فلقد خطر ببال أبيك » .

« إنى طوع إرادتك يا أبى ولكننى لا أحفل بالآنسة ليزا ولا أجد فى نفسى أدنى ميل إليها » .

« لعلك ستحفل بها وتميل إليها إن أنت لابستها قليلا . فالحب ثمرة ينضجها الزمن والعشرة » .

« لا آنس فى نفسى القدرة على مسرتها وإسعادها والقيام لها بحق الزوجة على الزوج » .

« عجبا لك يا أليكس ! بمثل هذا الرفض تقابل رغبة أبيك فى زواجك ؟

ما هكذا يكون الحنان والبر بالوالد »

« لا أرغب فى الزواج ولن أتزوج »

« بل لتتزوجن برغم أنفك ، أو لألعننك لعنة تدخل معك قبرك . ثم لأبددن ثروتى أدراج الرياح فلا تنالن منها مثقال ذرة . على أنى ممهلك ثلاثة أيام ترى فيها رأيك — ثم لا ترينى وجهك قبل ذلك »

ذهب أليكس إلى غرفته غضبان أسفا — وجعل يفكر فى السلطة الأبوية وما ينبغى من تحديدها وتقييدها ، ثم فكر فى معشوقته ألكولينا وقر رأيه على أن يتزوجها وينفق عليها من عرق جبينه فالفقر معها أمتع من الغنى مع سواها .

وكان زمهرير الشتاء قد حال دون التقائهما فحرر إليها رسالة يشرح لها فيها جملة الحال وما قد اعتزمه من التزوج بها مضحيا فى سبيل ذلك بالجاه والثروة ، ثم وضع الرسالة فى جوف الشجرة كدأبه وعادته . وانقلب إلى فراشه فرحا مسرورا .

وفى الصباح سار إلى جاره جريجورى ليتوسل به إلى أبيه لعلمه ما قد امتاز به جريجورى من الانتصار للحرية وكراهة الاستبداد .

ولكنه لم يجد جريجورى فى داره ــ وقال له الخدم إن ابنته « ليزا » فى غرفة الاستقبال فعزم على شرح الحال لليزا نفسها والاستغاثة بها من استبداد أبيه إذ كان ما يريده أبوه من مسألة زواجه بها رغم إرادته مما لا ترضاه هى ولا تقبله ومن مصلحتها أن تمنعه . فعمد إلى غرفة الاستقبال وما كاد يلج بابها حتى عرته دهشة وذهول . ماذا يرى ؟ أهذه ليزا ؟ كلا ! هذه ألكولينا ! سمرتها وشعرها الأسود ! هى هى بعينها وإن لم تلبس الثياب الريفية التى كانت تلقاه فيها . وماذا تصنع ؟ إنها تقرأ رسالته التى بعث بها إليها — ولذلك لم تحس بدخوله .

فلما برح له الخفاء وتجلت لعينه الحقيقة ناصعة هجم عليه السرور وطغى على قلبه الفرح ــ فارتمى على قدميها ــ فصاحت مندهشة وحاولت أن تتملص من قبضته ولكنه أمسك بيدها وأعتقلها وجعل يصيح .

« ألكولينا ! ألكولينا ! »

فقالت بالفرنسية وهى تحاول الخلاص من قبضته

« ماذا أصابك وماذا دهاك ؟ أمجنون أنت ؟ »

ولكن أليكس استمر يصيح « ألكولينا ! ألكولينا ! حبيبتى ألكولينا ! وجعل يلثم يدبها مبدئا ومعيدا – وكانت المؤدبة الإنكليزية حاضرة ، فبهتت وخرست وظلت لا تدرى أفى حلم هى أم فى يقظة .

وإذ ذاك فتح الباب ودخل جريجورى والد الفتاة فقال « هذا حسن والله . أراكما قد سويتما المسألة فيما بينكما بارك الله فيكما . لقد رفعتما عنا مؤونة الكلام فيها » .

وأنا أسأل القارئ أن يرفع عنى مؤنة وصف الإكليل وحفلة الزفاف ، وله منى جزيل الثناء .

المبارزة

كنت ضابطا فى فرقة من الفرسان كانت معسكرة فى قرية صغيرة ، وكان ينضم إلى زمرتنا رجل يناهز الثلاثين ذو حنكة وتجربة كثير الصمت مطراق عبوس . تدلك هيئته على أن له نبأ مجهولا وشأنا خفيا وأن سرا غامضا يحيط بحياته . وكان له سابق خدمة عسكرية لا يعرف أحد لماذا تركها ورضى لنفسه الانزواء فى قرية حقيرة .

وكان همه الوحيد وشغله الشاغل التدرب على الرماية فى غرفته ينصب بها الأهداف ثم لا يزال يرميها بطلقات بندقيته فكانت حيطان حجرته أشبه شئ بالإسفنجة أو الغربال من كثرة الثقوب . وكان قد بلغ فى فن الرماية مبلغا لا يصدق به إلا من شاهده فلو سئلت أن أجعل على رأسى تفاحة ليسدد إليها سهمه لما امتنعت ثقة من أنه إذا رمى لم يصب خلاف التفاحة وكان جسمى كله من كل خطر بمأمن .

وفى ذات ليلة ونحن على مائدة المقامرة فى غرفة هذا الرجل ـ واسمه « سلفيو » ـ وقع شجار بينه وبين أحد ضباط فرقتنا فتناول ذلك الضابط شمعدانا فقذف به على رأس سلفيو فزاغ منه هذا الأخير ولولا ذلك لفلق رأسه فقال سلفيو لصاحبه وهو يتحرق غضبا :

« تكرم على يا سيدى بالانسحاب من اللعب »

وأيقنا جميعا أن سلفيو سيدعو خصمه للمبارزة وأن خصمه سيكون فى عداد الأموات غدا .

وانسحب الضابط وهو يقول إنه لن يحجم عن مبارزة سلفيو إذا دعاه لذلك .

وأصبحنا ونحن نعتقد أن ذلك الضابط لابد أن يكون قد لحد فى قبره . ولكنه مالبث أن قدم علينا فأخبرنا أن سلفيو لم يدعه إلى المبارزة فأخذتنا لذلك أيما دهشة . وذهبنا إلى غرفة سلفيو فوجدناه كدأبه وعادته يعالج الرماية وقد نصب الأهداف وأقبل يقرطسها وينتظمها بسهامه . ومضت ثلاثة أيام والضابط على قيد الحياة . ثم تتابعت الأيام ولم تصل الضابط من سلفيو أدنى دعوة للمبارزة

وقد ضرب سلفيو عن ذلك الأمر صفحا وتناسى ذلك الحادث كأنه لم يقع .

فسقط فى أعيننا واحتقرناه ولكننى كنت أشد الجميع احتقارا لـه وأصبح ازدرائى له على قدر ما كان من حبى وإجلالى ، ومجافاتى واجتنابى بمقدار ما كان من مواصلتى واقترابى . حتى صرت أستنكف من معاشرته وأخجل من النظر إليه . وساءه منى تغيرى وتنكرى وأمضه جفائى وإعراضى وقدح فى أحشائه .

تسلم سلفيو ذات يوم من مكتب البريد رسالة وما هو إلا أن فضها وأخذ يتلوها حتى أشرق وجهه وبرقت أسرته .

فدلف إلينا فقال « لقد طرأ على ما أوجب رحيلى بأقرب وقت . ولعلى مسافر الليلة . فوداعا أيها الإخوان » فودعناه جميعا . ولما هم بالانصراف مال إلى فهمس فى أذنى قائلا « إن لى معك حديثا ذا شأن . ولقد نشأ بيننا سوء تفاهم أريد أن أزيله – ولقد كانت ظروف تركت فى وهمك صورة كاذبة تنافى حقيقتى أريد أن أمحوها »

ثم قبض على يدى وسرنا معا إلى حجرته .

ولما اطمأن بنا المجلس قال « لعلنا لن نلتقى بعد اليوم ، فأرى قبل رحيلى أن أكشف لك عن سريرة أمر قد غمض عليك وشوه فى نظرك صورة أخلاقى الحقيقية حتى اتهمتنى عند نفسك بالجبن والصغار والذلة وأنا منها براء . لعلك أنكرت منى إمساكى عن مبارزة ذلك الضابط مع يقينك أن حياته كانت فى قبضتى ولم تكن حياتى منه فى خطر جسيم ، فالآن أنبئك بجلية الأمر ، فاعلم أن الذى أحجم بى عن مبارزة ذلك الضابط هو سبق إصرار كان منى منذ ستة أعوام على أن لا أبارز أحدا أبدا حتى أنتقم لنفسى من رجل بدرت إلى منه إهانة عظمى ثم حالت الظروف دون اختطافى روحه من بين جنبيه . ومنذ ذلك الحادث لم يطمئن لى مهاد ولا قر لى قرار ومن ثم ما تراه يبدو على دائما من هم وإطراق ووجوم واكتئاب ، وقد عاهدت نفسى أن أحافظ على حياتى فلا أعرضها لأدنى خطر حتى يتاح لى أن أنتقم من ذلك الجانى . وهذا سبب إحجامى عن مبارزة ذلك الضابط ولولا ذلك لما ترددت لحظة عن مكافحته ولو كان « قلب الأسد » أو « أماديس دى جول » .

منذ ستة أعوام لطمنى إنسان علي وجهى ولم أشف منه نفسى على أنه لا يزال حيا يرزق وما كنت ممن ينام عن الثأر »

قلت له « أو لم تبارز هذا المعتدى عليك ؟ » قال « بلى . قد بارزته وسآتيك اللحظة بتذكار هذه المبارزة »

ثم عمد إلى صندوق فاستخرج منه قلنسوة حمراء ذات هداب ذهبى فجعلها على رأسه فإذا بها خرق فوق الجبهة .

قال سلفيو « قد تعلم أنى كنت ضابطا فى فرقة الرماة وكنت مولعا بالشراب والنساء ، بل كنت زعيم الفرقة بأسرها خلاعة ودعارة وعربدة وزعيمها أيضا قوة وسطوة وبطشا ، وقد انتصرت فى إحدى مبارزاتى على « برستوف » البطل المشهور الذى تغنى بذكره الشاعر « دافيروف » فكنت أنزل من القوم منزلة الركن المستلم والوثن المعبود .

وإذ ذاك ألحق بفرقتنا ضابط جديد من طبقة الأشراف وكان هذا الفتى قد اجتمعت له صنوف المحاسن وضروب المفاخر – ما شئت من تمام صحة وريعان شباب ، ونضرة حسن وزهرة جمال ، إلى سرعة خاطر وحدة ذكاء ، ومجد تليد . وذكر بعيد ، وثراء جم وجاه عريض . فلا بدع أن يكون ظهور هذا الفتى على المسرح قد زعزع مركزى وهدد سلطانى.وكان لما راعه عظم مكانتى بين الضابط والجنود شرع يخطب ودى ويتلمس صحبتى ، ولكنى قابلت تهافته بمزيد الإعراض ، وتلقيت إقباله بمنتهى الانقباض ، فتراجع عنى وأحجم . ولما رأيت ارتفاع شأنه وانبساط نفوذه فى الفرقة وعظم حظوته عند النساء.ألح على الكرب وأكل الغيظ أحشائى فجعلت أتجنى عليه الذنوب وألتمس أسباب الشجار وأرقب فرصة المشاحنة ، فكلما أنفذت إليه سهما من التنديد أو رميته بقارصة من الهجو رمانى بأسرع منها فأضحك منى القوم وتركني أتململ على أحر من جمر الغضا.واتفق أخيرا أن جمعنى وإياه مقصف بدار أحد الوجهاء فرأيت الأبصار إليه ممتدة والأعناق مشرئبة وقد أقبلت عليه أجمل غانيات المكان فأوسعنه حفاوة وإيناسا ، فجاز الحنق بى كل مقدار ولم يبق فى قوس الصبر منزع ، فدلفت إليه وهمست فى أذنه بلفظة جارحة فثار على ثورة الأسد ولطمنى

فأوسعنه حفاوة وإيناسا ، فجاز الحنق بى كل مقدار ولم يبق فى قوس الصبر منزع ، فدلفت إليه وهمست فى أذنه بلفظة جارحة فثار على ثورة الأسد ولطمنى على وجهى ، ثم امتشق كل منا حسامه وحجز بيننا الجماعة بعد أن أغمى على السيدات وتركنا المكان قرب مطلع الفجر إلى ساحة المبارزة وقاس الشهود بينى وبينه اثنتى عشرة خطوة ، واقترعنا على امتياز البدء بالرماية وكانت القرعة من حظه ، فسدد إلى سهمه ورمى فمرقت رصاصته من قلنسوتى هذه التى تراها ولم يصبنى شيء البتة وجاءت نوبتى وأيقنت أن روحه فى يدى فأجلت عينى فى وجهه وسائر شخصه لأنظر هل به قلق أو اضطراب فلم أر إلا رصانة وثباتا ورباطة جأش وكأنه طود راسخ وهضبة شماء . ثم بلغ من قلة إكتراثه وعدم مبالاته أن أمسك قلنسوته وجعل يتناول منها فاكهة يأكلها ويلفظ حبها فكدت أتميز من الغيظ وقلت فى نفسى « أى فائدة من قتل هذا الذى لا يرى للحياة قيمة ولا يقيم لها وزنا » ، ثم سنحت لى فكرة فقلت لخصمى :

« الظاهر أنك غير مستعد للموت الآن ، وأراك تتناول طعامك وما كنت عن ذلك بمانعك »

فأجابنى : « إنك لن تمنعنى منه ، فتفضل على بإطلاق سهمك ، وإن تكف فسيبقى حقا لك على ودينا فى عنقى تتقاضاه متى شئت وأين شئت »

فأعلمت الشهود أنى لا أريد إطلاق سهمى اليوم ، وعلى هذا إنفض اللقاء .

وفى أثر ذلك اعتزلت الخدمة العسكرية وانزويت فى هذه القرية ، ومنذ ذلك الحين ما نعمت قط بالحياة ولا استمتعت بالعيش ولا توجه فكرى إلا إلى الأخذ بالثأر . والآن قد سنحت الفرصة وآن الآوان . وهنا استخرج سلفيو من جيبه الرسالة التى تسلمها من البريد وقدمها إلى ، فإذا بها من أحد أصدقائه بموسكو بزفاف « فلان » على آنسة من أجمل غانيات دهرها .

قال سلفيو « لعلك أدركت من هو فلان هذا . سأذهب إليه لأرى هل يستقبل الموت الآن وهو يزف على عروسه الحسناء بمثل ذلك الاستخفاف الذى استقبله به يوم جعل يأكل الفاكهة من قلنسوته ! »

وهنا نهض سلفيو من مكانه وقذف بقلنسوته على الأرض وطفق يجوب أنحاء

بالمسدسات والبنادق والذخيرة وسائر أمتعته وأدواته وتصافحنا ومضى فى سبيله .

* * *

مضت على هذه الحوادث أعوام ، وقضت الضرورة على بالمقام فى الريف حيث اشتغلت بالزراعة .

وكان على بضع مراحل من دارى ضيعة كبيرة للكونتيس لا يقطن بها سوى ناظر الزراعة ولا تزورها الكونتيس إلا نادرا . فلما مضى على مقامى بتلك الأنحاء عام بلغنى أن الكونتيس وزوجها قادمان للمصيف بضيعتهما . وكنت قد مللت الوحدة بذلك المنفى الريفى ، وسئمت العزلة ، وتاقت نفسى إلى حفلات الأنس ومجالس الندمان ، فجعلت أتحرق شوقا إلى رؤية تلك القادمة الحسناء وزوجها لأجتنى من ثمار إيناسهما وسمرهما لذة طال بها عهدى .

ولما بلغنى نبأ قدومهما شخصت إلى دارهما ، واستأذنت ، فساقنى أحد الخدم إلى حجرة مكتبة الكونتيس ومضى ليعلن نبأ مقدمى . وكانت الحجرة مزدانة بكل آلات النعيم والترف فالجدران محلاة بخزائن الكتب النفيسة الموشاة بالذهب ، تفصلها حلى بديعة من التماثيل والدمى ، وفوق الموقد مرآة عظيمة ذات إطار من العسجد ، مرصع بالياقوت والزبرجد ، والأرض مفروشة بالبسط والزرابى . وبينما أنا من بهاء هذه التحف والنفائس فى دهشة ، إذ فتح الباب ودخل على رجل وضئ الطلعة بهى الصورة يناهز الثانية والثلاثين من عمره . فسعى إلى وعلى محياه رونق البشر والطلاقة ، وبعد التعارف جلسنا وأخذنا بأطراف الحديث بيننا ، وكان فى عذوبة حديثه وبراءته من الكلفة ما أزال هيبتى . وأزاح وحشتى . وبعد هنيهة دخلت الكونتيس زوجته وكانت آية فى الحسن والبهاء فقدمها إلى الكونت ثم طافا بى فى أنحاء الحجرة يريانى ما أودعت من الطرف والعجائب . فاستوقفنى منظر صورة تمثل مشهدا طبيعيا من مشاهد « سويسرا » وأعجب ما فيها ثقبان بإطارها من أثر طلقات نارية .

فقلت للكونت « تالله لرمية مسددة ! »

فأجاب « أجل ، وهل تحسن الرماية ؟ »

قلت « قليلا ، بيد أنى أسأل الله أن يبلغنى فى هذا الفن درجة رجل كان

يعاشرنا منذ بضعة أعوام لم أر قط ولم أسمع بنده ونظيره »

قال الكونت « وماذا بلغ من مهارة صاحبك هذا ؟ »

قلت « كان والله ربما أبصر الذبابة فيتناول مسدسه فيطلقه فإذا الذبابة قد انسحقت مكانها .

قال الكونت « هذا والله ما لم يسمع بمثله قط . وماذا كان اسم هذا الرجل ؟ »

قلت « سلفيو يا جناب الكونت »

فصاح الكونت منتفضا « أتعرف سلفيو ؟ »

قلت « أجل يا سيدى ، لقد تعاشرنا عشرة الشقيقين حقبة من الزمن ، على أنه قد مرت خمسة أعوام على آخر عهدى به . أتعرفه ياجناب الكونت ؟ »

قال « أجل أو لم ينبئك بحادث عجيب وقع له مع بعض زملائه ؟ »

قلت « أتعنى نبأ اللطمة التى تلقاها من رجل خسيس فى بعض المقاصف ؟ »

قال الكونت « ألم يصرح لك باسم هذا الخسيس ؟ »

قلت وقد فطنت فى الحال إلى حقيقة الأمر :

« معذرة سيدى !! يمكن أن تكون أنت الذى عناه صاحبى ؟ »

قال وقد عراه أشد اضطراب « أجل وهذا الثقب الذى تراه بالصورة شاهد على آخر التقاء لنا » وهنا تضرعت إليه الكونتيس أن لا يجدد ذكر هذا اللقاء الأليم لما فيه من إثارة لكامن الذكريات المحزنة .

قال الكونت « بل لابد من ذكر ذلك النبأ لضيفنا كى يعلم كيف كان انتقام صاحبه ».

ثم تلا على الحديث الآتى :

« منذ خمسة أعوام تزوجت هذه السيدة وقضيت ههنا شهر العسل ، وقضيت أيضا ساعة من أرهب ساعات الدهر وأخوفها .

فى ذات عشية خرجت وزوجتى للتنزه فى البساتين والرياض على جوادين كريمين فأجفل جواد زوجتى فذعرت فأرجلتها ، وعدنا إلى دارنا فسبقتها إليه إذ كنت راكبا وكانت ماشية . ولما بلغت الدار وجدت بساحتها مركبة وخبرت

أن طارقا ينتظرنى بحجرة المكتبة (هذه الحجرة) وإن له معى حديثا خطيرا .

دخلت المكتبة فألفيت بها فى اختلاط الظلام رجلا أشعث أغبر واقفا إلى الموقد ، فدنوت منه وتوسمت وجهه أحاول أن أذكره فقال لى « ألا تذكرنى ياكونت ؟ » فصحت قائلا « سلفيو ! » وأحسست برعشة ثالجة تتخلل عظامى . وقال الرجل « أجل أنا سلفيو ، ألا تذكر أن لى عليك دينا ؟ لقد جئت الآن أتقاضاه . أتذكر الطلقة التى لى عليك ؟ أمستعد لها الساعة ؟ » فكان مسدسه بارزا من جيبه . قلت « أجل مستعد ورب العرش » ثم قست بينى وبينه اثنتى عشرة خطوة وأخذت موقفى بذلك الركن ورجوته أن يسرع بطلقته قبل قدوم زوجتى . فطلب مصباحا فأحضر وأغلقت الباب وأمرت أن لا يدخل أحد . ثم رجوته أن يسرع فاستخرج مسدسه وصوبه نحوى . وجعلت أعد الثوانى ... ثم تذكرت زوجتى ... ومرت على دقيقة أهول من يوم الحشر ولكن سلفيو خفض يده وقال « يحزننى أن مسدسى هذا محشو بالرصاص والرصاص أفظع السهام وأشنعها وبودى لو كان حشوه من نوى التمر فإنه أخف وألين ، أما الرصاص فما أشنعه ولو رميتك به كنت كالقاتل الأثيم سفاك الدماء — هذا ولم أتعود قط تسديد سهمى إلى رجل أعزل ، فأولى لنا أن نبدأ المبارزة من جديد . فدعنا نعيد القرعة » فأحسست كأن الأرض تميد بى وتترنح . ثم حشونا مسدسينا جميعا وأعملنا القرعة فوقعت لى النوبة الأولى كما وقعت أول مرة .

فقال لى وعلى وجهه ابتسامة لن أنساها ما حييت « ما أسعد حظك ياكونت ! »

فتناولت مسدسى وأطلقت عليه فأخطأته وأصبت تلك الصورة التى لفتت نظرك »

وأشار بيده إلى الصورة وإن وجهه ليتوهج من ألم تلك الذكرى توهج الجمر المشتعل ، وزوجته الكونتيس من شدة تأثيرها قد عاد وجهها أبيض من منديلها .

واستأنف الكونت حديثه قال « أطلقت رصاصتى فأخطأته ولله على ذلك مزيد الحمد » .

وانتصب سلفيو كأنه الشيطان بعينه ورفع يده بالمسدس يسدد إلى ، وإذ ذاك فتح الباب ودخلت زوجتى « ماشا » فصاحت صيحة منكرة وألقت بنفسها على

عنقى ، فقلت لها ما بالك يا حبيبتى ، ألا ترين أننا نمزح ؟ ما أشد رعبك ! اذهبى فاشربى كوبة من الماء وعودى لأقدمك إلى صاحبى وزميلى القديم »

فلم تصدق « ماشا » كلامى وازدادت لوعة وكربا .

ثم التفتت إلى سلفيو وقالت « بربك خبرنى أمزاح ما أنتما فيه ؟ »

قال سلفيو الشديد البأس « إن زوجك أبدا يمزح فلقد لطمنى مرة على وجهى وهو يمزح وخرق قلنسوتى برصاصته وهو يمزح ، ورمانى الآن فأخطأ فى وهو يمزح فدعينى أمزح الآن كما لا يزال يمزح »

ثم رفع مسدسه ليصوبه إلى ، فألقت زوجتى بنفسها على قدميه ، فصحت بها قائلا :

« انهضى يا ماشا . أما تستحين ؟ أما تخجلين ؟ »

والتفت إلى سلفيو فقلت له « وأنت يا سيدى أيليق بك أن تهزأ وتسخر من امرأة ضعيفة ؟ خبرنى أمطلق أنت أم ممسك ؟ »

قال سلفيو « بل ممسك فما بى الآن إلى الإطلاق من حاجة بعد ما رأيت الآن من حيرتك وارتباكك ورهبتك . وحسبى أيضا أنى أرغمتك على أن ترمينى الآن بسهمك ، وإنى قد تركت فى قلبك من ذكرى ما لن يزال يخالجه ويخامره . وسأتركك بعد لضميرك »

ثم تحرك للانصراف،ولكنه لما صار بباب الحجرة التفت إلى الصورة فأطلق عليها عفوا من غير تسديد فأنفذ بها الثقب الثانى لصق الأول الذى أحدثته رصاصتى،ثم اختفى كأنه شبح من الجن ، وكانت زوجتى قد أغمى عليها من شدة الرعب ، ولم يجرؤ الخدم على حجزه ومنعه إذ كان فى هيبته ما ملأهم فزعا وروعا فأفضى إلى ساحة الدار ، ثم نادى بسائق مركبته فركب وانطلق قبل أن أستفيق من تلك الغمرة .

الشهرة

كان أحد ركاب الدرجة الأولى بإحدى القاطرات مضطجعًا فى مقعده بعد ما ملأ بطنه طعامًا ، وقد رنقت فى عينه سنة . وبعد إغفاءة يسيرة فتح عينيه على رجل كان يجلس بإزائه فقال :

« رحم الله والدى ! لقد كان يحب أن تجمش الفتيات قدميه بعد الغداء . وأنا مثله مع هذا الفارق ، وهو أنى أحب أن أجمش لسانى وذهنى بأقداح الراح بعد الغداء . أحب الكلام الفارغ والبطن الملآن . أتسمح لى بالتحدث إليك قليلا ؟»

قال الجليس « بكل ارتياح »

قال المتكلم : « إنى إذا امتلأ بطنى كان أتفه الأشياء جديرا أن يبعث من ذهنى تيارا متدفقا من الأفكار ، مثال ذلك إنى سمعت الآن رجلا يهنىء آخر على ما قد نال من الشهرة ،وما أحسبهما إلا من حثالة الممثلين أو الصحفيين ، ولكن هذا ليس بموضوع بحثى إنما الذى يهمنى الآن ويشغل بالى هو ماذا يعنون بلفظة الشهرة ، لقد عرفها الروائى « بونتكين » بقوله :

« الشهرة هى الرقعة الزاهية فى الخرقة البالية » ولكنى لا أرى هذا التعريف من الدقة بمكان ، ولم أجد بعد للشهرة تعريفا بينا منطقيا ولو جئتنى بذلك لأعطيك ما تشتهى »

قال الجليس : « ولماذا كل حرصك هذا على إصابة ذلك التعريف ؟ »

قال المتكلم :« لأننا لو عرفنا ما هى الشهرة لجاز أن نعرف أيضا سبيل بلوغها ، ولتعلم بعد يا سيدى إنى قبل أن أبلغ هذه السن وأفهم الحياة الدنيا على حقها أولعت بالشهرة حتى جننت بها جنونا وبذلت فى سبيلها أقصى الجهود ، وكم درست من أجلها وقرأت وحفظت ، وكم سهرت الليل الطويل وسلوت الراحة والشراب والطعام . وإنى لموقن بلا محاباة لنفسى إنى حائز لكل مزية وموهبة تؤهل الإنسان للشهرة . فأنا قبل كل شىء مهندس بارع حيث قد أتيح

لى أن أنشئ فى روسيا ثلاثين قنطرة من أفخم القناطر وأن أزود خمس مدائن بمصنع المياه والغاز وأن أؤدى أعمالا هندسية خطيرة فى عدة من عواصم أوربا ، وإن لى تصانيف شتى فى العلوم الرياضية وإنى فى طليعة من يشتغلون بفن الكيمياء فى العالم وقد اكتشفت عدة من الأحماض والقلويات والجواهر الكشافة ، ولو شئت ألفيت اسمى منقوشا على صفحات كتب الكيمياء بمعاهد الدراسة خارج روسيا. وقد ارتقيت فى مناصب الخدمة إلى درجة مستشار هندسى ، ولا أطيل عليك الكلام بتعديد مواهبى ومناقبى ومآثرى ومفاخرى خشية إملالك وإضجارك. ولكن حسبى القول بأنى قد صنعت أكثر مما صنع بعض ذوى الشهرة ، وها أنذا ، بعد كل ذلك وبعد أن بلغت من الكبر عتيا وأصبحت من حافة القبر قاب قوسين أو أدنى ، وليس لى من الشهرة إلا مثل ما لذلك الكلب الأسود الذى تراه يجرى على الجسر هنالك » .

قال الجليس : « ومن يدريك ، لعلك مشهور وأنت لا تعلم ؟» .

قال المتكلم : « الدليل عندى حاضر ، أنت فرد من الأمة ، فلننظر الآن هل تعرفنى ؟ أسمعت فى حياتك بهذا الاسم « كريكونوف » ؟

فرفع الجليس عينيه إلى سقف المكان وفكر برهة ثم ضحك وقال :

« كلا ما سمعت بهذا الاسم قط »

قال المتكلم : « هذا اسمى ، ها أنت ذا رجل كهل متعلم متثقف ثم لم تسمع بى مطلقا . أليس ذلك دليلا قاطعا على صحة قولى ، وعلى أنى حينما أعددت كل عدة وهيأت كل وسيلة وبذلت كل مجهود فى تحصيل الشهرة أضللت السبيل وأخطأت المرمى ؟ »

قال الجليس : « وما هى الوسيلة والسبيل إلى الشهرة ؟ »

قال المتكلم : « الشيطان وحده أعلم : يزعمونها القدرة والكفاءة والنبوغ والعبقرية وقد كذبوا ! لقد سبقنى إلى الشهرة وظفر بها دونى أناس لم يبلغوا عشر معشار ما عندى من علم ومعرفة وذكاء ولوذعية .

تقدمتنى أناس كان شوطهم   وراء خطوى إذ أمشى على مهل

أولئك لم يظهروا شيئا ما من القدرة ولا الكفاية ، ولا أفادوا المجتمع مثقال

ذرة مما أفدته ولم يبذلوا من السعي إلى الشهرة كثيرا ولا قليلا ، وعلى الرغم من ذلك كله قد اشتهروا وأصبحت أسماؤهم تتناقلها الصحف وتتداولها الألسن. وسأضرب لك مثلا إن لم تكن قد سئمت حديثي . ذلك إني منذ بضعة أعوام أنشأت قنطرة في بلدة ك ، وكانت هذه البلدة خلوا من أسباب الأنس ودواعي السرور فأدركتني بها وحشة وسآمة ، ولولا الخمر والنساء والميسر لذهب عقلي ، وقصارى القول أني أتخذت لنفسي خليلة من فئة الممثلات تدعى فن الغناء زورا وسفاها ، وعلى الرغم مما كان من فرط إعجاب الناس بها ولهجهم بذكرها وحرصهم على التزلف إليها ، لم تك في نظرى سوى مخلوقة عادية عاطل من كل فتنة وملاحة . لقد كانت سيئة الخلق ضعيفة العقل شرهة جشعة حمقاء .

كانت تلتهم كميات عظيمة من الطعام والشراب وتنام حتى المساء ، وأحسب أنها لم تك تصنع سوى ذلك . وكانوا يدعونها زورا وبهتانا ممثلة ومغنية ، على أنها كانت مجردة من الفن ـ مجردة من المعرفة ـ مجردة من الذوق ـ جاهلة غبية حقيرة ، كان غناؤها يصم الآذان ، ويرعش الأبدان ، ويورث الأحزان .

ولما أتممت بناء القنطرة أقيم احتفال علني بافتتاحها ، فألقيت الخطب والمقالات ، جعلت أثناء ذلك أتنظر ثمرات كدى وأرصد نجم حظى وأجف القلب راجف الحشا ، وحق لى إذ كانت قنطرتى مما يفخر به ويزهى ـ لم تكن قنطرة بل كانت أعجوبة ومعجزة ، كانت كأنها صورة خرجت من يد « روفائيل » أو « ليوناردو دافنشي » . أنا لا أزكى نفسي ، إنما أتحدث بنعمة المولى ، ومن ذا الذى لا يعروه القلق والاضطراب وقد أبصر أهل البلد قاطبة جاءوا أفواجا ليتأملوا عمله وصنعته ؟ فجعلت أقول فى نفسى « ويلى من حرج هذا الموقف ، إن هى إلا لحظة حتى أرى الأبصار كلها نحوى ممتدة والأعناق متطاولة ، فأين أختبىء ؟ » لقد أرهقت نفسى بلا موجب ، ولو علمت الغيب لأرحت بالى من كل هذا العناء والقلق ، فقد احتشدت الجموع وتكاملت عدتهم وأقبلوا ينظرون إلى كل شيء ، ويتأملون كل شيء ، إلا شيئا واحدا. وذلك هو أنا ، لم يعبأ بى ولم يكترث لى ولم يعلم بمكانى ولم يشعر بوجودى فرد واحد من أولئك الجموع الحاشدة ! لقد وقفوا جميعا ينظرون إلى القنطرة كالأنعام ولم يعن أحدهم بالسؤال عن ربها ومنشئها ! ومنذ ذلك دبت فى نفسى كراهية الجمهور واحتقاره ، عليه

فى كل آونة ولحظة ! ولكن نرجع إلى حديثنا . فى ذلك الآن شوهدت حركة غير عادية فى الجمهور وأعقبها شىء من الهرج وتهامس الناس وأومضت على وجوههم ابتسامة سرور وارتياح وماج بهم المكان واضطرب ، فقلت فى نفسى « أو يمكن أن يكون السبب فى هذا أنهم أبصرونى وعرفوا أنى أنا الذى أنشأت القنطرة ؟ » ولكن هذا الأمل ما نشب أن زال ، إذ تبينت حقيقة الحال فعلمت أن سبب اضطراب الجمهور هو ظهور رفيقتى الممثلة إذ ذاك تتبعها حاشية من أسرى الغرام تشق عباب الجماهير كالباخرة المزينة ، ووراءها الزوارق والعوامات والسفهاء المغفلون يشيعونها بألحاظ الصبابة والافتتان وألفاظ الإعجاب والإكبار كقولهم « هذه هى الممثلة البارعة ! ، هذه ملكة الطرب والغناء ! أى حسن وبهاء ! ووسامة ورواء ! » وإذ ذاك لمحنى رجل فقال لزميله عرضا وأومأ نحوى « هذا هو عشيقها » هذا كل ما قاله لا أكثر ولا أقل . فما رأيك فى تلك الحال يا صاحبى ، أتراها نتيجة سارة لكل ما بذلت من مساع وجهود ؟

وبينما أنا أندب خيبة آمالى وسخافة الجمهور وغباوته ، تقدم إلى رجل سمج الخلقة قبيح الطلعة فقال لى : « أتعرف من تلك التى تسير على الضفة المقابلة وقد بهرت الأبصار وخلبت العقول واختلبت الألباب ؟ هذه هى سيدة الممثلات وأميرة المطربات ، ذات القد الرشيق ، والشكل الأنيق . والوجه الصبيح ، والدل المليح . »

فقاطعته قائلا :« أتعرف من الذى أنشأ هذه القنطرة ؟ »

قال : « كلا لا أعرف ، لعله أحد أولئك المهندسين »

« قلت أتعرف من أنشأ كنيسة بلدتكم ؟ »

قال « كلا » ..

قلت : أتعرف من هو أعظم أستاذ ، ومن أجل عالم ، ومن أخطب خطيب، ومن أكتب كاتب ، ومن أشعر شاعر ، ومن أبرع مصور ؟ »

قال : « كلا »

قلت : « خبرنى - أعزك الله - أتدرى مع من تعيش هذه الممثلة النابغة الطائرة الصيت ؟ »

قال : « يقولون إنها تعيش مع شخص مهندس اسمه ... لقد نسيت اسمه »

فما قولك في هذه الحال يا صاحبى ؟ ولكن عد بنا إلى ما كنا فيه من الحديث « فى سالف الأزمان كان الذين يتولون نشر الشهرة وإذاعة الصيت والإشادة بذكر أرباب المآثر والمفاخر هم طائفة الشعراء والموسيقيين ، إذ ينظمون القصائد والأناشيد فى تمجيد أهل الصناعات والفنون وذوى المكارم والمساعى فتذهب فى الآفاق ، وتصبح سمر الأندية وزاد الرفاق . أما الآن فقد اندثر أولئك المداحون وقام مكانهم كتاب الصحف والمجلات . فلننظر ماذا كان موقف الصحف إزاء عملى العظيم ؟ فى صبيحة ليلة الاحتفال المذكور تناولت صحيفة « البريد » المحلية وأخذت أفتش فيها عن اسمى . وبعد طول البحث والتنقيب ألفيت هذه الكلمة « احتفل أمس بافتتاح القنطرة الجديدة بحضور صاحب الفخامة محافظ الإقليم وفئة من كبار الموظفين ، وكان المكان غاصا بالجم الغفير من أهالى البلدة وكان الطقس بديعا الخ الخ ...وكان من بين الحضور الممثلة الطائرة الصيت قرة الأعين ونزهة النفوس وريحانة الأرواح السيدة فلانة تختال بين الصفوف فى حلة أرجوانية موشاة تكاد من فرط حسنها تأكلها القلوب وتشربها الضمائر الخ الخ .. » أما أنا فعلى العفاء ، وفى سبيل الشيطان كدى وتعبى ، وإلى جهنم وبئس المصير ! لقد ضنوا على بحرف واحد ، ضنوا على بذكر اسمى ! فما كان ضرهم - أخفق الله مسعاهم - لو ذكرونى ولو بالذم والنقيصة ! لقد كان ذلك أقر لعينى وأثلج لصدرى ، ولا أكذبك يا سيدى لقد قذفت بالجريدة فى أقصى الغرفة وتهالكت على مقعد وأجهشت بالبكاء حتى انفدت ماء شئونى !

وبعد برهة ثبت إلى نفسى أعزيها بقولى : إن هذه الجريدة إن هى إلا ريفية سخيفة لا يرجى منها خير ، ومن أراد العدالة والإنصاف وقدر الكفاءات حق قدرها وزنة المآثر بالقسطاس المستقيم ، فعليه أن يعمد إلى الجرائد السيارة التى يصدرها قادة الأفكار بموسكو أو بطرسبرج . واتفق فى تلك الآونة إنى كنت قد أرسلت إلى إحدى الشركات الهندسية ببطرسبرج تصميما عن عمل عظيم فى مسابقة اشترك فيها فئة من كبار المهندسين وقد حل موعد إعلان النتيجة .

فاستأذنت من رجال الإدارة ورحلت إلى بطرسبرج ، وخشية الملل من طول

السفر أجرت « صالونا » خاصا واستصحبت رفيقتى الممثلة ثم رحلنا . وأخيرا وصلنا بطرسبرج يوم إعلان النتيجة ، ولحسن الحظ أحرزت الجائزة الأولى . وفى اليوم التالى اشتريت جميع الجرائد وأسرعت بها إلى غرفتى وألقيت بنفسى على مقعد وأخذت أهدىء روعى وأسكن من قلقى واضطرابى ، ثم تهافت على تلك الجرائد أرتع ببصرى فى صفحاتها . قرأت أول واحدة - لا شىء ! الثانية - لا شىء ! الثالثة - لا شىء ، وامصيبتاه ! وأخيرا عثرت فى الرابعة على هذا الخبر : « وصل العاصمة على قطار الإكسبريس مساء أمس الممثلة المشهورة « فلانة » ونذكر بمزيد السرور أن هواء الأقاليم الجنوبية كان له أحسن الأثر فى صحتها ... » ثم كلام كثير مسهب فى نعت محاسن أوصافها ومزاياها الغنائية والمسرحية إلى قرب نهاية الصفحة . يا للعجب ! ولا كلمة واحدة عنى ! فى أقصى ذيل الصفحة أبصرت الكلمة الآتية بالبنط الدقيق لا تكاد تستبين إلا بالمنظار المعظم « أعطيت جائزة الدرجة الأولى لشخص من المهندسين يدعى فلان » وسلامتك وتعيش ! هذا كل ما تفضلت به على جرائد العاصمة . وليزيدوا الطين بلة غلطوا فى هجاء اسمى ، وأسوأ من ذلك إن هذه الصحف ظلت طول مدة إقامتى ببطرسبرج تتبارى وتتنافس فى وصف الممثلة البارعة النابغة ذات الآيات الروائع والملح البدائع الخ الخ .

وبعد بضعة أعوام من ذلك استدعانى محافظ موسكو لإنشاء عمل هندسى كانت الجرائد تنادى منذ مائة عام بوجوب إنشائه ، فلبيت الدعوة ومضيت فى العمل ، وفى أثناء ذلك ألقيت عشر محاضرات بدار الآثار فى أغراض شتى أخلاقية واجتماعية واقتصادية ، كل ذلك والجرائد عنى فى غفلة وسكوت . ولا حرج عليها ولا جناح إذ كانت مشغولة بأخبار المنازل المحترقة وممثلى الأوبرا وتنقلات الموظفين وإعلانات المناقصات وبكل شىء فى الوجود إلا منشآتى ومحاضراتى ورسوماتى وتصميماتى .

وركبت مرة قطارا كان حافلا بالركاب من كل صنف وطبقة .

فقلت للجالس إلى جانبى بصوت عال ، أريد أن أسمع كل الحاضرين :

« بلغنى أن المجلس البلدى استدعى مهندسا ليتولى إنشاء كذا وكذا من

الأعمال ، أتعرف اسم ذلك المهندس ؟ »

فهز الرجل رأسه ونظر الباقون إلى شزرا كالمستهزئين ، ثم حولوا أبصارهم.

فاسترسلت قائلا : « وبلغنى أن أحد العلماء يلقى محاضرات فى دار الآثار وإنها لشائقة ممتعة » .

فلم يلتفت إلى أحد ، لقد كانوا عنى فى صمم ! ولعل بعضهم كان لم يسمع قط بدار الآثار .

كل هذا كان لا يهمنى لولا ما حدث فى تلك اللحظة ، ذلك أنى أبصرت جميع الحضور قد وثبوا من مقاعدهم وهرعوا إلى نوافذ القطار يتزاحمون ويتدافعون . ماذا حدث ؟ ماذا جرى !

وهنا صاح بى جارى قائلا : « انظر ! لا تفوتنك الفرصة ، أترى هذا الرجل الأسمر الذى يهم بركوب تلك المركبة ؟ هذا هو الرقاص الطائر الصيت « كنج » وطفق الجميع يبدئون ويعيدون فى وصف ذلك العبقرى العظيم الذى كان قد استحوذ على عقول أهل موسكو قاطبة . »

ولما فرغ المتكلم من محاضرته المسهبة قال له الجليس :

« اسمح لى أنا أيضا أن أسألك سؤالا : أتعرف اسم « بوشكوف » فأجاب الآخر : « بوشكوف ! دعنى أتذكر ! بوشكوف ! من بوشكوف هذا ؟ لم أسمع بهذا الاسم قط ! »

قال الجليس وقد أصابه من الخجل والارتباك ما أصابه « هذا اسمى ، إنه من أعجب العجب أن لا تعرفه ! ألا تعلم أنى أستاذ بإحدى جمعيات روسيات وذلك منذ أربعين عاما ، وإنى عضو فى المعهد العلمى وإن لى مؤلفات شتى ؟ »

فنظر كل من الرجلين فى وجه صاحبه وقهقه ضاحكا .

الأحـزان

كان الخراط « جريجورى بتروف » يحمل زوجته الكهلة المريضة فى مركبة يسوقها بنفسه إلى المستشفى ، وكان عليه أن يقطع عشرين ميلا فى طريق وعر مخوف ، وكانت تهب عليه ريح صرصر عاتية تضرب وجهه بأطراف سياطها الحادة ، وسحائب الثلج تملأ فضاء الجو تعلو فيه وتهبط ، فليس يدرى أتسقط من السماء أم تصعد من الثرى ، والسبل والحقول والغابة يحجبها ضباب الثلج فلا تبصر . وكان حصان المركبة لشدة ضعفه وهزاله يزحف زحفا لا يكاد ينبعث ويكاد ينوء بحمله .

كان ذلك الخراط مع مهارته فى فنه أغبى الناس ذهنا وأبلدهم حسا وأجمدهم شعورا .

وقد جعل وهو يسوق المركبة يهمهم بمثل هذه الكلمات يخاطب زوجته المريضة من وراء ظهره :

« لا بأس عليك ! اصبرى قليلا ! فعما قريب نصل إلى المستشفى ، وهنالك يتولاك الطبيب « بافيل إيفانيتش » بحسن علاجه وعنايته ، يسقيك جرعة أو يفصدك أو يدلك جنبيك بدواء من لدنه يستل الداء من جوانحك .

أنا أعلم أنه سيصيح بى ويسبنى ويلعننى ، ولكنه سيبذل جهده لشفائك ، وإنه لكريم الطبع مسماح ! قد أعلم أنه متى أبصرنى أقبل يزجرنى وينبذنى بالألقاب ويصرخ قائلا :

لماذا جئت متأخرا ؟ ولم لم تحضر فى الساعة المناسبة ؟ أترانى لا شغل لى إلا إنتظاركم وخدمتكم آناء الليل وأطراف النهار ، أو لست آدميا من دم ولحم أحتاج إلى الدعة والراحة ؟ اذهب من أمامى ! ابتعد ! لا أبعد الله غيرك ! »

فأقول له : « أيها الطبيب المعظم ! جزاك الله خيرا وزادك رفعة وشرفا . شى ! تحرك أيها الحصان المتبلد المكسال ! لا لعا لك ولا أقال الله عثرتك !

تحرك !

أيها الدكتور البر الرحيم أصلحك الله وأعزك وأولاك المزيد من فضله ورضوانه ! تالله ما قصرت ولا توانيت ولقد والله ابتدأت المسير منذ مطلع الفجر ، وإنما عاقتنى الأنواء والعواصف وذلك الحصان الواهن النضو الحسير »

فيقول الطبيب : « لا تكذب على الله ! إنى أعرف بك منك ، واعتقادى أنك ما تركت حانة فى سبيلك ولا خمارة إلا عرجت عليها فتناولت منها قدحا » فأقول له : « رمانى الله بثالثة الأثافى إن كنت فعلت ذلك ! أترانى زنديقا كافرا ! أكنت معرجا على حوانيت النبيذ وامرأتى العجوز تعانى من برحاء الداء ما تعانى ؟ »

وعندئذ يأمر الدكتور « بافيل إيفانيتش » بحملك (يخاطب امرأته) إلى المستشفى ، وأقول له : « جزيت خيرا أيها الطبيب ، لك منى عهد الله وميثاقه متى شفيت زوجتى هذه (ماتريونا) لأصنعن لك من التحف والطرف ما تقترح ، علبة سجائر من أطيب البلوط إن شئت ، وإن شئت فعلبة نشوق من أكرم الصنوبر، وإلا فسبحة من الكهرمان أو قبقاب بالصدف ، ثم لا آخذ منك درهما واحدا »

عندئذ يضحك الطبيب ويقول : « أما الفن فلا أنكر مهارتك فيه ومقدرتك ، ولكنك مدمن الكأس مستهتر بالشراب وتلك آفتك ومنقصتك »

« وبعد ذاك يتولاك بحذق علاجه فلا يزال بك حتى يستخرج الداء من بدنك ، والفضل فى ذلك يرجع إلى قوة تأثيرى فى عواطفه بخلابة لسانى ، وسحر بيانى ، وقد ترين يا(ماتريونا) حسن مقدرتى على سياسة أهل الطبقات العليا وتصريف أعنتهم فيما أريد وأشتهى ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، ولكنى أسأل الله ألا يضلنا سواء السبيل ، ما أشد عصف الأنواء . لقد كاد الثلج يعمينى ! »

وكذلك استمر ذلك الرجل يتكلم بلا انقطاع ، مرغما على ذلك مدفوعا إليه بعامل خفى هو إرادة التخلص مما كان يثقله من أعباء الأحزان الفادحة ، لقد كان الكلام يتتابع على لسانه ثرا غزيرا ، ولكن ما كان يتتابع على ذهنه من الهواجس

كان أثر وأغزر . لقد دهمه الحزن وباغته غير مترقب ولا متوقع ! لقد بهره الأسى وغلبه على أمره وحصره حتى لا مناص منه ولا مهرب ! وقد كان من قبل ذلك قضى أيام حياته فى سكينة تامة ، وكأنما كان يعيش من سكراته الدائمة فى شبه ضبابة كانت تحجب عنه تقلبات الدهر وتصاريفه . تحجب عنه عوامل السرور والحزن على السواء . وقد أيقظته من رقدته الطويلة ونبهته من غمرته الدائمة بادرة محنة أوقدت على قلبه حرقة وهاجت غليلا ، لقد انتبه السكير المدمن السادر فى عمايته ، فألفى نفسه فى مأزق ضنك كله هموم وأكدار تدفعه إلى الجد والنشاط والعمل الدائب والحركة السريعة ومكافحة صدمات الدهر ونكبات الحياة مما لا حول له به ولا طاقة .

لقد تذكر الرجل المسكين أن فاتحة ذلك البلاء كانت مساء أمسه ، وذلك أنه لما دخل داره فى تلك الآونة نشوان كدأبه وديدنه وشرع يسب زوجته ويهددها بالضرب بلا باعث سوى ما جرت به العادة الراسخة المتأصلة ، وجد تلك المرأة التعسة تنظر إليه نظرة ما عهدها منها قبل ذلك . لقد كانت نظراتها الاعتيادية كنظرات الضحايا أو الشهداء خاشعة ذليلة كنظرة الكلب المبتلى بكثرة الضرب وقلة الغذاء . أما فى تلك الآونة فقد كانت تنظر إليه نظرة قاسية جامدة كنظرة القديسين فى تصاوير الكنائس أو كنظرة الذين يجودون بأرواحهم على سرير الموت ، هذه النظرة الغريبة المنكرة الكريهة كانت مصدر شقائه ومنها انبعثت همومه وتسلسلت أشجانه .

وكذلك لما نزلت عليه تلك الكارثة كالصاعقة ، فأذهلته وذهبت بلبه ، مضى يتخبط فى خباله إلى بعض جيرانه فاقترض منه حصانه ومركبته ، وهو الآن يحمل زوجته إلى المستشفى يبتغى شفاءها على يد الطبيب « بافيل إيفانيتش » .

قال الرجل المسكين يخاطب زوجته : « اسمعى يا ماتريونا » إذا سألك الطبيب « بافيل إيفانيتش» هل أسىء إليك بالسب والضرب ، فقولى له كلا وأقسم لك لن أضربك ألبتة ! وهل تعتقدين ياماتريونا » أنى ضربتك مرة عن عمد وإصرار أو عن حقد وضغينة أو عن بغض وكراهية ؟ كلا ما ضربتك قط إلا عن غير عمد وبلا نية ولا تفكير ، ولقد والله ساءنى وشجانى ما ألم بك ، فها أنذا موجع

القلب مفتت الكبد . وكم من رجل غيرى تصاب امرأته فلا يأسى ولا يحزن . بل لا يحفل ولا يبالى ، ولكنى كما ترين أهتم من أجلك . وها أنذا أحملك إلى الطبيب لا أدخر فى سبيل إسعافك وسعا ولا مجهودا ، ثم انظرى إلى العواصف والأنواء والثلج والجليد ، ما أشد عصف الرياح ! فليفعل الله ما يشاء لا مرد لقضائه ، اللهم هبنا رحمة من لدنك وهيئ لنا من أمرنا رشدا ، مابالك لا تتكلمين ياماتريونا » أتحسين ألما فى جنبك ؟ خبرينى كيف حالك وماذا تشتكين ؟ »

ولكنها لم تجب ولم تنطق ، وأدهشه أن ما لصق بوجهها من الثلج كان لا يزال متجمدا لا يذوب ، وأن الوجه ذاته كان يبدو مستطيلا مسحوبا شاحبا ممتقعا وقد اكتسى معنى مهيبا من الجد والوقار .

قال الرجل : « تالله إنك لبلهاء ! أقسم لك أنى لن أعود البتة إلى سبك وضربك فلا تصدقين ، تا لله إنك لبلهاء ، وأولى لى ألا أحملك إلى الطبيب « بافيل إيفانيتش » .

أرخى الرجل للحصان عنانه واستغرق فى غمار هواجسه ، وكلما هم أن يلتفت إلى امرأته منعه نوع غريب من الخوف كان يخامر فؤاده ، وكلما هم أن يوجه إليها سؤالا خاف ألا تجيبه ، وأخيرا ليزيل الشك باليقين لمس يد المرأة ورفعها دون أن يلتفت إليها فما لبثت تلك اليد أن سقطت كأنها كتلة من الخشب .

عند ذلك قال الرجل : « لقد ماتت ، ماذا أصنع فى هذه الورطة ؟ »

ثم طفق يبكى وينتحب ، ولعل أكبر همه وغمه كان من الحيرة والارتباك لا من الحزن ، لقد جعل يفكر فى سرعة زوال كل شيء فى هذا الكون ! وأن مصابه ما كاد يبتدىء حتى عجلت الفاجعة الخاتمة ! وبدأ يشعر أنه لم يمهل من الوقت متسعا يعيش فيه مع زوجته فيظهر لها مزيد أسفه وحزنه عليها قبل موتها ، لقد عاش معها أربعين عاما ، ولكن هذه الأربعين مرت كأنما فى ضبابة كثيفة ! لقد مضى ذلك العهد ولم يذق فيه طعم الحياة لما نغصه من السكر والمشاحنات والفاقة ، ومما ضاعف البلية أن امرأته ماتت فى اللحظة التى بدأ فيها يشعر أنه آسف على ما كان من اساءته إليها ، عاجز عن قضاء الحياة بدونها ، عازم على

استرضائها واستعطافها .

وجعل يتذكر ويقول : « لا حول ولا قوة إلا بالله ! لقد كانت تطوف بالقرية وتجوب أقطارها تشحذ لنا الخبز ! يا للبلية وياللمصيبة ، لقد كان ينبغى أن نعيش عشر سنين أخرى ، يالها من حمقاء بلهاء ! ولكن أين أنا ؟ وأيان أذهب ؟ لاموجب للذهاب الآن إلى المستشفى ، فما بنا الآن من حاجة إلى طبيب بل إلى دافن فلنرجع » .

وكذلك ابتدأ « جريجورى » العودة يزجر الحصان ويستحثه بكل ما أوتى من قوة ، ولجت العاصفة فى غلوائها وتكاثف ضباب الثلج ، فخفى عليه كل شيء حتى رأس حصانه ومضى يتخبط فى طريقه .

واستمر يناجى نفسه : « ليتنى أبدأ الحياة من جديد ! »

وهنا تذكر أنه منذ أربعين عاما كانت زوجيته « ماتريونا » غادة حسناء مرحة لعوبا ، من أسرة ميسورة وقد زوجوها منه لما بلغهم من مهارته فى فنه ، فكانت أسباب السعادة عنده إذ ذاك مكتملة ووسائل الرغد والرخاء موفورة ، ولكنه ابتلى بالخمر فكانت آفة عيشه وسم حياته ، ومنذ سكر فى ليلة العرس وانطرح على صفة الموقد صريع الكأس لا يصحو ولا يفيق ، فقد ظل إلى هذه اللحظة غير مفيق ولا صاح ! لقد كانت حياته منذ ذاك سكرة أبدية ! أنه ليذكر عرسه وليلة زفافه ، فأما ما كان وجرى بعد ذلك فلا يستطيع أن يذكر منه شيئا .. سوى أنه يسكر وينطرح على صفة الموقد ويتشاجر ، وعلى هذه الوتيرة ضاعت أربعون حجة ، فى سبيل الله تلك الحياة المبددة وذلك العمر الضائع !

بدأت سحائب الثلج البيضاء تستحيل غبراء رمادية ، إذ بدأ الفجر يلوح فى جانب الأفق .

قال الخراط وتذكر فجأة ما هو فيه وبعرضه : « أين أنا وأيان أذهب ؟ إنما ينبغى أن أفكر فى الدفنة ، وأرانى بعد ذاهبا على طريق المستشفى ، يخيل إلى أنى جننت ! »

ثم لوى حصانه وصب عليه سوطه فأركضه ملء فروجه ، وجعل يقريه السوط من آن لآخر ، وأنه أثناء ذلك ليسمع من خلفه دقات متوالية فعلم دون

أن يلتفت وراءه أن ذلك صوت اصطدام رأس الميتة بظهر المركبة ، وأخذ لون الثلج يزداد غبرة والريح تزداد حدة وخصرا .

وناجى الرجل نفسه « ليتنى أبدأ الحياة من جديد ، ولو عاد لى الشباب لدخلت الكنيسة وكنت قسيسا ، ومهما رزقنى الله من مال أعطه زوجتى »

وهنا سقط عنان الحصان من يده ، فحاول أن يتناوله فلم يستطع ، ماذا أصابه ؟ لقد شلت يداه !

فقال فى نفسه : « لا بأس من ذلك ، فالحصان يعرف الطريق وسيهتدى إليه من تلقاء نفسه ، وأرانى بعد فى أشد حاجة إلى النوم ، فلأغفين قليلا ، وأرى من الحكمة أن أنال قسطا من الراحة قبل أن يحين وقت الجنازة » .

وعلى أثر ذلك أغمض عينيه ونام ، وبعد برهة أحس بالحصان يقف فى مسيره ، ففتح عينيه فأبصر أمامه شيئا أسود كأنه كوخ أو كوم من الحطب .

وقد كان بوده أن ينزل عن المركبة ليتبين ما أمامه ، ولكنه كان قد أصابه من شدة الوهن والخور ما آثر معه أن يتجمد على أن يبرح مكانه . فاستسلم للنوم وسرعان ما استغرق فى أعماقه . ولما انتبه وجد نفسه فى حجرة فسيحة ملونة الجدران يتدفق نور النهار من نوافذها ، هذه إحدى غرف المستشفى ، وأبصر من حوله أناسا كثيرين مقبلين عليه بوجوههم ، فأراد أن يظهر أمامهم بمظهر الرجل الفهم العارف بواجباته . فقال : « نريد قبل كل شىء أن نقيم شعائرالجنازة لزوجتى المرحومة يا إخوانى ! ولابد من استدعاء القسيس » .

فصاح به الطبيب بافيل إيفانيتش : « هون عليك ولا تحمل نفسك الهم من أجل ذلك ، فلقد شيعت جنازتها ودفنت ، ارقد مكانك ! »

فلما بصر الخراط بالطبيب صرخ قائلا : « سيدى ومولاى بافيل ايفانيتش أعطنى يدك أقبلها »

وأراد أن يطفر من مكانه فيجثو بين يدى الطبيب تجلة وشكرا ، ولكنه ألفى يديه ورجليه لا تطاوعه إلى الحركة فقال :

« سيدى الطبيب ، أين ذراعاى وقدماى ؟ »

قال الطبيب : « فى سبيل الله ذراعاك وقدماك وسائرك ، ودعها الوداع

الأخير ، فلقد تجمدت . مالى أراك تبكى ؟ لقد عشت عيشتك وجريت شأوك ، فاحمد الله على ذلك ! وإن فى الستين التى قضيتها لكفاية » .

قال الخراط : « واحر قلباه إنى أذوب كمدا . ليت أجلى يمتد بضع سنين أخرى ! »

قال الطبيب : « ولماذا ؟ »

قال جريجورى : « لأقضى للواجب حقوقا قبلى ، فأدر الحصان والمركبة لصاحبهما وأدفن زوجتى وأسفح على قبرها دمعة ، واحزناه ! ما أسرع زوال كل شيء فى هذه الدنيا ! جزيت خيرا يا بافيل إيفانيتش ، أثنى عليك الإله بما يكل عنه لسانى ، ويضيق به جنانى ! لأصنعن لك علبة سجائر من أحسن البلوط ، وعلبة نشوق من أجود الصنوبر ، وسبحة من الكهرمان ، وقبقابا بالصدف »

فهز الطبيب رأسه هزة اليأس وخرج وقد ترك الخراط يلفظ آخر أنفاسه .

المقامرة

قال نارموف لضيوفه وهم على الخوان بعد انقضاء اللعب ، وأشار إلى شاب مهندس من ضباط الجيش :

« ما رأيكم في هرمان هذا الذى ما قامر قط ولا راهن ولا مس ورق اللعب بأصابعه ؟ »

فأجاب أحدهم واسمه تومسكي : « إن هرمان رجل ألمانى دأبه الاقتصاد ، ولكن إذا كان فى الدنيا مخلوق لا أفهم كنهه وباطن أمره فذلك هو جدتى الكونتيس حنة فيدور فينا »

قال الضيوف فى نفس واحد : « وكيف ذلك ؟ »

قال تومسكى : « منذ ستين عاما شخصت جدتى هذه وزوجها إلى باريز حيث أحدثت بفتنة جمالها الرائع ضجة أى ضجة ، وكانت إذ ذاك أجمل نساء العالم طرا وفى الثلاثين من عمرها ، وكان ضمن عشاقها إذ ذاك الوزير الخطير الكاردينال ريشيليو الذى جن بها جنونا وأوشك من فرط قسوتها وجفونها أن ينتحر ، وكانت جدتى تشهد موائد اللعب فخسرت مرة للدوق دى أورليان مبلغا هائلا ، ولما عادت إلى منزلها أخبرت جدى بذلك وسألته دفع المبلغ ، وكان يخشاها ويفرق من بأسها وسطوتها وينزل منها منزلة أخس الخدم من أعظم السلاطين والقياصرة ، غير أنه لما سمع بتلك الخسارة الفادحة تجاوز حده معها وخرج من سجيته وطبيعته وأجابها بالرفض البات ، فلطمته على صماخ أذنه لطمة كادت تصمه ونامت بمعزل عنه تلك الليلة ، وفى الصباح أعادت عليه الكرة فوجدته على الرفض والإباء مصرا مصمما .

فلما انقطع أملها من ناحيته ، أخذت تقلب وجوه الرأى للخلاص من ذلك المأزق ـ والحاجة تفتق الحيلة ـ فتذكرت رجلا نبيلا كانت عرفته قبل ذلك الحين يدعى سان جرمان ، وكان معروفا بحدة الذكاء وإتيان العجائب والغرائب ، وكان

البعض يزعمون أنه هو لا غيره مستكشف « إكسير الحياة » و« خاتم الملك » و« طاقية الإخفاء » و « حجر الفيلسوف » الخ ، ومهما يكن من أمر هذه المزاعم فلقد كان رجلا خلاب الحديث فتان المؤانسة وجيها لدى عامة الطبقات والدوائر ، وكانت جدتى تعلم أنه مثر من الأموال ، فأزمعت الالتجاء إليه واستدعته فأسرع إليها ، وحدثته عن قسوة زوجها ووحشيته بأفظع عبارة وطرحت عليه أعباء حاجتها الفادحة ، فأطرق الرجل مليا ثم قال :

« إنى قادر على إمدادك بالمال ، ولكنى أعلم أنك لن تستريحى بعد ذلك حتى ترديه إلى ، فكأنى سأخرجك من ورطة إلى ورطة .. ولكنى منبئك عن وسيلة تستردين بها خسارتك من طريق المقامرة »

قالت جدتى : « ولكنى يا عزيزى الكونت لا أملك من المال فتيلا ، فكيف أستأنف اللعب وأنا على هذه الحال من الإفلاس »

قال سان جرمان : « لا حاجة بك إلى المال ، تفضلى على بالإصغاء »

ثم أفضى إليها بسر غريب يتمنى كل واحد منا لو يشتريه بكل ما لديه من ثروة .

فذهل السامعون لهول هذا النبأ ودهشوا ، وأشعل تومسكى سيجارا وشرع يدخن ثم استأنف الحديث فقال :

« فى مساء ذلك اليوم ذهبت جدتى إلى قصر فرساى للمقامرة ، وافتتح الدوق دى أورليان اللعب فاعتذرت جدتى عن سداد دينها له ألطف اعتذار ، ثم شرعت تلعب ضده فاختارت ثلاث ورقات ولعبتها واحدة تلو أخرى فربحت الثلاث جميعا ، وبذلك استردت جدتى ما كانت خسرته فى الليلة السابقة مشفوعا بأرباح جمة »

قال أحد الضيوف :

« عجبا ! أيكون لك جدة كهذه ثم يعييك أن تستخرج منها هذا السر الهائل ؟ »

« هذا من المحال ! لقد كان لجدتى ثلاثة بنين ما منهم إلا مقامر مغامر ، ومع ذلك أبت أن تبوح لأيهم بذلك السر على ما فيه من فائدة ، ولكن عمى الكونت

إيفان أليتش حدثني الحديث الآتي ، وهو أن المرحوم تشابلتسكي الذي مات ففيرا بعد تبديده الملايين على مائدة القمار خسر مرة ثلاثمائة ألف روبيل فكاد يجن حزنا وغما ، فرثت له عمتي فأعطته ثلاث ورقات وأمرته أن يلعبها على التوالى ، وأخذت عليه عهد الله وميثاقه ألا يبوح بالسر وألا يعاود اللعب بعد ذلك ما عاش ، فمضى تشابلتسكي إلى خصمه ولاعبه فأخطر على الورقة الأولى خمسين ألف روبيل فربحت ، ثم ضاعف المبلغ على الورقة الثانية فربحت ، وضاعفه على الثالثة فربحت .. وبذلك استراد فوق ما كان قد خسر ..

ولكن قد آن لنا أن ننصرف آذن الفجر أن يلوح والديك أن يصيح »

فشرب الجماعة سؤر أقداحهم وتوادعوا وافترقوا .

كانت الكونتيس العجوز عمة تومسكي جالسة فى التواليت أمام مرآتها ومن حولها ثلاث وصائف يخدمنها ، وكانت الكونتيس قد فقدت كل أثر جمالها الغابر ، ولكنها لم تفقد عادات شبابها المندثر من التجمل والتبرج .

وكانت تجلس قرب النافذة وصيفة لها فتية حسناء تشتغل على منسج التطريز .

هذه الفتاة ـ واسمها ليزافيتا ـ كانت تصوب نظرها نحو النافذة من حين إلى حين ، ثم ألقت نسيجها وأطلت من النافذة ، ولم تك إلا هنيهة حتى ارتفع لها فى أقصى الطريق شبح فتى فى زى الضباط المهندسين ، فاحمر وجهها خجلا وتناولت نسيجها واستأنفت عملها على المنسج ، وفى هذه اللحظة عادت الكونتيس العجوز مستكملة اللباس والزينة وقالت :

« ليزافيتا » مرى الخدم بإعداد المركبة ، سنخرج للنزهة »

فقامت الفتاة عن منسجها مضطربة وأطلت من النافذة كمن به ذهول ، ووقفت شاخصة البصر حائرة .

قالت الكونتيس مغضبة :

« ليزافيتا ! ما خطبك يا بنيتى ! أبلك صمم أم ذهول أم ماذا ؟ مرى الخدم بتجهيز المركبة فى الحال »

فانطلقت الفتاة مسرعة ، وفى تلك اللحظة دخل أحد الخدم فقدم للكونتيس بضعة كتب هدية من البرنس بول الكسندروفتش .

قالت الكونتيس للخادم : « بلغ البرنس منى أجزل الثناء . ليزافيتا ! ليزافيتا ! إلى أين تسرعين ؟ »

« إنى ذاهبة لألبس ثيابى للنزهة كما أمرت »

« لا تفعلى ! بل اجلسى بين يدى الآن وافتحى هذا المجلد واقرئى لى منه شيئا »

فتناولت الفتاة الكتاب وقرأت بضعة سطور .

قالت الكونتيس : « ارفعى صوتك يا فتاة ، ماذا أصابك ، هل فقدت صوتك ؟ اقتربى منى ، حسبك حسبك ! »

قرأت الفتاة سطرين آخرين ، وبدأت العجوز تتثاءب ، ثم قالت :

« ارمى الكتاب من يدك ، كلام غث سخيف من سقط المتاع ، لغو وهذر وهذيان ، رديه إلى البرنس مع الشكر ، ولكن أين المركبة ؟ »

قالت الآنسة وأطلت من النافذة :

« المركبة على أتم استعداد »

قالت الكونتيس : « كيف تأخرت عن ارتداء ملابسك حتى الآن ؟ هذا دأبك معى ، لا تزالين تجشمينى مشقة انتظارك ! ويل لك ياليزافيتا ! هذا ما ليس يطاق ياغادة »

فأسرعت الفتاة إلى غرفتها ، وماكادت تذهب حتى شرعت الكونتيس تقرع الجرس بأقصى ما لديها من قوة .

فهجم ثلاث وصيفات من باب وهجم ثلاثة خدام من الباب الآخر .

وصاحت الكونتيس :

« لقد أصبحت فى قصرى لا أطاع ولا يسمع لى قول ولا يؤبه لى ولا يحفل بى ! أين ليزافيتا ؟ خبروها أنى فى انتظارها وأنه قد عيل صبرى »

وهنا عادت ليزافيتا فى برنسها وقبعتها .

قالت الكونتيس :

« لقد طالت غيبتك ياليزافيتا ، ولكن لماذا كل هذا التجمل والتزين ؟ ومن يا

ترى تنوين اقتناصه بحبائل زخرفك وزينتك ؟ كيف ترين حالة الجو ياليزافيتا ؟ إنه ليوم عاصف ! »

قالت ليزافيتا وسائر الوصيفات والخدم :

« كلا يا سيدتى إنه ليوم صحو ساكن الريح سجسج »

قالت الكونتيس : « كلا إنه ليوم عبوس قمطرير ، أوقد فقدتم حواسكم ؟ ألا تحسون الريح والبرد القارس ؟ ، اعروا الخيل من العدة ، لا موجب للخروج اليوم ، ولم تكونى بحاجة إلى كل هذا التزين والتبرج ياليزافيتا »

قالت ليزافيتا فى نفسها : « ما هذا العذاب الأليم المبرح ؟ ويلى من هذه العيشة ثم ويلى ! »

* * *

فى ذات صباح قبل وقوع هذه الحوادث بأسبوع كانت الآنسة ليزافيتا جالسة إلى النافذة تطرز على منسجها ، فحانت منها التفاتة إلى الطريق فوقع بصرها على فتى من فرقة الضباط المهندسين ، وكان واقفا لا يبدى حراكا يدمن النظر إلى نافذتها ، فنكست رأسها وأقبلت على عملها .

وبعد خمس دقائق أطلت ثانيا من النافذة ، فإذا الفتى الضابط لم يبرح مكانه وهو لا يزال موكلا طرفه بالنافذة ، ولما لم يكن من شأنها مغازلة الضباط الناظرين إلى نافذتها أقبلت على عملها بجد ونشاط ، واستمرت كذلك ساعتين كاملتين دون أن ترفع رأسها ، ثم دق جرس الغداء ، فنهضت وطوت نسيجها ، ثم حانت منها التفاتة إلى الطريق فإذا الضابط لم يغادر موقفه فاشتد عجبها من ذلك ؛ وبعد الغداء عادت إلى النافذة وبها شىء من القلق والاضطراب ونظرت ولكنها لم تجد للضابط أثرا ، فصرفت من ذهنها شبحه وتناسته .

وبينما هى تهم بالركوب مع الكونتيس بعد ذلك بيومين ، أبصرت ذلك الضابط خلف باب المركبة متلثما تتوقد عيناه السوداوان من دون لثامه ، فأوجست منه خيفة لغير علة واضحة وأخذت مجلسها من المركبة والرعب يرجف أوصالها .

ولما عادت إلى المنزل أسرعت إلى النافذة فإذا الضابط بموقفه المعتاد يديم إليها النظر ، فارتدت منقبضة وتملكها نوع غريب من الشعور لم تفقه له معنى .

ومن ثم فصاعدا لم يمض يوم إلا ظهر ذلك الضابط تحت النافذة فى الساعة المعهودة ، فنشأ بين الفتاة وبينه نوع من التعارف الصامت والصحبة الخرساء ، فكانت أثناء عملها على المنسج تحس ريحه وتشعر بروحه ، ثم ترفع رأسها فتنظر إليه ، وجعلت نظراتها تزداد طولا على ممر الأيام ، وكأن الفتى قد فطن لذلك واستأنس به وارتاح إليه ، وكأن عينه كانت تنم عن فرط شكره لها تلك النعمة الجزيلة ، وكانت الفتاة تبصر احمرار وجهه كلما تلاقت ألحاظهما ، وبعد مضى أسبوع بدأت تبتسم إليه .

لعل القارىء أدرك أن هذا الفتى هو هرمان الذى ورد ذكره فى أول هذه القصة ، وعرف بأنه من فرقة الضباط المهندسين .

كان هرمان هذا ابنا لرجل ألمانى استوطن روسيا وتجنس بالجنسية الروسية ، وكان قد ورث عن أبيه ثروة لا بأس بها ، وكان شديد الاقتصاد فى النفقة يجتزىء بمرتبه ولا يمس ميراثه ، وكان جم الحشمة والوقار بعيد المطامع والمطامح ، حاد الشهوات ، له من قوة عزيمته وخزمه أشد رادع وقامع لشهواته ، فكان مع فرط ميله للمقامرة لم يمس ورق اللعب قط .

وكانت قصة الورقات الثلاث أثرت فى نفسه أشد تأثير وأشعلت خياله ، فجعل يسهر الليالى الطوال لا يفكر فى غير ذلك ، ثم بحث عن قصر الكونتيس حتى عرف مكانه وأبصر الفتاة ليزافيتا وهى تطرز على منسجها فأزمع أن يصل إليها مهما كلفه ذلك ، ليتخذها سلما إلى الوصول لسيدتها الكونتيس واستخراج سر الورقات الثلاث منها طوعا أو كرها ، ثم كان من أمر وقوفه إزاء النافذة ومخالسته النظرات للفتاة وتحديه إياها ما قد وصفنا .

* * *

قلنا إن الكونتيس بعد أن أمرت بإعداد المركبة أمرت ثانيا بفك الخيل ولكنها ما لبثت أن أمرت بإعدادها ثانيا ، وكذلك لم تكد ليزافيتا تنزع برنسها وقبعتها حتى أمرت بلبسهما ثانيا وخرجت هى وسيدتها للركوب .

وبينما الكونتيس تأخذ مجلسها من المركبة ، أبصرت ليزافيتا الضابط هرمان عند العجلة فقبض على يدها فكاد الرعب يذهب بعقلها ، ثم اختفى الضابط وقد

ترك بين أصابعها رقعة صغيرة فأخفتها فى قفازها ، وبقيت أثناء سير المركبة لا تبصر ولا تسمع ولا تعى ولا تفقه ، وكلما ألقت عليها الكونتيس سؤالاـ وما كان أكثر أسئلتهاـ أجابتها إما بالصمت أو بما هو شر من الصمت من جنواب سخيف خارج عن الموضوع ، حتى ضجت الكونتيس وانهالت على الفتاة بالشتم والسباب .

ولما عادتا من النزهة أسرعت ليزافيتا إلى حجرتها فأخرجت الرقعة من قفازها ، وقرأت فيها أحر آيات الوجد والهيام فى عبارة رقيقة سداها الحشمة ولحمتها الأدب والعفاف فطربت لذلك كل الطرب وسرت أيما سرور ، على أن سرورها كان مشوبا بنوع من القلق والاضطراب ، وذلك أنها كانت لأول مرة فى حياتها ترتبط مع شاب غريب بعلائق سرية خصوصية ، وقد كان فى شدة جرأة ذلك الشاب ما أخافها وأرهبها ، وأخذت تعنف نفسها على طيشها وتهورها ولم تدر ماذا تصنع .. أتمتنع عن الجلوس لدى النافذة فتقطع آمال الفتى بهذا الصد والجفاء ؟ أترد إليه رسالته فتوئسه أم تجيبه عليها جواب رفض وغباء ؟ وبعد طول الحيرة والتردد حررت الرد الآتى :

« لاشك عندى أن غرضك شريف وأنك لا تريد أن تؤذينى بأدنى شىء يحرج مركزى أو يشوه سمعتى ، غير أنى لا أحب أن يكون بدء تعارفنا بهذه الطريقة التى تسلكها »

ولما ظهر هرمان فى اليوم الثانى تحت النافذة ألقت بالرقعة على ظهر الطريق ، فسرعان ما التقطها وطار بها إلى دكان حلوى ففض غلافها فألفى داخله رسالته مردودة والجواب عليها ، وكان قد توقع ذلك ، فانقلب إلى داره وذهنه مشغول بما كان يدبره من الدسيسة .

وبعد ثلاثة أيام من هذه الحادثة ، قدمت على ليزافيتا صبية براقة العينين صانعة فى بعض دكاكين الملابس ، فقدمت إليها رسالة ففضتها ليزافيتا بيد مرتجفة وهى تخشى أن تكون من غريم يطالب بدين ، ولكنها مالبثت أن عرفت خط هرمان فقالت للصبية :

« لقد أخطأت يا عزيزتى ، هذه الرقعة ليست لى »

فابتسمت الصبية ابتسامة معنوية وقالت :

« بل إنها لك يا سيدتى فاقرئيها »

فنظرت ليزافيتا فى الرسالة ، فتبينت منها أن هرمان يطلب لقاءها . فصاحت وقد أزعجتها وقاحة ذلك الطلب :

« أنا واثقة أن هذه الرسالة ليست لى »

ثم مزقت الورقة شرّ ممزق .

قالت الصبية : « إذا كنت واثقة أنها ليست لك فلماذا مزقتها ؟ لقد كان ينبغى أن ترديها إلى صاحبها »

فارتبكت ليزافيتا أمام هذه الملاحظة الدقيقة وقالت :

« أرجوك يا عزيزتى ألا تأتينى بأية رسائل أخرى ، وخبرى مرسلك أن هذا عار عليه »

ولكن هرمان لم يكن بالرجل الذى تصدمه مثل هذه الصدمة ، فجعل لا يمر يوم إلا أتتها منه رسالة مشحونة بآيات الوله والصبابة وعبارات الاستمالة والاستعطاف ، فكانت تنم عن صرامة عزيمته وصلابة إرادته وطمحات خياله الجامح الشرود الذى لا ترده شكيمة ولا يثنيه عنان .

فوهنت الفتاة أمام هذا السيل الجارف ، فأذعنت واستكانت ولم تعد تقوى على رد تلك الرسائل ، بل لقد جعلت تستريح إليها وتجد لها حلاوة فى سمعها وروحا وريحانا على كبدها ، وبدأت تجيبه على رسائله ، وكانت ردودها تزداد على الأيام إطنابا وإسهابا ورقة وغزلا ، إلى أن ألقت إليه من نافذتها ذات صباح الرسالة الآتية :

« فى هذه الليلة ستقام حفلة رقص فى دار السفارة وستشهد الكونتيس هذه الحفلة ، وسأظل معها هنالك إلى الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، وسيبقى المنزل خاليا إلا من البواب وهذا من دأبه النعاس .

فاطرق المنزل الساعة الثانية عشرة ، فإذا عثر بك أحد فى الساحة فاجعل حجتك السؤال عن الكونتيس وارجع بسلام ، ولكن المنظور أنك لن تصادف

أحدا فى سبيلك ، فاعمد إلى غرفة الكونتيس تجد بها حاجزا خلفه بابان فافتح الأيسر يؤدك إلى دهليز فى أقصاه سلم يفضى إلى غرفتى : فانتظرنى بها »

* * *

فى الساعة الثانية عشرة صعد هرمان سدة الباب ودخل الساحة المشرقة بالمصابيح الوهاجة ، ولم يجد للبواب أثرا ، فرقى السلم حتى بلغ حجرة الكونتيس التى بها مضجعها ، فألفى فى إحدى زواياها شبه محراب مزدانا بصور القديسين وتماثيل القديسات ينيره مصباح من الذهب الأبريز ، وحول الحجرة نمارق وأرائك عليها وثير الوسائد وخور الحشايا قد نصلت أصباغها لتقادم العهد ورقمت عليها يد القدم سطور الوحشة والكآبة ، وكان على أحد الجدران صورتان من صنع المصورة الباريزية المشهورة « ليبران » . إحداهما تمثل رجلا ربعة بادنا أشقر يناهز الأربعين ، فى حلة عسكرية خضراء (زوج الكونتيس المتوفى) ، والصورة الثانية تمثل الكونتيس فى صباها : فتاة حسناء شماء العرنين على جبينها طرة مصفوفة محلاة بوردة حمراء ، وفى أركان الحجرة تماثيل من شتى الأفانين : من البرونز والخزف الصينى ، وساعات وصناديق بها حلى وزخارف ومراوح وشتى أصناف اللعب والتحف .

وقف هرمان خلف الحاجز فألفى لدى ظهره سريرا من الحديد وعلى يمينه باب المقصورة الخاصة بالكونتيس ، وعلى يساره الباب المؤدى إلى دهليز ففتحه فأبصر السلم المفضى إلى حجرة الوصيفة ليزافيتا ، ولكنه أغلقه ولبث مكانه .

مر الوقت بطيئا ، وكان السكون سائدا ، ولبث هرمان واقفا مستندا إلى رف الموقد الخامد ، ودقت الساعة واحدة ، ثم نصفا ، ثم اثنتين ، وإذ ذاك سمع وقع حوافر وصرير عجلات من أقصى مسافة ، فاعترته رجفة شديدة وهزة عنيفة ، وتقدمت المركبة ثم وقفت ، وسمع حركات الوصائف بالقصر غاديات رائحات فى هرج ومرج ، وأشعلت المصابيح وتألقت أضواؤها ، ودخل حجرة الكونتيس ثلاث وصائف وعلى أثرهن الكونتيس قد نهكها التعب فتهالكت على كرسى وهى أشبه بالأموات منها بالأحياء ، ونظر هرمان من خلال الحاجز فأبصر ليزافيتا تمر به عن كثب وقد ولجت الباب لأيسر وصعدت فى السلم المؤدى إلى

حجرتها ، فأحس نوعا من الندم ووخز الضمير على خيانته إياها وغدره بها ، ولكنه ما لبث أن قسا قلبه وكتم صوت ضميره وعاد إلى سيرته الأولى من الجمود والجفوة .

خلعت الكونتيس ثياب الزينة وارتدت جلباب النوم ، وجلست إلى النافذة بعد أن صُرفت الوصائف وأطفأت المصابيح إلا قنديلا ضئيلا كامد الشعاع ، وكانت الكونتيس كسائر العجائز مصابه بالأرق ، فلبثت مكانها من النافذة صفراء الوجه والبشرة كأنما غمست فى حوض من الكركم تتحرك شفتاها وتترجح يمنة ويسرة .

وكانت عيناها الكليلتان الثقيلتان تنمان عن الذهول والتدله ، وكأن اهتزاز جثتها منبعث عن آلة كهربائية مخبوءة فى أحشائها .

ولكن وجهها الميت تحرك فجأة ، فوقف ارتعاش الشفتين وبدت أمارات الحياة فى عينيها ـ ماذا جرى ؟ لقد ظهر أمامها رجل غريب مجهول .

وقال لها هرمان : « لا تخافى ، لست بضائرك ، لقد جئت أسألك حاجة »

فنظرت إليه العجوز فى صمت كأنها لم تفهم مقالته ، وظن هرمان أن بها صمما ، فأدنى فمه من أذنها وأعاد ما قاله فتمادت العجوز فى صمتها . وقال هرمان « إن فى مقدورك إسعاد حياتى وترفيه عيشى ، ففى استطاعتك أن تسمى لى ثلاث ورقات من ورق اللعب .. »

وهنا سكت هرمان إذ بدا له أن العجوز بدأت تفهم كلامه ، وكأنها كانت تعالج نفسها على أن تهيىء له جوابا .

فقالت بعد جهد جهيد : « لم يكن ذلك إلا من باب المزح والفكاهة »

فأجاب هرمان مغضبا : « كلا ! الأمر جد صراح لا مزاح فيه ولا فكاهة . اذكرى صاحبك تشابلتسكى الذى أقلت عثرته وفرجت غمته وأعنته على استرداد خسائره ، ألا تستطيعين تسمية هذه الورقات ؟ »

فتمادت العجوز فى سكونها . وهنا خر هرمان راكعا تحت قدميها وقال :

« لمن تدخرين هذا السر ؟ لذريتك وأحفادك وقد أغناهم الله عنه بالثروة الطائلة والنعمة الفسيحة ؟ رحماك أيتها الحرة الكريمة ! .. وإذا كنت تعرفين

شعور الحب : حب العاشقة لعشيقها والأم لرضيعها والشقيقة لشقيقتها ، فإنى أستحلفك بعواطف العاشقة والوالدة والشقيقة ، بكل ما هو مقدس فى الحياة ، إلا ما أجبت دعائى وقضيت حاجتى »

كل ذلك والكونتيس صامتة لا تنبس .

فعند ذلك ثار هرمان لقدميه وصاح :

« تبا لك من عجوز شوهاء ! لأرغمنك على الكلام إرغاما » وأخرج مسدسا من جيبه .

فبدت علامات القلق على العجوز ، فرفعت يديها كأنها تحاول اتقاء القذيفة واستلقت على ظهرها وبقيت مسلوبة النطق والحركة .

فصاح هرمان وقبض على يدها : « أجيبى ! إنى أسألك للمرة الأخيرة ! أجيبى ! ما هى الورقات الثلاث ؟ »

فلم تحر جوابا ، وتأمل هرمان فى وجهها فإذا هى ميتة .

كانت ليزافيتا جالسة فى غرفتها قد ضمت ذراعيها الحاسرتين على صدرها العارى ، وكان رأسها المحلى بالأزهار منكسا على ترائبها المصقولة ، وإنها لكذلك إذ فتح الباب ودخل هرمان فعرتها هزة ، وسألته بصوت مرتجف : « أين كنت ؟ »

قال هرمان : « فى حجرة الكونتيس ، لقد تركتها وقد فاضت روحها ؟

« يالله ! ماذا تقول ؟ »

« وأخشى أن أكون أنا السبب فى موتها »

وجلس هرمان إلى جانبها وقص عليها ما جرى .

وأصغت إليها الفتاة وفرائصها من الروع ترتعد .

وكذلك ظهر لها أن جميع تلك الرسائل الغرامية ، وكل ذلك الحرص والرغبة والطلاب والمطاردة لم يكن مصدره الحب بل المال ، وإنها لم تكن إلا آلة صماء فى يد لص أثيم !

فذرفت دموع الندم مرة حارة ، وجعل هرمان ينظر إليها صامتا وقلبه نهب

الوساوس الأليمة .

وقالت ليزافيتا : « إنك لوحش ضار »

وبدأ الصبح يتنفس ، وقامت ليزافيتا فأرشدت هرمان إلى السلم السرى وضغط على يدها الباردة المسترخية سلام الوداع ، وانطلق .

ولما انكفأ هرمان فى المساء اليوم التالى إلى غرفته ، انطرح على مقعد بها منهوك القوى دون أن ينزع ثيابه فاستغرق في النوم ، ولما انتبه من هجعته كان الليل قد غسق وألقى القمر جرمه على أرجاء الغرفة .

وإنه لكذلك إذ فتح عليه باب الحجرة ودخلت امرأة فى ثوب أبيض فدنت منه وإذا هى الكونتيس ، وقالت بصوت ثابت متين :

« لقد جئتك على غير إرادة منى ، ولكن أمرت أن أجئ فجئت ، ستربح إذا لعبت الورقات الثلاث الآتية على التوالى ، كل واحدة فى ليلة ، ثم لا تعيد الكرة . والورقات هى : ثلاثة ، سبعة ، فنط »

ثم املست من أمامه .

* * *

كان فى موسكو جمعية مؤلفة من جبابرة المقامرين يرأسها شيكالتسكى الطائر الصيت .

فى إحدى الليالى قدم إلى بيت شيكالتسكى هرمان فى صحبة تومسكى ، وقدم الأخير هرمان إلى صاحب البيت ، واندمج هرمان فى صفوف المقامرين ، ودارت رحى الميسر وانتهى الدور الأول ، وشرع شيكالتسكى يفنط الورق استعدادا للدور الثانى .

قال هرمان : « أتسمح لى أن آخذ ورقة ؟ »

فابتسم شيكالتسكى وانحنى دلالة الرضى والقبول .

قال هرمان : « أريد الاشتراك » وكتب أرقاما بالطباشير على ظهر ورقته .

قال صاحب البنك (شيكالتسكى) وحدد بصره إلى ما رقمه هرمان على ظهر الورقة : « على أى مبلغ يا سيدى ؟ معذرة إنى قصير النظر »

قال هرمان : « على سبعة وأربعين ألف روبيل » (أعنى كل ما ورثه عن أبيه) .

فعند سماع هذه الكلمة انتفض جميع من بالمكان من المقامرين والمتفرجين ولم يصدقوا آذانهم ولبثوا فى دهشة وذهول ، وقال تومسكى فى نفسه : « حقا لقد خولط هرمان فى عقله »

وقال شيكالتسكى بابتسامته المعهودة : « هذا مبلغ باهظ ، ولم يحدث قط أن أحدا ممن قامروا على هذه المائدة جازف بأكثر من مائتين وخمسين روبل دفعة واحدة »

قال هرمان : « قد يكون قولك حقا ، ولكن خبرنى أتقبل ورقتى أم ترفضها ؟ »

فابتسم شيكالتسكى وانحنى قبولا ، وقال : « اسمح لى مع مزيد ثقتى بتصريح أصدقائى أنى لا أقامر إلا على المال الحاضر النقد ، وقد أعلم أن كلمتك كافية ، ولكنى محافظة على نظام اللعب أطلب إليك أن تضع المبلغ على ورقتك »

فأخرج هرمان من جيبه بنكنوتا فأسلمها إلى شيكالتسكى ، فأمر عليها الأخير نظرة خفيفة سريعة ثم وضعها على ورقة هرمان .

وشرع ينثر الورق ، فظهر على اليمين « تسعة » وعلى اليسار « ثلاثة »

فقال هرمان وأظهر ورقته :

« رابحة »

فتهامس الحضور دهشة ، وعبس شيكالتسكى ولكن الابتسامة الأبدية ما لبثت أن عاودت وجهه .

وقال لهرمان : « أتريد أن أنقدك المبلغ الآن ؟ »

قال هرمان : « إذا شئت »

فأبرز شيكالتسكى من جيبه طائفة من البنكنوت فدفعها إلى هرمان فأخذها صاحبنا وانطلق إلى داره .

وفى مساء اليوم التالى دخل هرمان بيت شيكالتسكى فوجده يوزع الورق ، فأفسح اللاعبون لهرمان مجلسا بينهم ، وحياه رب الدار بانحناءة المرحب وابتسامة

المستبشر .

واشترك هرمان فى الدور التالى ، فتناول ورقة ووضع عليها جميع رأس ماله (أعنى السبعة والأربعين ألف روبيل وما ربحه الليلة السابقة وشرع شيكالتسكى ينثر الورق فظهر على اليمين « عشرة » وعلى اليسار « سبعة »

فأبرز هرمان « سبعة »

فضج القوم أجمعين وعلا هتافهم ، وبدا القلق على وجه شيكالتسكى ولكنه عد المبلغ ـ وهو أربعة وتسعون ألف روبيل ـ فدفعه إلى هرمان ، فتناوله هرمان بأثبت يد وأربط جأش وغادر المكان فى الحال .

وفى الليلة التالية قدم هرمان الدار ، وكان الكل فى انتظاره ، وتحول الجنرالات والمستشارون والسراة والوجهاء عن لعبتهم « الوست » ليشاهدوا هذا المقامر الخطير ، ونهض الضباط عن مجالسهم لعين هذا الغرض ، وكذلك الخدام أنفسهم احتشدوا حول المائدة حتى غص بهم المكان ، وأحدق الجميع بهرمان إحداق السوار بالمعصم يتزاحمون من حوله ويتدافعون ، وأضرب اللاعبون عن اللعب لينظروا ماذا تكون العاقبة والمآل .

ووقف هرمان على المائدة وشمر للعب وحده شيكالتسكى ، الذى كان على شدة اصفرار وجهه لا يزال يبتسم ، فتناول كل منهما رزمة من الورق وشرع شيكالتسكى يفنط ورقه ، وتناول هرمان ورقة وغطاها بكومة من البنكنوت ، وشرع شيكالتسكى ينثر الورق ويداه ترتجفان فظهر على اليمين « ولد » وعلى اليسار « فنط »

فصاح هرمان وقد أبرز ورقته : « هذا هو الفنط ! لقد ربح ! »

فأجابه شيكالتسكى بكل أدب واحترام :

« معذرة يا سيدى ، إن الذى فى يدك ليس « الفنط » كما تتوهم ولكنه « المرأة الأسباتى » وقد خسرت .

فانتفض هرمان مذعورا ونظر فى ورقته فإذا هى « المرأة الأسباتى » وكان قد أعد « الفنط » فى يده ، ماذا جرى ؟ وماذا قلب الورقة فى يده وبدلها ؟ تلك قوة خفية شيطانية !

ونظر « المرأة الأسباتى » فخيل إليه أنه يبصر فيها صورة الكونتيس ، وأنها تبتسم إليه ابتسامة هزء وسخرية وتغمز إليه بعينها وحاجبها .

فصاح وقد ملكه الرعب :

« الكونتيس العجوز ! الكونتيس العجوز ! »

وشرع شيكالتسكى يجمع أرباحه ، ولبث هرمان فاقد الحركة والصواب برهة من الزمن .

ولما غادر المكان علت فيه ضجة القوم ولجبهم وقال اللاعبون : « إنها لأشنع خسارة ! »

واستأنف شيكالتسكى تفنيط الورق وجدد القوم المقامرة .

جن هرمان ، وهو الآن نزيل إحدى المستشفيات ، لا يعى قولا ولايحير جوابا .. ولكن لسانه دائم الوسواس بهذه الكلمة : « ثلاثة ، سبعة ، فنط ، ثلاثة ، سبعة ، امرأة أسباتى ، الخ الخ »

وزوجت ليزافيتا من فتى جميل ممن كانوا فى خدمة الكونتيس ، وعاشت معه أرغد عيش وأصفاه .

أحكام القدر

كانت الفتاة « ماري » ابنة سري من سراة القرويين ببعض الأقاليم الروسية . وكانت تحب ضابط الجيش وكان ذلك الضابط بها مولعا . ولما علم أبواها بتلك العلاقة الغرامية حرما عليها لقاءه . ولكن ذلك لم يمنع تمادي المحبة بينهما بتبادل الرسائل والاجتماع أحيانا في غابة قريبة من دار الفتاة حيث تعاهدا على أن يبذلا أقصى الجهد في سبيل تحقيق آمالهما من الاقتران ولو بالفرار إلى أي ناحية .

وجاء الشتاء فحال بينهما بثلجه وجليده ولكن ذلك أدى إلى تزايد الرسائل بينهما . وكان الفتى (واسمه فلاديمير) يلح على الفتاة في كل رسالة أن تسلم نفسها إليه فتقترن به سرا . ثم لعله تبين لأبويها بعد ذلك استمرار الوئام والوفاق بينهما وحسن العشرة والمعاملة ودوام الوفاء والصفاء ، صفحا عنهما وعطفا عليهما وأنزلاهما من كنفهما سهلا رحيبا ومن ظلهما خضلا رطيبا .

وبعد طول تشكك وتردد وافقت الفتاة صاحبها على تنفيذ ما دبر لها من الحيلة للفرار من دار أبيها . وذلك أنها تمتنع عن تناول العشاء في اليوم المضروب للفرار . وتلزم غرفتها بعلة أنها منحرفة المزاج . ثم تذهب وخادمتها إلى حديقة المنزل على السلم الخلفي . ومتى خرجتا من الحديقة وجدتا زلاقة (المركبة المستعملة على الثلج) في انتظارهما فتركبانها وتمضيان إلى كنيسة في قرية صغيرة تقع على نحو خمسة أميال من قرية الفتاة . وهنالك تجدان أن فتاهما فلاديمير في انتظارهما .

في الليلة السابقة لذلك اليوم الموعود لم يغش النوم أجفان ماري . فقضت ليلتها في حزم أمتعتها وثيابها وكتابة رسالة إلى إحدى أترابها وأخرى لوالديها ضمنتها أرق كلمات الوداع والاعتذار . وختمتها بقولها إن أسعد ساعة عندها هي التي يتاح لها فيها أن ترمي بنفسها تحت أقدامهما استعطافا واسترحاما .

وبعد أن ختمت الرسالتين ألقت بنفسها على الفراش ، فأخذتها عينها برهة

ابتليت أثناءها بأخوف الأحلام وأزعجها . فأحيانا ترى كأن أباها انفض عليها وهى هاربة فأخذها أخذ عزيز مقتدر ثم قذف بها فى هاوية . وأحيانا ترى كأن حبيبها فلاديمير ملقى على الصعيد شاحب الوجه مضرجا بدمائه ، وأنه يتضرع إليها وهو فى سكرة الموت أن تتزوج به . وأخيرا هبت من منامها قلقة مضطربة ، موهنة متعبة .

جاء المساء . وكلما ذكرت أن هذا آخر أيامها بين أسرتها ، انخلع قلبها وذهب لبها وراحت بحال أقرب إلى الموت منها إلى الحياة وجعلت تودع كل ما يحيط بها من بشر وحيوان وجماد .

نصب الخوان . فاشتد خفقان قلبها وقالت بصوت متقطع أنها لا تشتهى الطعام واستأذنت أبويها فى الانصراف فأجاباها ودعوا لها بالخير والسعادة كشأنهما كل ليلة . فانصرفت من أمامهما وهى لا تملك عبرتها فأجهشت بالبكاء .

ولما دخلت غرفتها تهالكت على مقعد وأسبلت عينها وابلا مدرارا .فزجرتها خادمتها وأوصتها بالصبر والأناة .

ونظرت مارى فإذا كل شىء قد أعد للفرار . ثم ذكرت أنها بعد هنيهة مغادرة دار أبيها إلى حيث قد لا تعود إليها آخر الأبد . مغادرة أبويها وأسرتها وأهلها وغرفتها وأدواتها وذكريات ماضيها وعيشتها الآمنة المطمئنة أبد الآبدين .

كان الثلج إذ ذاك يملأ فضاء الجو والريح تعوى وتعول . ومصاريع النوافذ ترتج وتصطدم . وكل شىء ينذر بالشر والشؤم .

شمل السكون المنزل ونام أهله أجمعون . وارتدت مارى رداءها واشتملت بملاءة دفئة ، وتناولت حقيبتها وهبطت على السلم الخلفى وخادمتها إلى الحديقة . وكانت زوبعة الثلج لا تزال ثائرة والريح خفاقة الجلابيب تنفح وجه مارى وتدفع فى صدرها وتجذب بأطراف ردائها كأن لها عند الفتاة ثأرا . وبعد الجهد الجهيد خرجتا من الحديقة فألفيتا لدى الباب الزلاقة وسائقها فركبتا ووضعتا الأمتعة بين أيديهما وأرخى السائق لجواديه العنان فانطلقا .

والآن نترك الفتاة وخادمتها فى رعاية الأقدار وعناية السائق . ونرجع إلى الفتى فلاديمير عاشق الفتاة .

قضى فلاديمير سحابة اليوم فى إعداد العدة للاقتران بحبيبته . فزار كنيسة « جادرينو » التى قرر أن يتم بها عقد الزواج ، والتى قلنا إنها فى قرية تبعد عن قرية الفتاة بنحو خمسة أميال ، فقابل قسيسها واتفق معه بعد مشقة وعناء على إنجاز ذلك العقد ثم ذهب يلتمس الشهود من بين فلاحى تلك الناحية ، فعثر على ثلاثة من أصدقائه وفاتحهم في الأمر وأعلمهم مكان الكنيسة التى سيكون بها عقد القران ، فأجابوا طلبه وأقسموا ليذهبن إليها فى الموعد المحدود وليبذلن من أجله كل ما لديهم حتى أرواحهم فعانقهم وانقلب إلى داره ليعد معداته .

وكان الظلام قد أرخى سدوله . فأرسل فلاديمير خادمه بزلاقة لنقل الفتاة مارى وخادمتها من باب حديقتها ـ على نحو ما تقدم .

وامتطى هو زلاقة أخرى فانطلق فيها وحده يؤم الكنيسة وكان يعرف الطريق جيدا ويعلم أن الكنيسة على مسيرة ثلث ساعة من داره .

ولكن فلاديمير لم يكد يخرج إلى العراء حتى هبت الريح وثارت فى وجهه عاصفة ثلجية أغشت عينيه فلم يبصر وخفيت عليه السبيل وسدت فى وجهه المذاهب ، وانطمست معالم الأرض والسماء ، وغابت الكائنات فى ضبابة كثيفة صفراء كانت شظايا الثلج خلالها تتسامى وتتهاوى ، واندفع الجواد بالزلاقة هائما على وجهه لاقصد له ولا وجهة . ومضت نصف ساعة ولم تلح له غابة « جادرينو » التى بها الكنيسة .

وكل الجواد وأعيى وجعل العرق يتحلب من أعطافه . وتبين للفتى أنه قد ضل الطريق فاندفع بزلاقته يحاول الاهتداء إلى جادة السبيل ولكنه كلما أمعن في السير أمعن فى الضلالة فقلق باله وهاج بلباله ، وزايله الرجاء وملكه اليأس .

وكان الليل قد انتصف فسالت على الخدين مدامعه ، واعتسف الأرض اعتسافا لايدرى إلى أين تسوقه الأقدار .

وأخيرا سكنت العاصفة وانقشع الغيم وامتد أمامه سهل مغشى بالجليد كأنه صرح ممرد من قوارير، وأبصر على كثب منه قرية صغيرة تشتمل على خمسة منازل . فقصدها حتى بلغ أول منزل . . وثب من الزلاقة فعمد إلى نافذته ودق عليها فانفتحت وأطل منها شيخ هرم وقال :

« من الطارق ؟ »

« هل كنيسة جادرينو منا قريبة ؟ »

« كلا والله بل بعيدة جدا : هى منا على عشرة أميال »

فعض الفتى على أصابعه ندما . وأطرق واجما كالمحكوم عليه بالإعدام .

وبعد برهة رفع رأسه قائلا :

« هلا أعطيتنى أيها الشيخ دليلا حاذقا يهدينى إلى كنيسة جادرينو ؟

قال الشيخ « سأرسل إليك غلامى »

وما لبث أن خرج إليه صبى فى يده عصا فتقدم أمام فلاديمير يهديه الطريق بين كثبان ثلج مركومة حتى مطلع الفجر إذ بلغا كنيسة جادرينو ، فألفياها مغلقة فدفع للبواب بضعة دراهم ودخل ساحة الكنيسة بزلاقته فلم يجد ثمت الزلاقة الأخرى التى كان قد بعث بها لتحمل إليه حبيبته . ماذا جرى . وما الخبر ياترى ؟

وهنا نترك فلاديمير فى حيرته ودهشته ونعود إلى أسرة الفتاة مارى فى قريتهم . لنرى ما جرى هنالك ؟

انتبه والد الفتاة وأمها من النوم وذهبا إلى مائدة الإفطار وصفت أكواب الشاى وأرسل الوالد إحدى الخادمات إلى غرفة ابنته لتستفسر عن صحتها وكيف أمضت الليلة ، فعادت الخادمة وقالت للشيخ إن ابنته أحسن حالا وأنها قادمة على الأثر.

ودخلت مارى فسلمت على أبويها .

وقال الشيخ « كيف حالك يا بنيتى ؟ »

« أحسن يا أبتاه »

« أى أن ما كان بك من الصداع هو من تأثير دخان الفحم »

« لعله كذلك يا أبى » .

فى مساء ذلك اليوم أصيبت مارى بنوبة شديدة من المرض فجئ بطبيب من المدينة ففحصهما فإذا هى تهذى من الحمى ، ولبثت الفتاة أسبوعين بين الحياة والموت .

ولم يكن أحد بالدار يعلم شيئا من أمر فرارها وعودتها فى تلك الليلة المشئومة .

وكانت الفتاة قد أحرقت عند إيابها تينك الرسالتين آنفتى الذكر ، ولم تبح خادمتها بشيء وكانت للسر كتوما . وكذلك كان قسيس كنيسة جادرينو مأمونا على الغيب . والثلاثة الشهود كلهم كان حافظا للسر حازما رزينا . وكذلك كان سائق الزلاقة ، ومن ثم بقى السر مكتوما فى أكثر من ستة صدور ، وهذا نادر .

ولكن مارى باحت بالسر فى بعض نوبات هذيانها - وإنما باحت به فى عبارات متقطعة متنافرة . وألفاظ مبددة النظام متناكرة ، حتى إن أمها لم تكد تفهم من تلك العبارات المضطربة أكثر من أن ابنتها كانت تعانى من حب « فلاديمير » لوعة وحرقة . وإن الحب ربما كان سبب علتها . فأطلعت زوجها على ذلك . وبعد مناقشات ومفاوضات استقر رأيهما على تزويج الفتاة من حبيبها فلاديمير حتى شفيت .

أخذت الفتاة فى النقاهة . وبعث أبوها وأمها إلى فلاديمير برسالة يطلبان فيها إليه الحضور إلى دارهم للشروع فى تزويجه من ابنتهما مارى، وكانا يحسبان أن رسالتهما تلك ستصيب من الفتى مواقع الماء من ذى الغلة الصادى . ولكن ماذا كانت دهشتهما حينما جاء الرد من فلاديمير فى رسالة شديدة اللهجة يقول فيها إنه لن يلج البتة دارهما ، وأن كل ما يرجوه هو أن يلقى حتفه عاجلا فيستريح من شر هذا العالم ، وبعد أيام من ذلك علما أن الفتى عاد إلى الخدمة العسكرية واختفى فى غمار الجنود . وكان هذا فى عام ١٨١٢ .

وقرأت الفتاة يوما فى إحدى الجرائد اسم فلاديمير ضمن أسماء الذين أبلوا بلاء حسنا ضد جيوش نابليون أثناء زحفها على موسكو . وأنه (أى فلاديمير) أصيب بجراح خطرة . فأغمى عليها وخيف أن تعاودها الحمى ولكنها ما لبثت أن أفاقت .

ثم توفى والد الفتاة وأورثها كل ضياعه وأمواله ، ولكن ذلك الميراث العظيم لم ينسها حبيبها ولم يعزها عن فقده. وتحولت وأمها عن تلك القرية التى انتابهما فيها المحن والأرزاء إلى إحدى ضيعاتهما العديدة حيث عزمتا على الإقامة .

وهنالك ازدحم عليها الخطاب ، ولكنها صدت عنهم وأعرضت . وكلما أخذت الأم تحضها على اختيار زوج من هذا الجم الغفير من الطلاب كان جوابها

الصمت والإطراق .

وأذاعت الجرائد نعى فلاديمير منبئة أنه قتل فى موسكو ليلة استولت عليها جيوش نابليون .

فقدست مارى كراه وادخرت جميع آثاره ، كالكتب التى كان يقرؤها والصور التى رسمها وقصائد الغزل التى نظمها فيها وسائر مدوناته ومذكراته . وقد كان فى سلوكها هذا ما أدهش أهل تلك الناحية ، إذ عجبوا أن يكون فى الدنيا امرأة على هذا الخلق العظيم من الوفاء والحفاظ . وجعلوا يرقبون ظهور ذلك البطل الذى قد يتاح له أن يتغلب فى النهاية على أحزان هذه الفتاة الوفية .

فى أثناء ذلك كانت الحرب قد وضعت أوزارها واستراح الناس من شرها، وكانت وفود الخطاب كما أسلفنا يؤمون دار الفتاة من مهاب الرياح الأربع، وأصبحت وكأن صرح جمالها محاصر بجيش عرم من العشاق . ولكن هذا الجيش تقهقر وانسحب حينما تقدم إلى الفتاة الضابط العظيم « الكولونيل برومين » من كتيبة الفرسان يحمل على صدره وسام القديس جرجيس ، وعلى وجهه صفرة أسبى وأفتن من صفرة ذلك الوسام . وكان فى السادسة والعشرين من عمره قد استكمل أسباب الرجولة واستوى سيدا ضخما لا غرا غمرا ولا ضرعا قحما .

وكان هذا الفارس قد أخذ إجازة وجاء يقضيها فى ضيعته بجوار ضيعة الآنسة مارى ، فأفردته هذه الحسناء من دون غيره من الزوار بعناية خاصة وآثرته بمزيد الاحتفاء والتلطف والرفق والتعطف . فكانت فى حضرته تخلع رداء الحزن والأسى ، وتنصل من حداد الشجن والشجى . ولا تجرؤ على القول بأنها كانت تغازله وتصبو إليه - ولكنا نقول إذا لم يكن توددها إليه وحنينها وارتياحها هذا غراما وحبا ، فكيف إذن يكون الحب والغرام ؟

والواقع أن « برومين » كان فتانا خلابا ، وكانت عيناه أبدا معقودتين بطلعة مارى وقلبه عليها دائم الخفقان وفؤاده بها دائم الهيمان . وكانت قد علمت أنه كان فيما سلف من زمانه خليعا مستهترا بالنساء يتنقل من هذه إلى تلك .

ولكن ما بلغها عن سلوكه هذا لم يزر به عندها ولم يشنه فى نظرها ، وكان مذهبها فى ذلك مذهب سائر النساء إذ يغتفرن من ذنوب الرجال كل ما كان

منشؤه جرأة القلب وحدة المزاج وحرارة الشهوة وتوقد الشعور .

ولكن الذى كان أبعث لعجبها وأشغل لبالها من كل مزايا هذا الفتى ومحاسنه، هو صمته عن مكاشفتها بميله ومصارحتها بسريرة حبه .

لقد جعلت تعجب له كيف لم يفتح لها أغلاق صدره ويبرز لها مكنون سره . وكيف لم يخر راكعا تحت قدميها يشكو لها حر وجده وفرط كمده ، ويسألها أن تكون زوجته وقرينته ؟ ماذا كان يمنعه ، أهى الحشمة والحياء ؟ أم الأنفة والكبرياء ؟ أم المكر والدهاء ؟ إن هذا والله إلا لغز وأحجية ، ومشكلة غامضة خفية .

وبعد إدمان الفكرة عزمت على استطلاع غامض هذا الأمر ، ورأت أن أحسن حيلة لبلوغ ذلك هى أن تخلو به يوما فتوجه إليه من عبارات التودد والتحبب وأساليب الاستصباء ، ما هو جدير أن يخدر أعصابه ويستذيب عواطفه . وفعلا نفذت هذه الخطة فاختلت بالفتى وسلطت عليه تيارا كهربائيا ومدفعية ألحاظها، فخارت قواه تحت تلك المدفعية التى لا تصبر على قذائفها الأبراج العالية ، ولا الجبال الراسية . وتزايلت مفاصله ووهى عقد جلده . فكاشفها بالغرام ، وشكا لها لواعج الهيام إلى أن قال :

« مارى ! إنى أحبك ! » .

فنكست الفتاة جيدها كالزهرة آدها حملها من الطل والندى .

واسترسل « برومين »

« لقد جنيت على نفسى إذ عودتها حلاوة الائتناس برؤيتك . وعلى عينى إذ جعلت من دأبها الاكتحال ببهاء طلعتك ، وعلى أذنى إذ صيرتها فى حاجة أبدا إلى عذوبة حديثك ولذاذة نغمتك »

فتذكرت الغادة فى تلك الألفاظ المنسقة الرسالة الأولى من رسائل « سانت بريه » فى كتاب « هلواز الجديدة » لجان جاك روسو . وكانت مارى من أكثر نساء عصرها اطلاعا على آداب اللغات الحية والمندثرة .

واستمر برومين فى مناجاته .

« والآن قد نفذ السهم فلا مناص ، وقد أصبحت أيتها الصورة المعشوقة

والدمية المونقة المرموقة . شغلي الشاغل يقظان ، وحلمي الطائف وسنان ،وأصبحت أملي وألمي وفرحتي وترحتي ، ومناي وشجاي .

وبعد كل ذلك فإن هنالك سرا رهيبا يحول بيني وبين الاقتران بك - بل يجعل هذا الاقتران أمرا مستحيلا »

فقاطعته الفتاة قائلة :

« وإن عندي أيضا مثل هذا السر الرهيب ، وأراه أيضا يحول دون اقتراني بك ، بل يجعل هذا الاقتران أمرا مستحيلا »

قال برومين :

« واحسرتاه ! ليس في الدنيا أنكد مني عيشا وأسوأ حالا- إني متزوج يا ماري ! »

فبهتت الفتاة ودهشت

قال برومين « أجل وقد مضى على تاريخ زواجي أربعة أعوام . وأعجب ما في الأمرأني لم أر زوجتي إلا لمحة وقت القران - وقبل ذلك لم أكن رأيتها قط ولم أرها من بعد ذلك أبدا - ولا أعرف من هي ، ولا أدري أين هي ، ولا أدري هل في مشيئة الأقدار أن تريني‌ها مرة أخرى قبل مماتي »

فصاحت ماري « ماذا أسمع ؟ . هذا أعجب ما جرى به لسان ، وأغرب ماساغ في أذن إنسان . امض في حديثك ، وسأخبرك بعد فراغك . »

قال « برومين » :

« في أوائل عام ١٨١٢ كنت متوجها إلى مدينة « فلنا » ، حيث كانت فرقتي معسكرة ، فوصلت إلى إحدى المحطات متأخرا ذات ليلة ، وأمرت بإسراج الخيل متأهبا للرحيل . وإذ ذاك ثارت عاصفة من عواصف الثلج فأشار على ناظر المحطة بالانتظار ريثما تسكن العاصفة ، فاتبعت مشورته . ولكن عراني شيء من القلق لم أفهم له علة ولا سببا ، وخيل إلي أن دافعا من ورائي يدفعني إلى استئناف المسير، فأمرت بالزلاقة أن تهيأ وانطلقت والزوبعة في أشد غلوائها ، واندفعت الزلاقة تنهب الأرض نهبا — « قد لفها الليل بسواق حطم » .

ثم ضللنا الطريق فهمنا على وجهنا في مجاهل الأرض ، كل ذلك والعاصفة

لم تن ولم تفتر . ولاح لنا ضوء فيممناه فإذا قرية بها كنيسة بابها مفتوح وفى ساحتها عدد من الزلاقات ونفر من الناس . وإذا القوم يصيحون بى تقدم ! تقدم ! ماذا أخرك حتى الساعة ؟ أسرع فلقد والله أغمى على الفتاة وقد حار القسيس فى أمره فما يدرى ما يفعل . ولقد هممنا بالانصراف . أسرع إلينا . »

فنزلت من الزلاقة دون أن أنبس بأدنى كلمة ، ودخلت الكنيسة وكانت مضاءة بشمعتين ضئيلتين . وعلى مقعد بزاوية مظلمة تجلس فتاة صغيرة إلى جانبها خادمتها تدلك وجهها ورأسها .

وقالت الخادمة : « الحمد لله إذ جاءنا بك بعد أن بلغت الروح التراقى . لقد كدت والله أن تقتل الفتاة .

ودنا منى القسيس وقال « أتحب أن تبدأ الآن ؟ »

فقلت وقد ذهب عقلى وطاش لبى ، وإنى وأيم الله لا أعرف ما أقول من فرط الدهشة والذهول « ابدأ ابدأ يا أبانا »

ثم نهضت الفتاة فرأيتها مليحة حسناء ، فوقفت إلى جانبها أمام القسيس .

كل ذلك وأنا فى دهشة وذهول . وأسرع القسيس فى أداء مهمته وشهد الشهود وتم زواجنا »

وقال لنا الشهود :

« بارك الله لكما فى القران السعيد . تعانقا أيها العروسان ! »

ولما التفتت إلى زوجتى فتبينت حقيقتى اصفر وجهها ونفرت مذعورة وصاحت « رباه ! إنه ليس هو، إنه رجل آخر » ثم خرت مغشيا عليها .

فنظر إلى الشهود مذعورين فمنحتهم كتفى ، وغادرت المكان فألقيت بنفسى فى الزلاقة وصحت بالسائق : « انطلق ! »

فصاحت مارى قائلة : « رباه ! وأنت للآن لاتدرى ماذا حدث لزوجتك ؟ »

قال برومين : « لا أعرف من أمر ذلك شيئا ، كما لا أعرف اسم القرية التى تزوجت بها ولا اسم المحطة التى منها انطلقت . ومن سوء الحظ أن الخادم الذى كان معى تلك الليلة قتل أثناء الحرب ، فأصبحت ولا أمل لى فى الاهتداء يوما

ما إلى المرأة التي تزوجتها على الرغم منها- والتي قد عبثت بأقدس عواطفها فانتقم لها القدر مني شر انتقام بحرماني أن أتزوج بك الآن - وفي هذا الحرمان هلاكي ».

فصاحت ماري : « ألست تعلم أني أنا الفتاة التي تزوجت بها تلك الليلة . أأنت الذي صنعت بي كل ذلك ثم لا تعرفني ؟»

فأهوى برومين على زوجته يطوق جيدها بعقد من مدامع الندم والسرور ، وفؤاده يخفق في قبضة الأسف الشديد والحبور .

جوليا

قال المنجد لصبيه :

« اذهب يا كارل إلى دار المسز « رومر » فلديها كرسى يحتاج إلى التنجيد فائت به على عجل »

ولما وصل كارل إلى دار السيدة المذكورة ، خرجت إليه فتاة فى الثامنة عشرة فرنت بعينيها الساحرتين إلى الفتي وكان جميل الطلعة ممشوق القوام ، ورنا إليها الفتى وأدهش كلا منها جمال الآخر فلبثا ذاهلين مبهوتين برهة ، ثم أفاقت أولا فقالت : .

« من أنت ؟ »

« صبى المنجد »

« أتريد شيئا من أمتعة المنزل ؟ »

وهل في المنزل شيء هو أبدع وأروع وأشهى وأبهى من ذلك الشكل الذى أراه الآن وأخاطبه ؟ »

فاشتد غيظ الفتاة من جرأته ووقاحته ، واحمر وجهها وضربت الأرض بقدمها .

وتمادى الفتى فى وقاحته فقال :

« إذا كان فى متاعك خلل أو فساد ، فليس من شأنى إصلاحه لأنه لاشأن لى بمتاع الفتيات ولا علاقة ، وإنما جئت بأمر معلمى المستر سفنسون لأحمل إليه من ههنا كرسيا يقال إنه مخروق وفى حاجة إلى التنجيد »

فنصبت الفتاة رأسها فى عظمة وكبرياء وفتحت الباب وسارت بالفتى إلى المنظرة ، ثم أومأت إلى كرسى مخروق ولم تنبس أثناء ذلك كله بأدنى كلمة . فحمل كارل الكرسى ومشى حتى إذا خرج من باب المنزل ، التفت إلى الفتاة

وقال :

« خيرا ؟ »

فقالت الفتاة بمنتهى الكبرياء والعظمة .

« ماذا تريد ؟ »

فأجابها بابتسامة تنم عن أسرار ضميره ، أجابته عليها وجنتاها بحمرة الحياء والخجل .

ثم قال .

« إني بخير وأرجو أن تكوني أنت بخير »

فلم تتمالك الفتاة أن ضحكت ضحكة عالية ثم قالت :

تالله ما رأيت أبله منك قط ، لأنت أعبط صبيان المنجدين جميعا - اذهب في الحال وإلا ناديت عمتي »

فقال كارل « سأذهب حالا ، ولكن اسمحي لي قبل ذلك أن أرجو الله أن تكون عمتك بخير أيضا »

ثم مضى مسرعا ، ولما عاد إلى الدكان وضع الكرسي في غرفة الأمتعة المختلة وشرع يزاول أعمال صناعته ، ولكن محاسن الفتاة جعلت تتراءى لعين خياله . ولما أكمل قطعة الأثاث التي كانت في يده نهض إلى الكرسي الذي جاء به من منزل الفتاة ووضعه أمامه ، ولم يكن في نيته أن يبدأ به ولكنه كان يتلذذ بمجرد النظر إليه إذ كان يذكره بصاحبته الحسناء .

وبينما هو يتأمل الخرق الذي به بصر بورقة صغيرة كانت قد سقطت في ثقب بظهره - وكانت معنونة هكذا « الآبار المعدنية - فيرنكليف وشركاؤه - المدير روبرت دي لين » وفيها الرسالة الآتية :

عزيزتي جوليا

ليت شعري ماذا أصابني من فتنة جمالك الباهر ، فو الله ما أدري بين ضلوعي جمرة تتوقد . أم حسرة تتجدد .

لقد تركتني أشعل فحمة الليل بأنفاسي الحرار . ثم أطفئها بدموعي الغزار .

ماذا أثخنت لحاظك فى حشاى من الجراح والأوصاب . وما الذى قالته عيناك لقلبى فأجاب . فهلا تمتنين على صبك الولهان بلقاء ينفى الشجى ويشفى الجوى . ويا حبذا لو كان ذلك فى يوم الأربعاء فى عين المكان والأوان الذى تلاقينا فيه قبل ، والسلام .

أسيرك المضنى

روبرت

فلما فرغ كارل من تلاوة الرسالة تطاير شرر الغضب من لحاظه المستعرة ، ثم أعاد تلاوتها مرارا وأخفاها فى جيبه وقال:

« مهما يكن روبرت هذا فإنى أقسم بمن رفع السماء بغير عمد أنه لوغد نذل خسيس ساقط الهمة ، صفر من الشرف والمروءة ! »

ولما ذهب كارل فى صبيحة اليوم التالى إلى دكان معلمه ، وجد الفتاة الحسناء تترقب مجيئه .

وقال له المعلم المستر سفنسون « هذه الآنسة لها إليك كلمة »

وكانت مرتبكة مضطربة يجئ لونها ويذهب .

قالت تخاطب كارل « أظنك قد ...لعلك ... أريد أن أسألك هل عثرت على شيء فى الكرسى الذى أخذته أمس من دارنا ؟ »

فنظر كارل إلى المعلم فوجده منهمكا فى عمله غافلا عنهما ، فنظر إلى الفتاة وهز إليها رأسه علامة الإيجاب . فمدت إليه يدها وقالت بعظمة وكبرياء « هات ما قد وجدته بالكرسى »

لكن كارل جعل ينظر إليها نظرات لينة ملؤها الحب والوله ، وهز إليها رأسه رفضا وإباء .

قالت جوليا : « إذا أبيت شكوتك إلى معلمك المستر سنفسون »

قال كارل بثبات ورزانة « وإذا أبيت أنت إلا أخذ الرسالة أبلغت الأمر إلى عمتك المسز رومر »

فاصفر لون الفتاة اصفرارا رائعا حتى أشفق عليها كارل وتوجع لها .

فالتفت إلى المعلم وقال :

« إن الآنسة تريد أن أرفقها إلى دار عمتها لترينى شيئا من الأثاث فى حاجة إلى التنجيد .

فهز المعلم رأسه موافقة دون أن يرفعه عما كان مكبا عليه من عمله .

وغادر كارل الدكان تتبعه الفتاة فى خشوع وتواضع - حتى إذا بلغ بعض الأزقة وقف بها هنالك وقال لها مستفهما .

« اسمك جوليا ؟ »

فقالت مغضبة « ليس هذا من شأنك »

فقال مبتسما « إذا أبيت الجواب عن سؤالى هذا فلأعرفنه من عمتك »

قالت « اسمى جوليا وماذا تريد بعد ذلك ؟ »

« اعلمى يا جوليا أنى لست معطيك هذه الرسالة - لا تعبسى ولا تقطبى جبينك الوضاح - إنك لآية من آيات الجمال ومعجزة من معجزات الله فى الحسن والفتنة - ومازلت منذ رأيتك أمس حائر العقل مستهاما - فاسمعى ما قد عزمت عليه فى شأنك - سأبحث عن هذا المسمى روبرت الذى بعث إليك بتلك الرسالة، فإذا وجدته كفوا لك وأهلا للاقتران بك - ولن إخاله - رضيته لك زوجا وسألته أن يدعونى إلى حفلة الزفاف - ولكن هاتفا فى قلبى ينبئنى أنى سأجده وغدا خسيسا ونذلا جبانا وأحمق غبيا ، وإنه لهاتف صادق مجرب الصدق ، ومازلت أهتدى بوحيه وإلهامه فى جميع شئونى - وكذلك يوحى إلى هذا الهاتف أن ذلك المسمى روبرت الذى اجترأ على مقامك السامى بتلك الرسالة الوقحة، لن يكون نصيبه منى سوى صفعة على قفاه وبوكس فى صدغه ورفسه فى كرشه - فدعينى وتنفيذ خطتى هذه فإنه لا مناص من ذلك »

فلم يكن من الفتاة سوى أنها شرعت تبكى وتنتحب .

فقال كارل برأفة وحنان .

« لا تؤذى عينيك الساحرتين - تبكين ! - فوالله ما قصدت إلى إيذائك ولا إيلامك »

قالت جوليا « والله إنك لفظّ غليظ القلب »

ثم صوبت إليه نظرة حشدت فيها كل ما لديها من بغض وغيظ وحنق ، ومضت فى سبيلها دون أن تفوه بأدنى كلمة أخرى .

ذهب كارل إلى دار القنصلية السويدية (ولا يفوتنا أن كارل هذا كان سويدى الجنسية) وهنالك قابل القنصل وأسر إليه كلمة فى أذنه ، فأجابه القنصل قائلا « كلا » فهز كارل رأسه موافقة ، ثم همس ثانيا فى أذن القنصل فأجابه القنصل بلفظة « كلا » أيضا .

واستخرج كارل من جيبه ورقة فقدمها إلى القنصل ثم قال « لا بأس » وأعادها إلى كارل .

وعلى إثر ذلك مضى كارل إلى « شركة الآبار المعدنية ، فرنكليف وشركاؤه » وسأل عن المستر روبرت دى لين ، فأعلمه أحد الخدام أنه جالس فى قهوة « سيونار » بالشارع المجاور فمضى كارل إلى القهوة المذكورة وعقد صحبة مع الخادم فألطفه بكأس من النبيذ وسيجاره - ثم أخذ يسأله عن أسماء الجالسين على مائدة اللعب فكان ممن سماهم الخادم رجل يدعى « روبرت دى لين » (وهو صاحب الرسالة) فتأمله كارل فإذا به كما كان قد تخيله قبل - رجل ضئيل نحيف ضامر ضعيف البنية على وجهة مسحة من ملاحة

وقال خادم القهوة « إن لهذا الرجل - روبرت - لسلطانا عظيما على قلوب الأوانس ، فهن أبدا يتهافتن عليه تهافت الفراش على النار »

وانتظر كارل حتى فرغ روبرت من اللعب ثم استدعاه فانتحى به زاوية من المكان ، وقال يخاطبه :

« لقد جئت من مدينة « ستوكهولم » ومازلت أبحث عن صنف جيد من المياه المعدنية ، حتى اهتديت إليك أخيرا »

قال روبرت بحفاوة وبشاشة:

« أنا فى خدمتك يا سيدى ، تفضل بالجلوس »

ثم تناقشا مليا فى صنوف المياه المعدنية وأسعارها ونفقات شحنها وتصديرها ، وقال كارل إنه سيتروى فى هذه المسألة ثم يخبره بالنتيجة بعد أيام .

ومما آلم كارل وكدر صفاءه أنه بدأ يشعر بشيء من العطف على روبرت والارتياح إليه والاستئناس به ، وكان روبرت يظهر إلى كارل نحو ذلك من التودد والحفاوة .

وقال روبرت « حبذا لو تناولت معي الغداء اليوم ، إني أعرف مطعما مشهورا بجودة نبيذه ، فابق معي سائر هذا اليوم فإني أشعر نحوك بعاطفة شديدة وبودي أن لا أفارقك أبدا ، فهل لك في الركوب معي للنزهة ؟ - إني أعرف غادتين جميلتين لا تأبيان مرافقتنا فهل تقضي معهما برهة من الزمن ؟ »

وكذلك التقيا بالغادتين المليحتين وخرجا معهما للنزهة ، وبينا هما يلهوان معهما ويلعبان اقترح كارل على صاحبه أن يذهبا بهما إلى دار التمثيل ، فتغافل روبرت عن اقتراح كارل كأنه لم يسمعه ، ثم همس في إذنه بعد ذلك قائلا « هاتان الغادتان لا تستحقان أن نأخذهما إلى دار التمثيل ، وإني لأعرف من الغانيات من هن أجمل كثيرا وأجدر لفرط حسنهن أن تأخذهن إلى مثل ذلك المكان فنبهر بهن أبصار الجماهير »

ووفى روبرت بوعده فأخذ كارل إلى دار التمثيل في صحبة أربع من أجمل الفتيات وأفتنهن حسنا وملاحة .

وتغيب كارل عن دكان معلمه المنجد ثلاثة أيام قضاها مع صديقه الجديد ، الذي جعل يعرفه في كل ساعة جديدة بفتاة جديدة .

وأدرك كارل سر انجذاب الفتيات إلى روبرت هذا ، وذلك إنه كان لا يزال أبدا ضحوكا لعوبا لا تفارق شفتيه ابتسامة البشر ، ولا ينطفئ في وجهه مصباح البشاشة ، ذلك إلى كثرة التودد والتزلف إلى الغانيات ومزيد الترفق والتلطف بهن، والتبجيل والاحترام والإجلال والإعظام لهن، وفرط التملق والإطراء والتقرير لمحاسنهن وملحهن - أضف إلى كل ذلك أنه كان يحاول أن يفهم كل واحدة منهن على انفراد أنها هي وحدها الحبيبة والمعشوقة ، وقرة العين ومنية الروح .

وقال روبرت لصديقه كارل « إني كما ترى لا أكاد اخلو من الفتيات ساعة واحدة »

قال كارل « ولكن ماذا تصنع إذا تزوجت ؟ »

قال روبرت « إذا تزوجت ! ياللعجب العجاب ! إنى متزوج منذ عشرة أعوام »

فضحك كارل ثم قدم إلى روبرت الرسالة التى كان عثر عليها فى الكرسى المخروق فقرأها روبرت وجعل يمسح جبينه بيده كمن يحاول أن يتذكر شيئا قد نسيه .

ثم قال « جوليا - جوليا - من جوليا هذه ؟ تالله لا أذكر هذا السم البتة »

ثم عاود كد ذاكرته ، وبعد الجهد الجهيد تذكر شيئا كالحلم المشوش الذى قد مضى عليه ألف عام فقال :

« أجل جوليا هذه حمامة صغيرة عرفتنى بها فتاة أخرى لا أذكر اسمها فقدمت إليها قدحا من الشاى ووعدتها أن آخذها إلى دار التمثيل . وهذا علة كتابتى إليها تلك الرسالة ، ولكنى لم ألبث أن نسيت كل ما كان بينى وبينها حتى لكأنى لم أرها قط ولو لم تذكرنى بها الساعة لما ذكرتها آخر الأبد ، ولكن خبرنى كيف عثرت على هذه الرسالة ؟ »

قال كارل « سأنبئك بذلك فى وقت آخر ، أما الآن فأرجو أن تكتب إليها رسالة أخرى لأوصلها إليها ، أتوافق على ذلك ؟ »

قال روبرت « بكل ارتياح يا سيدى ، إنى مستعد أن أكتب إلى الفتاة كل ما تمليه على . فإن شئت كتبت إليها إنها تنزل منى بمكان السويداء من مهجتى والسواد من مقلتى ، وإن شئت كتبت إليها أنى لا أعرفها وإنى برىء منها وإنه عليها العفاء ولا أبعد الله غيرها »

* * *

وردت على المسز رومر (عمة جوليا) رسالة من المسز « جونسون » صاحبتها القديمة ، تدعوها هى وابنة أخيها جوليا إلى تناول الغداء على مائدتها ، وأنبأتها أنها قد دعت أيضا قنصل دولة السويد إلى هذه المأدبة .

* * *

رحبت المسز جونسون بالفتاة جوليا وقالت :

« ياللعجب ! إن آخر عهدى بك طفلة صغيرة كالهرة الوثابة ! واعجبا ! ما

أسرع كر الغداة والعشى ، وما أشد أثرهما فى الإنسان .

هاك قنصل السويد ياجوليا يذوب شوقا لرؤيتك ، وهاك المستر « كارل باترسون »

وأقبل كارل على الآنسة جوليا فهمس فى أذنها قائلا « سأرد إليك الرسالة متى شئت » فعبست الفتاة تلك العبسة المستملحة ومطت شفتيها تلك المطة المستعذبة المعهودة ، ولم تزد على ذلك .

وقال كارل « إن الرسالة ليست معى الآ ولكن معى أخرى من الذى كتب إليك الأولى »

فبدا الغضب على وجه الآنسة وقالت :

« لا أدرى لماذا أنت هنا الآن ولا يهمنى ذلك ، ولكن إذا كان يلذ لك أن تعارك رجلا من الناس لترغمه على أن يكتب إلى رسالة سفه وبذاءة وخسة ونذالة، فاسمح لى أن أقول لك إنك قد تجافيت بعملك هذا عن سبيل الشرف وتجانفت عن منهاج المروءة »

قال كارل « تقولين إنى أعارك رجلا من الناس ،أتريدين المستر روبرت دى لين ؟ عجبا عجبا ! إنى أعشق الرجل وأجله ! »

وهنا ارتجل القنصل الكلام يخاطب المسز رومر عمة جوليا فقال :

« اسمعى يامسز رومر ، ما رأيك فى هذا الفتى كارل ؟ إن أباه من أغنى تجار الأخشاب فى بلاد السويد ، وقد أراد أن يعلم ابنه هذا فن التنجيد الذى له أمس علاقة بتجارة الخشب . ولكن كارل أنف واستنكف أن يزاول هذه المهنة فى بلاده فيعرض نفسه لسخرية زملائه واستهزاء أنداده وأصحابه ، فآثر أن يقدم إلى لندن ليزاول بها تلك المهنة ، وقد أخفى نفسه فى دكان غامضة محجوبة عن الأبصار ، حيث يأمن أن يعثر عليه أحد .

ولقد خرج على بغتة من هذا المخبأ فانقض على وسألنى المعونة فى حادثة غرامية ألمت به فكادت تذهب بعقله ، وسألنى أن أبلغ أقصى مجهودى فى السعى إلى تزويجه من الفتاة التى اختبلت لبه وتيمت فؤاده ـ فلم يسعنى إلا السعى إلى تحقيق آماله لما بين والده المبجل وبينى من روابط الإخاء والصداقة ، فما رأيك

فى ذلك يا مسز رومر ؟ » .

عند ذلك تبدت على وجه الفتاة جوليا أوضح شواهد الفرح والسرور فى شدة احمرار وجنتيها ووميض عينيها وبريق ثغرها ، وصاحت المسز جونسون ربة الدار :

« يا غلام أحضر لنا أجود مالديك من المدام ، نشربه فى نخب العروسين »

الفهرس

رقم الإيداع ٣٨١٥ / ٩٤
L.s.B.N : ٩٧٧ - ١١ - ٠٨٥٧ - ٣

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه